العرب وأوروبا

تأليف:
لويس يونغ

ترجمة:
ميشيل أزرق



دار الطليعة بيروت

العَرَبُ وَاوُروبَا

ص.ب : ١١١٨١٣
تلفون : ٣٠٩٤٧٠
٢٥٧١٧٨

الطبعة الاولى

ايلول (سبتمبر) ١٩٧٩

العَرَبُ وَأُورُوبَا

تأليف

لويس يونغ

ترجمة

ميشيل أزرق

مراجعة

محمد قجه

دارُ الطّليعة للطّباعة والنشر
بيروت

هذه ترجمة كتاب :

THE ARABS AND EUROPE

by

LEWIS YOUNG

تقديـــم

حين وضعت بين يدي هذه الترجمة لكتاب الاستــاذ الدكتور لويس يونغ « العرب واوروبا» ، وصف لي مؤلفه بانه محب للعرب. وكان هذا كافيا ليغريني بقراءة الكتاب بغية التعرف على كاتبــه. فلئن كان المهتمون بالعرب هذه الايام في كافة انحاء العالم ، وفــي الغرب بصورة خاصة ، كثيرون فان المحبين بين هؤلاء المهتميــــن ليسوا بالكثرة التي نتمناها . ليس غريبا اذن ان ابادر الى مطالعة كتاب الدكتور يونغ ، باحثا عن الفائدة في محتوياته ، ومرضيـــا فضولي في التعرف على نتاج عالم له صفات مؤلفه كاستاذ جامعي له آثاره الكثيرة ، محب لامتنا، ولا يحتفظ بمحبته لنفســه بـــل يعرضها على القراء في بلاده وعلى الناس اجمعين في كتاب علمــي حافل .

لقد كانت حصيلتي العلمية من قراءة كتاب «العرب واوروبا» كبيرة . ومن الناحية الاخرى تبين لي انه من الاجدر ان يوصــف الاستاذ يونغ بانه محب للحقيقة اكثر منه محبا للعرب . لســـت اقول هذا لانكر تعاطف المؤلف مع العرب ، ولكني اقوله تقديـــرا لموضوعية هذا العالم وقدرته على التخلص من الاحكام المسبقـــة، ولجهده في تحري الحقائق والمجاهرة بها متحديا ما ران على الاذهان

في الغرب طوال قرون كثيرة . ولست ادري، فلعل تعاطف صاحب هذا الكتاب مع تاريخ الحضارة العربية ما جاء الا من تعلقه بالحقائق العلمية وتعصبه لها، واستنكاره لان تظل مطموسة او مستهانا بها.

وارجو ان لا يتوقع القارئ مما اوردته ان يجد الكتاب الذي نحن بصدده مكرسا لتمجيد التراث العربي واصحاب هذا التراث، او لتفنيد المطاعن الموجهة اليه واليهم . فليس هذا موضوعه ولا الفه صاحبه بهذه الغاية. انما هو اثر قصد به دراسة العلاقات التي قامت بين العرب وشعوب اوروبا في الغابر والحاضر ، والتأثيرات المتبادلة بين هذين القطبين في مختلف المجالات الانسانية . وهي دراسة فيما احسب ، مبتكرة من حيث تركزها في عمل علمي واحد مستقص وشامل . وهي دراسة منصفة من حيث تجردها من تأثيرات العصبية العنصرية والتعصب القومي وتحررها من النظرة الفوقية التي طالما عرفناها من الدارسين الغربيين لشؤوننا مهما كان تعاطفهم معنا . وهي في نفس الوقت دراسة ذات منحى انساني، باعتبارها الامم على اختلافها مجموعات بشرية متكافئة ، لا يفضل بعضها بعضا اخر وانما لكل منها استعدادها وقابلياتها المتماثلة في التأثير والتأثر . هذا كله علاوة على ما استدعته هذه الدراسة من جهود في الرجوع الى المنابع استقصاء للمعلومات وكشفا لحقائق وتأثيرات مجهولة او قليلة الذيوع بسبب انها لم تجد لها طريقا الى المؤلفات السائرة لتصبح معروفة عند العامة .

ونحن اذا عددنا الدكتور يونغ ، مؤلف هذا الكتاب ، مستشرقا او مستعربا، من الذين انصرفوا الى دراسة الجوانب المختلفة لحضارة الامة العربية في مختلف عهودها ، فلا بد لنا من القول انه بتأليفه هذا الكتاب قد سلك طريقا جديدة قل سالكوها من زملائه. نحن في الواقع مدينون لاجيال المستشرقين المتتابعة ، مهما تعددت الاقوال في نزاهتهم وفي اغراضهم ، بتعريفنا على اجزاء هامة من تراثنا المجهول او المهمل ، وبتسليطهم انوارا جديدة على ما هو معروف من هذا التراث اتاحت لنا حسن الرؤية اليه ووضوحها .

اقول اننا «نحن» مدينون. ذلك انه اذا كانت ثمار جهود الاستشراق متداولة في عامة طبقات المثقفين العرب ، فانها في الغرب بقيت محصورة في نطاق الاختصاصيين ، لا تقع عين القارىء الغربي عليها . انها لم تكتب له ، فهي لا تثير اهتمامه . اما كتاب الدكتور لويس يونغ هذا فانه طراز مختلف عن الاعمال التي يبدو في الاول انه يسلك في سلكها . ان في مجرد تسميته بهذا الاسم ، «العرب واوروبا» ، اغراء للقارىء الاوروبي بان يستقصي محتويات هذا الاثر الذي يختص هو بشطر منها . وهو في الواقع كتاب موجه الى هذا القارىء الاوروبي لتعريفه بما يجهله عن عالم اثر هو فيه وتأثر هو به . واكبر الظن انه لن يرجع في خيبة من قيمة ما يقرأه في هذه الصفحات ، وان كان من المحتمل ان يصدم احيانا بوقوعه فيها على ما لم يكن يتوقع .

وهذه الصفة التي يتميز بها كتاب الدكتور يونغ تسوقنا الى ان نعطيه قيمة خاصة معترفين بأهميته ، لا من حيث الفائدة التي نجنيها ، نحن القراء العرب ، من المعارف التي يعطينا اياهافحسب، بل من حيث اطلاع الغربيين على هذه المعارف واقناعهم بخطرها . كما ان هذه الصفة نفسها تصلح لتساق كتفسير او كتبرير الى ما قد يأخذه القارىء العربي على بعض ما يحتوي الكتاب من امور تعتبر بالنسبة الينا في حكم الاوليات المفروغ من صحتها او من المعلومات التي لا جدة فيها . فكثير مما نعتبره نحن بديهيا يحتاج، بالنسبة الى الانسان الاوروبي ، الى ان يقام على صحته البرهان، وذلك لما غرس في نفس ذلك الانسان من ثانوية الحضارة العربية او هزالها او بعدها عن الاصالة او الابداع .

وبعد ، فاني لا اريد في هذه المقدمة المقتضبة ان اعدد الحقائق الكثيرة التي يعرضها الاستاذ الدكتور يونغ لاول مرة في كتاب مثل هذا المؤلف ، وان ابين قيمتها . كما اني لا ارغب في أن اقف على المواضيع التي تحتمل المناقشة استفهاما او تصحيحا لتسمية او تبيينا للحقيقة . وحسبي ان اقول ان هذا الكتاب هو

بين يدي القارىء الاوروبي منبع نـــور يبصره ، باسلوب العلــم واقناعه ، بما يجهله او ما ينكره من قيم العرب الحضارية . أمــا القارىء العربي فانه سيجد فيه ما يزيد في معارفه عن تأثير العرب في أوروبا او تأثرهم بها . وحين يقف هذا القارىء الاخير عند ما يغري بالمناقشة التي اسلفت ذكرها ، فاني احسبه سيجد الحسم لكل شك والجواب على كل تساؤل في ما ينبعث من بين سطـور هذا الكتاب القيم من محبة للحقيقة وتقدير لمساهمة العرب الكبيرة في سير الركب البشري وتكامل الحضارة الانسانية .

عبد السلام العجيلي

مدخل

قصة التفاعل بين حضارتي العرب واوروبا معقدة وشائكة وطويلة . وهي اذ تبدو قصة فتوحات واعادة فتوحات ، فانها تأخذ احيانا اشكال مبادلات ثقافية متناوبة اخذا وعطاء . ونحن حينما نسلم اليوم ان اسيا وافريقيا تتمثلان اوروبا قدوة لهما، يجب الا ننسى الوجه الاخر للصورة في العصور الوسطى عندما عكفت اوروبا على علوم العرب من طب وفلسفة وطبيعة واستمر ذلك لفترة طويلة . حتى اذا كان القرن الثامن عشر قبست منهم نار الرومانطيقية وفي القرن التاسع عشر سلبتهم اراضيهم ، ثم بترولهم في القرن العشرين .

وعلى الرغم من سجل اوروبا الطافح بالتزمت الفكري واللاتسامح الديني ، على النقيض من المسلمين ، فانها ظلت ترفض الاعتراف بما للعرب من يد طولى على حضارتها وتتجاهل دورهم الحضاري وتقلل من شأنه .

لقد هول المؤرخون الاوروبيون في وصفهم الفتوحات الاسلامية في اوروبا خلال العصور الوسطى ومدى تهديدها للدين المسيحي. بينما تغافلوا عن ظاهرة انتكاس الحضارة في البلدان التي اجلي العرب عنها . وما اسبانيا والبرتغال وصقلية الا امثلة عن ذلك.

وفي اسبانيا يسود التعصب الديني وتعذيب الحيوانات كمشهد مألوف . وفي البرتغال اعلى نسبة للامية في اوروبا، وفي صقلية عصابة المافيا السيئة السمعة .

ما الذي تركته حضارة العرب والمسلمين في اوروبا ؟ لقد تركت بصماتها على جميع المستويات ابتداء بالفولكلور كراقصي الموريش الانكليز الذين هم في الحقيقة قناع لراقصي البربر، وانتهاء بالعلوم حيث يستخدم ملاحو الفضاء اصطلاحات عربية مثل : السمت Asimuth وسمت الرأس Senith وهناك في خرائط القمر اكثر من موقع اطلق عليها اسماء لبعض العلماء العرب : كالزركلي والبتاني وابي الفداء . ان اشياء كثيرة لا يزال على الغرب ان يتعلمها من الحضارة الاسلامية، منها نظرة العرب المتسامحة وعدم تمييزهم فروق الدين والعرق واللون .

وسوف احاول في الصفحات التالية ان اقدم الخطوط العريضة للتاريخ العربي والمجتمع الاسلامي وما ارساه العرب من اسس اولا . كما سأشير ثانيا الى اهم الطرق والاساليب التي اثرت بواسطتها حضارة العرب في الحضارة الاوروبية ، وكيف اثرت اوروبا بدورها في الحضارة العربية .

المقدمة

اهتمام الاوروبيين بالعرب وتاريخ الدراسات العربية في الغرب

حينما بدأت اوروبا الحديثة العهد بالتعلم تبدي بعض الاهتمام بلغة العرب ودينهم وفكرهم .. كانت قرون عديدة قد مضت على قيام الخلافة الاسلامية وتوسع رقعة امبراطوريتها.

كان كل من المسلمين والمسيحيين يرى في نفسه صاحب الحق المطلق والدين السوي ويرى في الطرف الاخر عدوا يتوجب قهره ، وليس امرا يجب تفهمه . الا ان ذلك لم يحل بين الاوروبيين وادراكهم لتفوق العرب حضاريا ، وقد تطور هذا الادراك خلال اتصال الاوروبيين بالعرب في اسبانيا وصقلية والمشرق Levant في عصر الصليبيين وقد ادرك الاوروبيون ان تحطيم الدين الاسلامي بقوة السلاح امر مستحيل مما ادى الى اعادة النظر في مواقفهم.

اولى الكتب العربية التي ترجمت الى اللاتينية ـ لغة العلم في اوروبا آنئذ ـ كانت الكتب الطبية والعلمية ، وكان المترجم تونسيا غدا فيما بعد راهبا في دير مونت كاسينو Monte Cassino

بعد ارتداده عن الاسلام وتسميته قسطنطين الافريقي Constantine the African وقد بدأ عمله كمترجم حوالي عام ١٠٧٠ م واستمر فيه حتى وفاته عام ١٠٨٧ .

وعلى الرغم من ان الترجمات اللاتينية لتلك الكتب كانت غارقة في الفوضى والاغلاط فانها اصبحت بداية لنشاط واسع دام عدة قرون في ميدان الترجمة ، حيث نفذ المسلمون بمعارفهم عن العالم القديم الى الاوروبيين ، ونقلوا اليهم كشوفهم واختراعاتهم التي اضافوها الى تلك المعارف . وبقيت ترجمة كتب الطب والعلوم نشطة حتى توقفت بعد اكتشافات العلماء الاوروبيين من امثال كوبرنيكوس Copernicus وفيزاليوس Vesalius وباراسيلسوس Paracelsus.

كان اشهر المترجمين جيرار الكريموني Gerard of Cremona المتوفي عام ١١٨٧ الذي ترجم عن العربية كتبا لابقراط وجالينوس كانت قد نقلت بدورها الى العربية . كما ترجم كتابين اصيلين في العربية هما «القانون في الطب» لابن سينا (٩٨٠-١٠٣٧) ، و«التصريف» للزهراوي الذي يعتبر القسم الاخير منه اشهر بحث في الجراحة . وهذان الكتابان لهما اهمية خاصة في تاريخ الطب.

وكان اول المستشرقين الانجليز ادلارد الباثي Adelard of Bath الذي اتم ترجمة جداول في علم الفلك لمسلمة المجريطي عام ١١٢٦ .

كان هناك دافع اخر لاهتمام الاوروبيين باللغة العربية، وهو الدافع الديني ، فقد ارادت الكنيسة الكاثوليكية ان تحول المسلمين الى المسيحية وان تربط الكنائس الشرقية بروما بعد توحيدها. وللوصول الى ذلك كان لا بد من تعلم العربية . وقد اثمر هذا الاهتمام اولا ترجمة القرآن الكريم الى اللاتينية ، تنفيذا لفكرة بطرس الجليل Peter the venerable رئيس دير كلونسي ، والذي زار اسبانيا عام ١١٤١ في اعمال كنسية فاتيحت له فرصة مراقبة بدايات الصراع بين المسيحية والاسلام . وكان ذلك اثناء حكم الموحدين في شمالي افريقيا . وقد استنتج من ملاحظاته

ان القوة المسلحة لا تجدي نفعا في محاربة الاسلام ، وانما ينبغي اللجوء الى المنطق العلمي وذلك بفهم الخصم اولا والاصغاء الى حججه وجدله . وبما ان القرآن هو المرجع الاول لدى المسلمين فقد وجب على الاوروبيين فهمه . وتحقيقا لهذا الهدف قام بطرس الجليل بتكليف راهب انكليزي يدعى روبرت الكيتوني Robert of ketton كان يدرس وقتئذ الفلك العربي والرياضيات في اسبانيا ، ان يترجم القرآن الى اللاتينية . واجزل له العطاء . وقد لقيت ترجمته رواجا واسعا . ثم تبعتها ترجمة افضل منها قام بها البحاثة ماراتشي Maracci عام ١٦٩٨ . وقد طبعت ترجمة الراهب روبرت لاول مرة عام ١٥٤٣ . وهذا يذكرنا بحقيقة انه نظرا لكون اختراع الطباعة قد شق طريقه ببطء الى البلاد الاسلامية فقد تم طبع القرآن في اوروبا المسيحية قبل قرون من طبعه في البلاد الاسلامية . وقد قام بالطبعة الاولى اليساندرو باكانيني Alessandro Pagannini في البندقية بين عامي ١٤٨٥-١٤٩٩ .

وخلال القرن الثاني عشر ظهرت اولى المعاجم العربية في اوروبا وهو المعجم اللاتيني العربي . Glossarium Latino - arabicum واضعه مجهول . ولعله صدر بمساعدة الكنيسة ضمن اعمالها التبشيرية .

واول الاعمال الجدلية في اللاهوت ضد الدين الاسلامي ، قام به كاهن اطلق عليه اسما سمجا هو Pugio fidei Adversus mauros et gudeaeos اي : خنجر الايمان ضد المسلمين واليهود . ثم نشره الراهب الاسباني الدومينيكاني رامون مارتن Ramon Martin وفي هذا الكتاب يتجلى تمكن الكاتب من اللغة العربية ، حتى انه حاول تقليد اسلوب احدى السور القرآنية .

الا ان اهم دارسي العربية من رجال الدين المسيحي في العصور الوسطى هو رامون لل Ramon lull المولود في بالما مايورقة عام ١٢٣٥ اي بعد ست سنوات من استعادة الجزيرة

من المسلمين . فلقد درس لل العربية تسع سنوات على يد اسير مسلم ، ثم نجح في اقناع الملك الاراغوني جيمس الاول ، باقامة معهد لتدريس اللغة العربية الى جانب الديانة المسيحية في مدينة ميرمار . وكان لل يؤمن بالحوار الهادىء مع المسلمين مع اعتقاد مسبق بتفوق الدين المسيحي . ونظرا لعدم تهيبه من طرح معتقداته بشكل عملي فقد ابحر الى تونس عام ١٢٩١ لاجراء مناقشة علنية مع علماء المدينة حول اوجه الخلاف بين المسيحية والاسلام. وقد ادت المناقشة الى طرده واعادته الى اوروبا . الا انه اعاد الكرة عام ١٣١٦ مما اثار عليه الدهماء فقتلوه يحركهم رفضه لدينهم ومعتقداتهم .

ومن الدارسين الهامين للعربية في العصور الوسطى بدرو دي الكالا Pedro de Alcala الذي كلفه مطران غرناطة عام ١٤٩٩ ان يضع قاموسا اسبانيا عربيا يسترشد به المبشرون في غرناطة . واتم بدرو قاموسه عام ١٥٠٥ وكان يبحث في العامية وليس الفصحى . واضاف اليه نشر قواعد لتلك العامية . ومع تراخي الزمن تضاءل الاهتمام بالعربية بعد ان تلاشى وجود العرب المسلمين في اسبانيا .

اما في ايطاليا ، فقد قادت الرغبة في فهم علوم المسلمين الى تأسيس مطبعة عربية في روما على يد الكردينال فردينانـد دي ميديتشي Ferdinan de Medici وقد نشرت تلك المطبعة مؤلفات ابن سينا واعمالا اخرى في علوم اللغة .

تجدد الاهتمام بالدراسات العربية والاسلامية في اوروبا في مطلع القرن السابع عشر ، ولكن الدوافع لهذه الدراسات بدأت تتغير . فهناك من جهة الدوافع المتصلة بتوسيع العلاقات الدبلوماسية والتجارية لممالك غرب اوروبا الجديدة . وهناك من جهة ثانية الاهتمام بالدراسات الانسانية والاطلاع على الاداب الاجنبية والتاريخ العالمي .

هذا الاهتمام بدأ يأخذ شكله المتبلور في القرن السادس

عشر على يد غليوم بوستل Guillaume Postel (١٥١٠ ــ ١٥٨١). فقد ارسله فرنسوا الاول ملك فرنسا الى القسطنطينية لجمع المخطوطات الشرقية ثم نشر بوستل عام ١٥٣٩ كتابه «القواعد العربية » Gramatica Arabica وهو اول كتاب في قواعد اللغة العربية الفصحى ينشر في الغرب . وقد ورد في مقدمة الكتاب شرح للاسباب التي من اجلها على الاوروبي ان يتعلم العربية . ويجدر بالذكر ان اثنين من هذه الاسباب يعودان الى العصور الوسطى والاخيرين حديثان وهي :

١ ــ كتب الطب العربية هي افضل المتوفر من الكتب .

٢ ــ صلاحية اللغة العربية لمجادلة اعداء الدين المسيحي .

٣ ــ اللغة العربية مفتاح ادب غني .

٤ ــ تتيح اللغة العربية لمن يتكلمها ان يتصل باكبر عدد من الشعوب من المغاربة حتى الاتراك .

ولقد شعرت هولندا بقيمة معرفة العربية ، وذلك بعد ازدياد مصالحها التجارية وهذا ما جعلها السباقة الى ميدان الدراسات الشرقية في اوروبا لقرنين من الزمن . ففي عام ١٦١٣ عين توماس اربينوس Thomas Erpenus استاذا اول للغة العربية في ليدن. ومنذ ذلك الحين الى عصرنا الحاضر بقيت ليدن واحدة من اهم مراكز الدراسات الشرقية في اوروبا

وفي انكلترا احدث اول كرسي للغة العربية عام ١٦٣٢ في كامبردج من قبل السير توماس ادمز الذي كان تاجر جوخ ميسورا وحذت اوكسفورد حذو كامبردج فاحدثت قسم اللغة العربية عام ١٦٣٦ وتراسه البحاثة العظيم ادوارد بوكوك Edward Pocok والذي يعتبر كتابه «نماذج من التاريخ العربي Specimen Historiae Arabum من اهم اعماله . وهو ترجمة لكتاب ابي الفرج بن هارون العبري النصراني اليعقوبي. وترجع اهمية هذا الكتاب الى الشروح التي اضافها ادوارد الى الاصل، واستطاع بذلك ان ينقل الى الغرب المعلومات الجديدة حول تاريخ العرب الجاهلي

والاسلامي .

ومن الدوافع الاخرى للدراسات العربية في اوروبا ، نهضة دراسات التوراة بعد الاصلاح الدينيالبروتستانتي حيث ادرك عدد من الباحثين مدى اهمية العربية في فهم عبرانيــــة كتاب التوراة (العهد القديم) ويعتبر البرت شولتنز Albert Schultens الرائد الاول في القول بان اللغة العربية هي مفتاح دراسة الكتب المقدسة. وقد عين استاذا للغات الشرقية في ليدن عام ١٧٢٩ .

وفي القرن الثامن عشر تلاحظ ظاهرة جديدة تتجلى فــــي الاقبال على دراسة اللغة العربية والحضارة الاسلامية لذاتهمــــا بعيدا عن اي هدف آخر . وقد اخذت هذه الظاهرة شكلها عــلى يد يوهان ياكوب رايسكه الالمانـــي Johan Jakob Reiske (١٧١٦-١٧٧٤) الذي ولد في زوريخ بالقرب من هال، وبدأ اهتمامه بالدراسات الشرقية في سن مبكرة . ثم تعشق الادب العربي وملك عليه لبه طوال حياته . وله عدة اعمال باللاتينيـــــة فــــي مجـال الدراسات العربية . كما كتب مقدمة في التاريخ الاسلامي، وترجم «مختصر تاريخ البشر» لابي الفداء ، ومجموعة للامثال العربية . والنظير الإنكليزي لرايسكه الالماني كان السير وليام جونس(١٧٤٦ ـ ١٧٩٤) Sir William Jones الذي درس العربية والفارسية في جامعة اوكسفورد . وانتخب زميلا في كلية الجامعة عام١٧٦٦ ثم زميلا في الجمعية الملكية ، ثم عضوا في نادي الدكتور صاموئيل جونسون Samuel Johnson وفي عام ١٧٨٣ نشر ترجمـــة المعلقات السبع اقدم الاعمال الادبية لعرب الجاهلية . وفي العام نفســه عين قاضيا في محكمة كالكوتا وهناك اسس جمعية البنغال الاسيوية للبحث في تاريخ اسيا واثارها وفنونها وعلومها وادابها. وهذه الجمعية تعتبر الاولى من نوعها في هدفها لمتابعة الدراسات الشرقية .

في القرن التاسع عشر تربع المستشرق الفرنسي الكبيـــر سلفستر دي ساسي Silvestre de sacy (١٧٥٨-١٨٣٨) على

عرش الدراسات العربية في اوروبا وعين رئيسا للمدرسة الجديدة للغات الشرقية الحية التي اسسها المجمع القومي الفرنسي في باريس عام ١٧٩٥ لتخريج المختصين العاملين في المجالات الدبلوماسية والتجارية الفرنسية في الشرق .

وقد كانت مهمته ذات شقين اولهما انصرافه الى دراسة العربية الفصحى والثاني عنايته بدراسة اللهجات العامية الدارجة. الا انه انصرف شأن بقية الباحثين الغربيين الى دراسة الفصحى واهمل دراسة العامية .

وفي عام ١٨٢٢ نشر دي ساسي ترجمته الرائعة لمقامات الحريري، التي هي واحدة من كنوز الادب العربي ، وقد دفعت دقة هذه الترجمة بالكاتب السوري ناصيف اليازجي (١٨٠٠-١٨٧١) الى التعليق عليها ودراستها خلال سلسلة من المقالات النقدية نشرها فيما بعد البحاثة الالماني مهرين A.M.F. Mehren .

وكانت دراسة اليازجي هذه اول عمل نقدي يقوم بها باحث عربي حول عمل احد المستشرقين .

وقد أم باريس عدد كبير من الباحثين ليدرسوا على يد دي ساسي . وقد اصبح بعضهم من مشاهير المستشرقين في بلادهم بعد ذلك . كما طلبت نصائحه عدة حكومات في تدريس اللغات الشرقية في بلادها . وكانت المانيا صاحبة قصب السبق في ارسال عدد من الدارسين ، تتلمذوا على يد دي ساسي، فغدت بهم المانيا الرائدة في ميدان الدراسات الشرقية ، ومن هؤلاء: هاينرخ ليبرخت فليشر Heinrich Lebrecht Fleicher (١٨٠١-١٨٨٨) الذي اسس الجمعية الشرقية الالمانية عام ١٨٤٥ على غرار الجمعية الملكية الاسيوية في انكلترا ، والجمعية الاسيوية في باريس .

وفي اواخر القرن التاسع عشر كانت معظم الدول الاوروبية تعد لتدريس العربية والبحوث الاسلامية في معاهدها العالية.

وشهد القرن العشرون توسعا في تدريس العربية حتى اذا

كان منتصف القرن كانت العربية موضع دراسة في الجامعات الغربية التالية : امستردام، برشلونة، بلغراد، باركلي، برن، برلين (في كل من هامبولت والجامعة الحرة) بون، بوردو، كامبردج ، كولون، كولومبيا، كوبنهاغن، بروكسل، دبلن، دورهام، ادينبره، ايرلنغن، فلورنسا، جنيف، غلاسكو، غرناطة، غراز، غروتينغن، هال، هامبورغ، هارفارد، هايدلبرغ ، هلسنكي ، كييل ، ليدن ليبزيغ ، ليدز ، لينغراد ، لوفن ، لييج ، لندن ، ليون، ماكيل ، مدريد ، ماينز ، مانشستر ، ميلانو ، مونتريال ، موسكو، منستر ، نابولي ، نيونبرغ ، نيميغن ، اوسلو ، اوكسفورد، باريس، بافيا ، بوتشفستروم ، براغ ، برنستون ، روما ، سانت اندروز ، سالامنكا، سراغوسا (سرقسطة) ستيلنبوش، ستراسبورغ سيدني ، تورنتو ، توبنجن ، ابسالا ، بلنسية ، فيينا، وورزبورغ.

وانه لمن العسير اطلاق حكم عام حول مدى نجاح تلك الجامعات في تدريس العربية وحول الانجازات التي حققتها تلك المجموعة الكبيرة . ولعل دور هذه الجامعات كان في مجال نقل الاداب العربية، اكثر منه في الاهتمام بهذه اللغة كأداة للتفاهم وتعلمها على هذا الاساس .

ان هذا الاهتمام الواسع بالدراسات العربية هو بلا شك اعتراف بان اللغة العربية هي اليوم من اكثر اللغات اتساعا كما انه اعتراف باهمية الحضارة الاسلامية ، وبعبارة اخرى يمكن القول بان التوسع في الدراسات العربية ليس مبعثه ادبيا بحتا، وانما تكمن خلفه دوافع سياسية كذلك . فضعف الدولة العثمانية (الرجل المريض) كان قد اثار جشع الدول الاوروبية الكبرى لاقتسام تلك الامبراطورية المتداعية ، وهذا يحتاج الى مجموعات من الخبراء في اللغات الشرقية يقومون بدورهم في انجاز الاعمال السياسية والتجارية والعسكرية اذ ان الشعار « المعرفة قوة» المرفوع على مبنى كلية لندن للدراسات الشرقية والافريقية ، ليوضح ذلك بكل صراحة .

يميز ناقد عربي (١) معاصر بين دافعين للاستشراق في اوروبا :

« فقد كان الاستشراق في اول العهد به مدفوعا بتحدي الاسلام ، اما فيما بعد فقد اصبح الدافع اليه اخضاع الشعوب الاسلامية والاسلام بمن فيهم العرب» ويمضي ذلك الناقد في قوله: « وفي الحقيقة لم يتطور الاستشراق الا بتأثير الاستعمار ، ولاجل تحقيق أغراضه السياسية والاقتصادية . فقد رأت الدول الاستعمارية ان الدراسات الشرقية ، التي كانت قائمة من قبل لاهداف دينية ، يمكن الاستفادة منها في معرفة عقلية الشعوب الشرقية للسيطرة عليها واستثمارها » .

يشير هذا النقد الى ان النقاد العرب يضعون المستشرقين في مصاف واحد ، ويصفونهم بان لهم اهدافا موحدة واحكاما تفسيرية متفقة . وهذا طبعا بعيد عن حقيقة الامر . فالدافع مختلف من مستشرق لاخر . ولنأخذ مثلا قضية هامة عند المسلمين كالجهاد ، الحرب المقدسة ، ونرى اراء بعض الباحثين الغربيين فيها . هناك يوليوس اوبرمان Julius Obermman الذي يرى في مقاله «الاسلام في أول عصره» (٢) ان للجهاد اهمية كبرى في فهم رسالة الاسلام ، ويكرس لذلك شرحا وافيا. بينما نجد أن البروفسور و.مونتغمري وات W . Montegomery Watt يغفل ذكر الجهاد في رسالته المطولة ذات المجلدين حول حياة النبي (٣) حتى انه لا يتعرض لذكر كلمة الجهاد في فهارس المجلدين .

ومن جهة ثانية فان تقييم المستشرقين للشخصيات العلمية

---

(١) كامل عياد ، في مجلة اللغة العربية بدمشق، المجلد ٤٠ الجزء ٣ صفحة٥٨٢.

(٢) في كتاب «فكرة التاريخ في الشرق الادنى القديم» اعداد درس دنتان R.C. Dentan لندن ، ونيوهايفن ١٩٥٥ .

(٣) كتاب «محمد في مكة» اكسفورد ١٩٥٣ « محمد في المدينة» اكسفورد ١٩٥٦.

العربية الرائدة مختلف من مستشرق لاخر اختلافا بينا . ففي حين يرى سنغر Singer ان الخوارزمي (٧٨٠ـ٨٥٠) « تقل عنده الاصالة العلمية كرياضي» (٤) يرى زميله بوير Boyer ان الخوارزمي «ابو الجبر» (٥).

ويمكن ان نقارن هنا بين وصف سارتون Sarton لابي الفداء (١٢٧٣ـ١٣٣١) «بانه اعظم جغرافيي عصره» (٦) ، وبين وصف كرايمرز kramers لاعمال ابي الفداء بانها «تجميع ضعيف لمصادر سابقة» (٧) .

ومن الجدير ذكره في هذا المجال ان بعض النقاد العرب ، وبخاصة المسيحيين منهم ، قد ركزوا على الانجازات الايجابية للدراسات الشرقية واعترفوا بفضل الاستشراق حتى على العرب انفسهم ، ويذكر حنا الفاخوري مؤرخ الادب العربي ان العوامل السبعة الهامة في يقظة العرب الفكرية خلال القرن التاسع عشر هي كالتالي : المدارس ، الطباعة ، الصحافة ، الجمعيات العلمية والادبية، المكتبات ، المسرح ثم الدراسات الشرقية (٨)، ويلخص حنا الفاخوري الموضوع مستشهدا بكلمات لعمر الدسوقي :

« تفرغ المستشرقون للبحث ، ومنحتهم اممهم المال والوقت،

---

(٤) سنغر «تاريخ موجز في الافكار العلمية حتى عام ١٩٠٠» اكسفورد ١٩٦٢ صفحة ١٤٩ .

(٥) تاريخ الرياضيات : س.ب. بوير a History of Mathematics, نيويورك ـ لندن ـ سيدني ١٩٦٨ صفحة ٢٥٤ .

(٦) دونه السير هـ . أ . ر جب . في مقالة «ابو الفداء» في الموسوعة الاسلامية (الطبعة الثانية) المجلد الاول .

(٧) ج . هـ . كرايمرز « الجغرافية والتجارة » في « تراث الاسلام » « The legacy of islam » اعداد توماس ارنولد أ.غيوم ، اوكسفورد ١٩٣١ صفحة ٩١ .

(٨) حنا الفاخوري «تاريخ الادب العربي» الطبعة الثانية ١٩٦٠ صفحة ٩٠١ .

وتحت ايديهم المكاتب العامرة بالابحاث وبالمخطوطات النادرة ، وكل منهم يعرف عدة لغات غربية وشرقية، فكان من الطبيعي ان تتسم اثارهم بسمات التحقيق ، والمثابرة ، والاطلاع ، والموازنة، ومراجعة الاصول والمخطوطات ... ولقد مهدوا السبيل امام الباحثين بنشرهم المخطوطات الثمينة في طبعات انيقة مصححة، مزودة بتعليقات نفيسة ، وبفهارس تيسر الاطلاع . واشتهروا بتحقيقاتهم اللغوية ، وبابحاثهم في اصول اللغات وفقه اللغة، والساميات وباكتشافاتهم الاثرية في بلاد العرب .... واهم اثر للمستشرقين يتضح في الكتب العربية التي الفت على نمط كتبهم . والدراسات الادبية ، وتاريخ الادب بصورته التي نعرفها اليوم هي اثر من اثار المستشرقين وحسنة من حسناتهم (٩) .

لقد ظهر في السنوات القليلة الماضية ميل نحو اعمال استشراقية مشتركة بين الشرق والغرب لانجاز اعمال ذات طابع علمي ، وكمثال على ذلك الاعمال التي ظهرت في انكلترا كـ «تاريخ الاسلام» لجامعة كامبردج و «المجلة الجديدة للادب العربي » والمرء يحدوه الامل ان يستمر هذا التعاون ويدوم .

ان الصفحات السابقة توجز مخططا يوضح تاريخ اهتمام الباحثين الغربيين بالعرب والحضارة الاسلامية الا انه ليس كافيا لبيان مدى عمق تأثير المسلمين في اوروبا . ويمكن لاظهار هذا التأثير ، ان نعود الى اللهجات العامية في اوروبا لنجد فيها كثيرا من الامثلة والتعابير التي تشير الى العرب ، والى امم اخرى وبخاصة الاتراك . ومن هذه التعابير ما يحمل بعض الازدراء بالعرب وتعييرهم ، كالعبارة الانكليزية (١٠) « Street Arab » (١١)«Little Turk»او العبارة الالمانية (١٢)«Du kaffee Turke»

---

(٩) المرجع السابق ص ٩٢٠ - ٩٢١ .

(١٠) تستخدم لتانيب الاطفال .

(١١) تستخدم لتانيب الولد المشاكس .

(١٢) تستخدم لتانيب الولد المشاكس ومعناها « ايها التركي بائع القهوة» .

والعبـــارة الايطاليـــة (١٣) « Bestemmiare come un Turco »
والعبارة الفرنسية (١٤) « C'est le plus Arabe des tous les hommes »

وهناك تعابير اخرى تدل على شراسة المسلمين فـي الحرب، كالمثل الانكليزي : « Where the Turk'shorse once treads the grass never grows » اي حيث تخطو خيول الاتـراك لا ينبت العشب. والمثال الالماني:(١٥) « Es geht zu , als obder turk da ware »

وهذه العبارات تستخدم في اوروبا للتدليل علـى طبيعـة الاشياء المخيفة . وكمثال ايضا، هناك حاليا في الجيش البريطاني سيارة مصفحة تدعى « Saladin » نسبة الـى صـلاح الديـن الايوبي، وسيارة اخرى مصفحة تسمى « Sarracen » اي شرقي وهناك الاصطلاح العلمي Saracenia ويعني ذلك الـنوع مـن النبات الذي يملك القدرة على اصطياد الحشرات وهضمها. وقـد يهدف الى استخدام اللغة العربية كمرادف لشيء مبهم لا يمكـن فهمه . فمثلا يقال في الايطاليـــة : (١٦) « Questo é arabo perme » وفي الاسـبانية (١٧) « Estar una cosa en Arabigo» وهناك مثال في الاسبانية مشابه يقــول (١٨) « En casa del morono hables algarabia ».

---

(١٣) تستخدم للشتم ومعناها ((تتسم كالاتراك)) .

(١٤) الترجمة الحرفية : انه اكثر عروبة من العربي ومعناها انه احقر رجل حي.

(١٥) الترجمة الحرفية : هناك صخب وكأن الاتراك هناك ، ومعناها : كل شيء في حال من الفوضى .

(١٦) الترجمة الحرفية : انه لغة عربية بالنسبة لي ، اي لا يمكن فهمـــه على الاطلاق .

(١٧) الترجمة الحرفية : شيء باللغة العربية ، اي شيء لا يمكن فهمه .

(١٨) الترجمة الحرفية : لا تتكلم العربية في منزل مغربي، اي لا تظهـــــر الجهل امام خبير .

ومع ذلك كله ، فان الشعوب الاوروبية تتكلم عـن الحصان العربي بمعنى الحصان الكامل ، وعن الطائر العربي (١٩) الذي يقصد به المخلوق الذي يملك سر الابدية ، وعن السحر العربي مشيرة بذلك الى جوهر السحر، وعن التوابل العربية بمعنى انها افضل انواع التوابل . وحينما تريد التعبير عن مكان اكثر جاذبية تقول «انه أصبح مكة » .

وهكذا يرى مما سبق ان مثل هذه العبارات الاوروبية تشير احيانا الى استخفاف ، كما تشير احيانا الى اعجاب ، او تدل على قضايا مبهمة احيانا اخرى . وهذا المزيج الغريب يظهر بدقة غير متعمدة في احد المراجع الموثوقة في اللغة الانكليزية وهو قاموس استخدام اللغة الانكليزية المعاصرة(٢٠) « Dictionary of modern English Usage » لمؤلفه هـ.و. فاولـر H.W. Fowler فهـو حين يتحدث عن الصفات المشتقة من كلمة عرب « Arab » يعطي المدلولات الخمسة التالية : شجاعة ، تعصب ، قدرية، فلسفة ، تقاليد .

تلك هي اذن بعض الافكار الصحيحة او الخاطئة التي تخطر على بال الاوروبي حين يذكر العرب . واملي هنا ان اصل الى معالجة بعض اسبابها في الصفحات التالية .

---

(١٩) العنقاء .

(٢٠) الطبعة الثانية ١٩٦٥ صفحة ٣٤.

الفصـــل الاول

تاريخ العرب القديم ورسالة محمـــد

درج المؤرخون على تقسيم عرب الجاهليـــة الى مجموعـــات ثلاث : اولاها : **العرب البائدة** كقبائل عاد وثمود التي ذكـــرت فـــي القرآن ، وقد انقرضت هذه القبائل .

وثانيتها : **قبيلة قحطان** التي تعود الى جنوب الجزيرة العربية وتدعى بالعرب العاربة ، والتي هاجرت فيمـــا بعـــد الى الشمال .

وثالثتها : يفترض ان يعود نسبها الى **عدنان** ، وتدعى بالعرب المستعربة ، وقد تواجدت في شمال الجزيرة العربية . ومنـــــذ القديم انصب اهتمام العرب على الانساب وهم يمضون في شجرة النسب الى اجيـــال ثلاثة يعـــود اقدمهـــا الى الف سنة قبـــــل الاســـــلام .

بدات الحضارة العربية تنمو في جبال اليمن وحضرموت في الزاوية الجنوبية الغربية لشبه الجزيرة العربية ، وكانت لها سمات مؤثرة وملامح مستحبة . كانت امطار تلك المنطقة كافية لوجـــود الزراعـــة ، كما امدت هذه المنطقـــة العالم القديم بالصمغ والبخور

اللازميـــن في الطقوس الدينية . ووقفت في موقعها الهام بيـــن مصر وسوريـــة وافريقيـــا والهند ممسكة بزمام التجارة شرقـــا وشمالا وجنوبا .

وخلال فترات متباينة ، ازدهرت عدد من الدول التي قامت في جنوب شبه الجزيرة العربية ، ازدهرت الحضارة فـــي الالف الاولى قبل الميلاد ، وكانت اشهر هـــذه الدول هـــي دولة سبــأ التي كانت عاصمتها مأرب . وقد ارتبط نمو حضارة هذه الدول وازدهارهـــا بتطـــور الزراعـــة وتجارة البخور او ركودهما ، واعتمد تطور الزراعـــة على تقدم اعمال الري كسد مأرب الـــذي يحتمل ان يكـــون قد شيـــد حوالي ٧٥٠ ق.م. اما طـــرق تجارة البخور فكانت تأخذ اتجاه : شمال غرب . وشمال شرق . على طول شواطىء الحجاز وغير شبه الجزيرة الى الخليج العربي . وقـــد اقام عرب الجنوب مستعمرات لهم عـــلى طول الطرق التجـــارية ، ومن هذه المستعمرات تعرف اثنتان هما مدينتا : ديدان (العـــلا) والحجر في الحجاز وقد تهدمتا . وتعطينا قصة ملكة سبأ فـــي التوراة (١) فكرة واضحة عن مدى تأثير جنوب شبه الجزيـــرة العربية في العصور القديمة .

لقد خلفت لنـــا حضارة عرب الجنوب شواهد حيـــة كثيرة تتمثل في المعابد الشامخة واعمال الري والمباني الاخرى والنقوش على الحجارة التي تعتمد على عدد من لهجات الجنوب ، التـــي استبدلت بعد ذلـــك بلغـــة الشمال ، واقدم هذه النقوش يعود الى عـــام ١٣٠٠ ق.م . واحدثهـــا يعـــود الـــى القرن السادس للميـــلاد .

بدأت حضارة الجنوب بالانهيار خلال القرون التي تلت الميلاد ، وربمـــا كانت دواعي ذلك الانهيار اقتصادية . وقد جعل هذا من

(١) راجع سفر الملوك الاول ، الاصحاح العاشر ـ التوراة .

الجنوب فريسة تناهبتها ايدي الغزاة الاجانب من احباش وفرس . وقد بقي الفرس يحتلون المنطقة حتى ظهور الاسلام .

وعلى خلاف الجنوب ،كان مجتمع عرب الشمال بدويا . وقد وقعت عشائر الرحل تحت سيطرة الجنوب من خلال المستعمرات التي انشأها الجنوبيون في وسط شبه الجزيرة وشمالها . ومن جهة ثانية ، كانت الحضارة الارامية القائمة في سورية وما بين النهرين تمد تأثيرها من الشمال عبر شبه جزيرة العرب ،وقد قوى هذا التأثير خلال القرون الاولى للعصر المسيحي نتيجة لتواجد اليهود والمسيحيين في شبه الجزيرة نفسها . ولهذا كان طابع الثقافة الارامية واضحا في اولى الممالك العربية الشمالية كالبتراء والرها وتدمر .

وفيما بين القرنين الخامس والسابع امتزجت عناصر الحضارتين الارامية والعربية ، ويبدو اثر ذلك في ممالك بني غسان وبني لخم . ولكن اية واحدة من هذه الممالك لم تقو على احداث الاثر الكامل في سائر انحاء شبه الجزيرة .

ويعتبر القرنان الخامس والسادس للميلاد عصر البطولة في الجزيرة العربية فقد تمكن الشعراء من اعطاء صورة مشرقة عن الفخر بالنسب والكرم والضيافة والولاء للقبيلة وتعشق الحرية والاخذ بالثأر . ثم جاء القرآن ليشجب الجانب القاتم من تلك الصورة .. كالالحاد ، وفوضى نظام الاسرة الذي حرم المرأة من كل حقوقها والجشع التجاري الظالم .

والى جانب هيمنة الحياة البدوية ، فقد كانت هناك مجتمعات حضرية في عمان وعلى شواطىء الخليج العربي . كما كانت هناك بعض الدويلات في نجد والحجاز . ومن اهم تلك الدويلات مكة، التي كانت ملتقى القوافل ، مما جعل سكانها يحترفون التجارة في نهاية الامر ، مقلدين بذلك الانباط وعرب الجنوب ،ومحققين لبلدهم مجتمعا ثريا .

وفي ضواحي مكة كان العرب يجتمعون سنويا في سوق عكاظ مما زاد في الاهمية التجارية لهذا البلد اضافة الى وجود الكعبة التي كانت قبلة الحجاج الوافدين من انحاء الجزيرة العربية ، تلك الكعبة المبنية فوق نبع مقدس ، والتي فيها « هبل » سيد الكعبة واله القمر .

كانت ديانة عرب الجاهلية بدائية على وجه العموم ، وقد كان هناك نفر من المسيحيين واليهود والمجوس الى جانب سواد الناس من المشركين الذين تتمثل اهم طقوس عبادتهم في تقديم الاضاحي في معابدهم . سواء اكانت الاضحية حيوانا أم انسانا.

وفي جنوب الجزيرة كان « ود » اله القمر ، الاله الاساسي. الى جانب الاله « شمس » وعشتار (فينوس) . أما في الحجاز فقد اشتهر ثلاث الهة : « اللات » ألهة الشمس ، والعزى»(فينوس) ومناة (القدر) . وكانت هذه الالهة الثلاث تعرف « ببنات الله» فقد كان الجاهليون يعتقدون بوجود اله عظيم فوق كل الآلهة الاخرى وهو الذي خلق العالم هو الله ، لكنهم لم يهتموا بعبادته. ويبدو ان اول مركز لعبادة الله في شبه جزيرة العرب كان مملكة « لحيان » في الجزء الغربي من الجزيرة .

وإذا تركنا الطقوس الدينية جانبا ، فان الدين لم يكن له اثر في الحياة العامة لدى الجاهليين .

هذه الحياة الدينية الى جانب ثروة اهل مكة ، كانت كلها موضع لامبالاة بل ازدراء من قبل شخصية هامة هي شخصية النبي محمد . وقد شكلت تلك الحياة الدينية خلفية اساسية لمهمة النبي محمد فيما بعد .

ولد النبي محمد في مكة حوالي ٥٧٠ م ، وهو ابن عبدالله، من الاسرة الهاشمية التي كانت تنتمي الى قبيلة قريش . وعندما قارب الاربعين اظهر ميلا للتأمل الديني متأثرا بفكر وطقوس الديانتين المسيحية واليهودية .

وفي عام ٦١٠ اوحي اليه بالنبوة . وكان هذا الوحي بداية

استمر بعدها طيلة حياته . ونتيجة لهذه الايحاءات المتتالية اعلن محمد وحدانية الله ، واقتراب يوم الحساب ، وضرورة الصلاة ، والمعاملة الحسنة بين الناس . هذه الايحاءات عرفت بالقرآن . وبعد وفاة النبي محمد جمع اصحابه القرآن الذي حفظوه ، ثم دونوه ليصبح الكتاب المقدس لدى المسلمين .

دعا النبي محمد الانسان ان يسلم لمشيئة الله وقد اعطى اشتقاق الكلمة اصطلاحا لرسالة محمد هو « الاسلام » والذين آمنوا بالرسالة سموا بالمسلمين .

لقد اعلن محمد انه آخر الانبياء الذين حملوا الرسالة نفسها. واستطاع ان يهدي في مكة عددا من الناس الى رسالته ، ولكن الغالبية في مكة رفضت دعوته ، ثم اضطهدته هو وصحبه . الا انه وفق ان يدخل في دينه بعض الرجال الاتين من يثرب شمالي مكة ، ونصحه هؤلاء بالمجيء الى مدينتهم فهاجر من مكة الى يثرب عام ٦٢٢ م ليجعل منها قاعدة للدين الجديد وقد رجا اهلها ان تكون هذه الهجرة مناسبة لحل خصوماتهم ومنازعاتهم. وقد اصبحت هذه الهجرة فيما بعد بداية للتقويم الاسلامي .

وفي يثرب التي اصبحت تسمى المدينة (مدينة النبي محمد) تشكلت جالية اسلامية مؤلفة من مهاجري مكة ومن الانصار من سكان المدينة ، واصبح النبي محمد رئيسها الروحي والدنيوي .

كان المرتكز الفكري والروحي للمسلمين هو مشيئة الله على ضوء ما اوحي به للرسول . وقد اقر النبي محمد بعض الطقوس والاعراف التي قبل بها ورضي عنها .

في عام ٦٢٤ م هاجم محمد وصحبه قافلة لقريش فنشبت بين الطرفين معركة « بدر » ، التي انتهت بهزيمة قريش . ولكن قريشا ربحت معركة « احد » في السنة التالية ٦٢٥ م . وحاولت

قريش الاستيلاء على المدينة عام ٦٢٦ م ولكنهـا تراجعت خاسرة .
وفي عام ٦٢٨ م تمكن النبي محمد من عقد صلـــح « الحديبية»
الذي فرض فيه ان يحج المسلمون الى مكــة . فيما بعد ، وعندما
نقضت بعض القبائل الموالية هذه الاتفاقيــة حاصر المسلمون مكة
ودخلوهــا بعــد استسلامهــا عام ٦٣٠ م . وكــان استسلامهــا
بمثابة النصر للمسلميــن . وما أن توفي النبي حتى تدفقت قبائل
اخرى على الدخول في الدين الجديد ودفع الزكاة التي هي فريضة
من فرائض الاسلام .

وهكذا وخلال عشرين عامــا بعد الوحي ، رأى محمد كيف
يندفع الناس لقبول افكاره ودعوته كأسمى شيء في بلاده . ولقد
كــان ذلــك انجازا رائعا .

تقوم العقيدة الاسلاميــة على الاركان التالية :

ا ــ الايمان بالله واحد
ب ــ الايمان بملائكتــه
جـ ــ الايمان بكتب الله (التوراة ــ الزبور ــ الانجيل) وآخرهــا القرآن .
د ــ الايمان برسل الله (وآخرهم محمد) .
هـ ــ الايمان بيوم القيامة والحساب
و ــ الايمان بالقضاء والقدر ، الذي يقرر افعال الناس ومصائرهم .

ولقد اوجب الاسلام على المسلم الفرائض الخمس التالية .

١ ــ شهادة أن « لا اله الا الله وان محمدا رسول الله »
٢ ــ واقامة الصلاة (خمس مرات كل يوم)
٣ ــ وايتاء الزكــاة .
٤ ــ وصوم رمضان (من الفجر حتى المغيب) .
٥ ــ والحج الى مكــة مرة في الحياة على الاقل (لمن استطاع ذلك) .

لقد كــان ظهور الاسلام في الجزيرة العربيــة عملا ثوريــا .
ولكنه لــم يشكل انفصالاً كاملا عن ماضي هذه الجزيرة ، لقد غير

في ثقافة معاصريه بشكل فوري ولكنه لم يطمس تمامـــا تلـك الثقافــة .

وحينما ثبتت قدم الدعوة الجديدة ، في المدينة ، فرض النبي محمد الحج الى مكـة كواحـدة من فرائض الدين .. بمـا فيه من طقوس الرجم والاضحيـة والطواف .. الخ ـ واعلن ان شعائر الحج فرض على كل مسلم (بعـد أن تـم تطهير الكعبـــة مـن الاصنــام).

و« الجهاد في سبيل الله » بدوره احد الاركان الهامة فـي رسالة النبـي محمد ، وبصفته رئيسا للمجتمع الاسلامي فقد اباح الدفاع عنه وعـن معتقداته بقوة السلاح . ودعـا الى محاربـة الذيـن يقفون في وجه انتشار الديـن الاسلامـــي،أو يرفضون تعاليمه . وهكذا اصبحت الحملات العسكرية جزءاً من سياسـة النبيمحمد في نضاله في سبيلتحقيق انتصار الدعوة وانتشارها. وقـد نظم في حياته زهاء ٧٢ حملة قاد اكثرها بنفسه . لقد كـان الغـزو في الجاهليـة يتم لرفع شأن القبيلة ، امـا في الاسـلام فقد اصبح اداة لاظهار الدين ونشره وتعميمه .

بعد وفاة النبي محمد خلفه ابو بكر (والد زوجته عائشة) ليكـون رئيسا للمسلمين اي خليفة . وتتضمن الخلافـة جانب الحكم والادارة ، ولا تتضمـن الجانب النبوي . وقد استطاعخلال خلافته القصيرة (٦٣٢ ـ ٦٣٤ م ـ) ان يهزم الدعيين « طليحـة ومسيلمة الكذاب » وان يعيـد اخضاع القبائل المرتدة . وخـلال خلافـة عمر بن الخطاب الذي تلا ابا بكـر توسعت جيوش المسلمين في ايران وسوريـة ومصر . وما كـان ذلـك الا بدايـة لفتوحات عسكريـة كبرى تتالت . وبعد انقضاء مائة سنة على وفاة النبـي محمد كانت الدولة الاسلاميـة قد امتدت مـن جنوبي فرنسا غربا الى حدود الصين شرقا .

واذا كانت هذه الرقعـة الواسعـة قد فتحت بقوة السلاح،

الا ان الاقطار الجديدة التي اكتسبهـا المسلمون في القرون التالية كانت نتيجة للبعثات واعمال التجار المسلمين الذين انتشروا جنوبا في افريقيا وشرقا في اندونيسيا ، حتى ان الكثيرين من سكان الصين دخلوا في الاسلام .

الفصل الثاني

الحضارة الاسلامية ـ النهضة ومصادرها

فجر الاسلام في العرب طاقات حماس كامنة ، وجدت متنفسها في اقامة احدى الامبراطوريات العظمى في العالم . وقد تم ذلك اثناء خلافة الراشدين الاربعة : ابي بكر ، عمر ، عثمان، علي ، وخلافة معاوية مؤسس الحكم الاموي .

وحينما اسقط العباسيون الدولة الاموية عام ٧٥٠ م لم تعد هناك اية فتوحات عسكرية تذكر . ولكن الوجه الكامل لشمال افريقيا وغرب آسيا كان قد تغير تماما . لقد بدأت القارتان تشعران بعملية التعريب وعملية الدخول في الاسلام ، هاتان العمليتان اللتان حدثتا في تلك الرقعة الواسعة من الارض فجعلتاها امتدادا فعليا للجزيرة العربية ـ وان لم تكن كذلك اسميا .

استمرت اللغة العربية تنتشر وتتسع حضارتها رغم المتاعب الهائلة التي تعرضت لها .. من خصومات مريرة بين عرب الشمال والجنوب ، تلك الخلافات التي طالما ازعجت الخلافة

الاسلامية .. الـى تسلط الولاة والحكام على الخلفاء والى ثورات الخوارج من المسلميـن .

لقد شهد العصر العباسي (٧٥٠ ـ ١٢٥٨) كيف غدت اللغة العربيـة لغـة الحياة اليومية في البلاد المفتوحة ، وكيف اصبحت وسيلة التعبير في مجالات العلم والادب ، حتى مـن قبل الذين بقـوا على دينهم من المسيحيين واليهود .

واذا كان العصر العباسي لم يشهـد فتوحات عسكرية تذكر، فان الانجازات الحضاريـة التي تمت خلاله كانت اعمق واشمل . فقد استوعبت الحضارة الاسلاميـة علوم الاقدمين فـي الشرق والغرب . واصبحت كالنهـر الكبيـر ترفده شتى الجداول .

اما في المجال السياسي فان عصر السيطرة العربية لم يدم سوى قرنين بعد وفاة النبي محمد . وكانت خلافة المعتصم (٨٣٣ ـ ٨٤٢) ايذانـا ببدء النفـوذ التركي ، وجاء بعده الفارسي متمثلا في بني بويه ، واقصي العرب عـن الميدان الحقيقي للسلطـة السياسية ، في حيـن بقي لهم نفوذ متفاوت في بعض المناطق .

ولكن التراجع السياسي رافقه ازدهار عظيم للحضارة العربية الاسلاميـة التي تعـود بجذورهـا الى تعاليـم الديـن الاسلامي والى اللغـة العربية والتراث السياسي المنحدر مـن الجاهليـة والذي طوره الإسلام الى حـد مـا وطبقه في عصر الامبراطوريـة العربية ، حيث لعب المسلمـون دور القبيلـة المسيطرة الحاميـة للاقليات غير المسلمة .

فتح العرب خلال الموجة الاولى من فتوحاتهم سورية ومصر اللتيـن كانتا خاضعتيـن للحكم البيزنطي كمـا فتحوا الجـزء الغربي من الامبراطورية الفارسيـة المتأثر بالنفـوذ الهيليني الى حد مـا .

وقد انتشرت الحضارة الهيلينية فـي غرب اسيا وشمـال افريقيا. وان كانت هذه الحضارة قد وفدت من اليونان، فان جذورها

ضاربة في شواطىء المتوسط الشرقيـة والجنوبية ، وفي بلاد مـا بيـن النهريـن .

وهكذا اصبح المسلمون في المناطق الجديـدة لامبراطوريتهم على صلة تامة بحضارة واسعـة تضم بيـن ظهرانيهـا ادبـا واسعا مكتوبا (باليونانيـة والسريانية والبهلوية) . الى جانب استيعـاب للعلوم لـم يكـن لعرب الجاهلية ان يعرفوه .

حينمـا بدأت الفتوحات الاسلامية ، كان للحضارة الهيلينية مراكز للدراسـة تشبـه مـا نسميـه اليـوم بالجامعة الى حـد ما . فقـد كان عدد من الباحثين يلتقون فـي مكـان مـا لتبادل الخبرات والتعاون والتدارس . كما هو الحال في الرهاء ونصيبين وسلوقيـة (النسـاطرة) وانطاكيـة وآمد (اليعاقبة) وكانت هذه المراكز ضمـن الاراضي السوريـة . ثم مركز جنديسابور (اسس عام ٥٣٠ م) (النسـاطرة) ومدارس الاسكندرية اليونانية وقيسارية وبيـروت .

كانت هذه المدارس تعني اولا بالدراسات الدينية ، وبعدهـا بالعلوم الدنيوية ، من لغة وبلاغة وطب وفلك وموسيقا ورياضيات. وقـد كـان مركز جنديسابور يركز على الطب النظري ، في حيـن يمارس الطب العملي في المشافي .

لقد صبت جداول كثيرة في نهـر الحضارة الاسلامية ، ولعل اشدهـا تأثيرا رافد الحضارة الهيلينية ، ثم الحضارة الفارسية التي اثرت في الفكر السياسي والعادات الاجتماعيـة ، والحضارة الهنديـة التي اسهمت في علـوم الطـب والفلك وبخاصة فـي الرياضيات حيث اخذ العرب الارقام الهندية . وقد اخذ العرب بعض التنظيمات الادارية والسياسية التي كانت قائمة في البلدان المفتوحـة مثل « ديوان الحسبة » الذي هـو امتـداد للمؤسسة البيزنطيـة ، وفكرة « المصلحة العامة » . التي هـي امتـداد لـ Utilitas publica في التشريع الروماني. كما اخذوا بعض المناصب السياسيـة مثل « الوزير » من الفرس .

خلال القرن الاول الهجري تركز جهد العرب على تثبيت دعائم لغتهم ودينهم في الامبراطورية المفتوحة ، ولم يلتفتوا كثيرا لتراث الحضارات السابقة . ولكنهم بعد الاستقرار السياسي في العصر العباسي فتحوا ابوابهم على اتساعها لاستيعاب المعارف والثقافات القديمة من يونانية وغيرها مما قاد الى نهضة كبرى في مجال الترجمة ما بين (٧٥٠ ــ ٩٠٠) م.

لقد تمت في العصر الاموي ترجمات محدودة في ميدان الطب والصيدلة لما لذلك من اهمية عملية ، ولكن العصر العباسي وسع الترجمة في مجالات العلوم والفلسفة اليونانية .

كان للحركات السياسية كالخوارج والشيعة خلفيات عقائدية وفكرية تستند الى فهم للقرآن ، وقد طور ذلك البحوث الدينية واوجد الفرق الدينية المختلفة ، التي من اوائلها « المعتزلة »(١) الذين استفادوا من الفكر اليوناني وطرائقه في ابحاثهم الدينية. ولعل من اهم دوافع الترجمة هو حث الاسلام على المعرفة ودعوته لتلقي العلم وجعل ذلك امنية عظمى في الحياة .

لقد شجع المسلمون الترجمة ومولوها ولكن الذين قاموا بالترجمة بشكل اساسي كانوا من المسيحيين السوريين الذين كانوا يترجمون الى السريانية ثم الى العربية وكان دعمهم المالي يأتيهم من انصار العلم المسلمين في بداية العصر العباسي .

وقد تعرف المسلمون من خلال الترجمة على جوهر الفلسفة القديمة والطب والعلوم الطبيعية اليونانية وقد ترجموا لافلاطون (٤٢٧ ــ ٣٤٧ ق.م.) وارسطو (٣٨٤ ــ ٣٢٢ ق. م) واقليدس (القرن الثالث ق.م) وابقراط (٤٦٠ ــ ٣٥٧ ق.م.) وجالينوس (٢١٠ ــ ٢٠٠ ق.م) وديوسقوريدس (٥٠ م) .

وهكذا كان مجال الترجمة واسعا ، حتى ان الكثير من الاعمال اليونانية وصلت الى اوروبا عن طريق الترجمة العربية فقط ، لان

---

(١) راجع الفصل الرابع من هذا الكتاب .

النسخ اليونانية الاصلية فقدت . ومن الاعمال التي بقيت بالعربية وفقدت باليونانية بعض اعمال ليتوفراست (٣٧٢ — ٢٨٧ ق . م) وهيرون الاسكندري (حوالي ٦٠ م .) وجالينوس ، وبورفيري (٢٣٢ — ٣٠١ م) .

ولم يهتم المترجمون بالمسرح والشعر اليونانيين ولا بالكتابات التاريخية لان العرب لم يعيروا هذه الاعمال اهتمامهم .

ان تطوير المسلمين للتراث اليوناني هو واحد من اهم حلقات التاريخ الثقافي في العالم . وليس معنى ذلك ان الحضارة الاسلامية كانت مجرد تقليد او انعكاس للحضارة اليونانية القديمة .

يجب ان لا تغيب عن ذهننا — اذ نناقش ونقيم الحضارة الاسلامية — تلك الافكار المبدعة التي جاءت من الجزيرة العربية مع الاسلام وقبله ، واستطاع المسلمون ان يمزجوا بها التراث اليوناني فيصنعوا من ذلك لونا جديدا سباقا فريدا .

الفصل الثالث

المجتمـــع العربـــي

التشريع الاسلامي :

تعتمد المبادىء الاوليـة لفهم الدين الاسلامي ومجتمعه على معرفة الشريعـة : (أي : الطريق الواضح الذي يجب سلوكه) ، أي قانون المسلميـن الذي هو ديني دنيوي معا .

بدأ القانـون كتطبيق عملي للديـن وللعلاقات الاجتماعيـة التي سنهـا النبي محمـد ، وهي لا تفرق بين موضوعي الديـن والدنيا ، ودراسـة القانـون عند المسلميـن تعرف « بالفقه » (حرفيا : الفهم) . وتعتمد هذه الدراسـة اساسا على القـرآن، ثم الحديث (كلام النبي محمـد وافعالـه) . ويصف السيـر هاملتون جب (١) بنيان هذا القانون بانه « احد الابحاث الفذة للفكر

---

(١) السير هـ. ر. جب Sir H.A.R. Gibb : المحمدية « Mohammedanism » لندن ـ نيويورك ـ تورنتو ١٩٥٣ ص ٩٠

البشري » .

تقسم الشريعة الاسلامية الى ثلاثة اقسام رئيسية :

أ ـ العبادات ـ ب . المعاملات ـ ج ـ العقوبات .

وتبنى العبادات على خمس فرائض يطالب بها كل مسلم .

وتضم المعاملات العقود والبيع والتأجير والعقارات والودائع والضمان والامور المتنوعة ، وقانون الاحوال الشخصية (قانون الاسرة) وفروعه من زواج وطلاق وميراث .

وينص قانون العقوبات على نوعين : « الحدود » وهي العقوبات المنصوص عليها حرفيا . والجرائم التي يقام عليها الحد هي : الزنا ـ القذف (الاتهام بالزنا) ـ شرب الخمر ـ السرقة .

والنوع الثاني في قانون العقوبات هو الجنايات اي الضرر الجسدي وتخريب الممتلكات والقتل ، ففي هذه الجنايات يطالب المتضرر بحقه وينظر القانون في العقوبة . اما في حالة القتل فالسلطة تضمن لذوي القتيل حق الثأر (قتل القاتل) ، ويمكن لذوي القتيل الاكتفاء باخذ الدية او العفو عن القاتل .

وتقوم الشريعة الاسلامية على مصادر اربعة : القرآن ـ الحديث ـ الاجماع ـ القياس .

وفي القرآن مائتا آية تتعلق بالقضاء بمعناه الكامل ، وفي الحال هذه يقتضي الامر الاستعانة بالمصادر الثلاثة الاخرى لاستيعاب ما يجد من قضايا .

اما الحديث فهو ما ورد بشكل ثابت موثوق عن النبي محمد من كلام وافعال وصفات واقرار . والحديث المقبول هو الذي رواه ثقة ثبت عن مثله حتى يصل الى منتهاه اي الى النبي محمد . « روى فلان عن فلان ...... قال : »

والاجماع يعني اتفاق المسلمين على امر ، ومن الناحية العملية فانه يعني اجماع فقهاء المسلمين في عصر من العصور على رأي واحد .

والقياس يعني الاجتهاد في القضايا التي لم يرد لها حكم في النصوص الشرعية ويمكن مقارنتها باحكام مشابهة من حيث العلة او النتيجة ، فالنبيذ لم يرد ذكره في القرآن ولكنه ـ قياسا على الخمر ـ محرم لانه يسكر . وقد استخدم القياس من قبل الفقهاء والقضاة وسمي الحكم القانوني الناجم عنه « بالفتوى » والقاضي الذي يصدر الفتوى هو « المفتي » .

والاجماع مصدر قانوني اشد حسما من القياس لانه يحدد الطريقة الموحدة في تفسير القرآن والحديث . وحاول بعضهم اقحام « العرف » كمصدر خامس للشريعة ولكن هذه المحاولات لم يكتب لها التوفيق ، والمقصود بالعرف العادات العامة والتقاليد التي قد تتفق مع الشريعة او تختلف عنها . وكثيرا ما كانت السلطة السياسية تستخدم العرف بديلا عن المصادر الاخرى تمشيا مع رغباتها .

وقد نشأ عن تباين الاراء في فهم مصادر الشريعة والاعتماد على بعضها اكثر من بعضها الاخر ، نشأ عن ذلك قيام المذاهب الاسلامية التي تمثل اهل السنة وهي اربعة :

ـ المذهب الحنفي : نسبة الى ابي حنيفة المتوفي عام ٧٦٧م. ويعرف هذا المذهب بالتسامح والمرونة وهو منتشر في تركيا ومناطق آسيا الوسطى وهو المذهب الوحيد الذي يسمح بتلاوة القرآن بغير العربية .

ـ المذهب الشافعي : نسبة الى محمد بن ادريس الشافعي المتوفي عام ٨٢٠ م وهو واسع الانتشار في الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية وباكستان .

ـ المذهب المالكي : نسبة الى مالك بن انس المتوفي عام ٧٩٥ م وينتشر في المغرب واواسط افريقيا .

ـ المذهب الحنبلي : نسبة الى احمد بن حنبل المتوفي عام ٨٥٥ م ويعرف هذا المذهب بالتشدد والصرامة ، وله وجود في المملكة العربية السعودية .

والمسلمون احرار في اختيار المذهب الذي يريدون او تطبيق حكم منه في قضية معينة ، ولا يحق للمسلم أن يجمع بين حكمين مختلفين من مذهبين في موضوع واحد والا سمي ذلك « تلفيقا » واذا اختار حكم مذهب فعليه ان يمضي في اختياره الى النهاية سواء اكان ذلك في صالحه ام في غير صالحه .

يبدو لنا بعد هذا العرض لتطور التشريع الاسلامي واوجهه المختلفة ان الملامح البارزة لهذا التشريع هي التشدد والثبات .

ويعتبر الادلاء بالشهادة امرا حيويا وحاسما في المحاكم ، والمحكمة ـ مدنية كانت ام جنائية ـ تعتبر المدعى عليه بريئا حتى تثبت عليه التهمة . ويتوجب على المدعي ان يصطحب شاهدين من الذكور او شاهدا وامرأتين لاداء الشهادة بعد حلف اليمين. ولا تقبل الشهادة الا حضوريا وشخصيا . والقاضي له الحق في قبول الشهادة حسب قناعته . وفي حال اخفاق المدعي في اظهار حقه يطلب من المدعي عليه اداء اليمين التي تنفي عنه التهم. فاذا ادى اليمين برئت ساحته . والقاضي هو الذي ينظر في شخصية الشهود ومدى نزاهتهم .

وقد ادى التشدد في اظهار الحق وما يلقيه من عبء على كاهل المدعي الى نشوء نوع اخر من المحاكم ليس وثيق الصلة بنصوص التشريع وهو ما يعرف بديوان المظالم وتضع السلطة على راس هذا الديوان موظفا تمنحه صلاحيات واسعة للنظر في القضايا المقامة على موظفي الدولة أو الجباة او ذوي النفوذ ، كما ان له الحق ان ينظر في امور المحاكم ويكون كمرجع لها . ويمكن اللجوء اليه للنظر في دعاوى المظالم ضد احد القضاة علما بان القاضي لا يستأنف قراره في الاحوال العادية . ان ناظر ديوان المظالم قاض في الحقيقة على الرغم من انه لم يمنح هذا اللقب، وصلاحياته اكبر من صلاحيات القضاة ، فهو يملك حق استخدام اسلوب الارهاب لجعل المدعي عليه يقر بالتهم المنسوبة اليه . ولكن فقهاء الشريعة لم يعترفوا رسميا بهذا النوع من المحاكم .

ونظام « الشرطة » ـ يدعى رئيسها صاحب الشرطة ـ كان نوعا من القضاء الذي مهمته حفظ النظام العام والنظر في ملاحقة المجرمين والاستماع الى الخصوم والحكم بالبراءة او الادانة مع سلطة التنفيذ . ومن مهمات الشرطة النظر في جرائم الايذاء الجسمي والاضرار المادية (٢) وكل سلوك مناف للاداب العامة وسياسة الدولة .

وقد اعطت الشريعة صاحب السلطة صلاحيات واسعة لفرض القوانين والاحكام الشرعية . ولكن هذه الصلاحيات كثيرا ما استخدمت في تجاهل النصوص الشرعية ، فصاحب الشرطة وناظر المظالم يجب ان يبنيا حكمهما على اساس الشريعة ، ولكنهما كانا احيانا يستندان الى « الاعراف » او يعتمدان على قناعة ذاتية بلا سند قانوني .

وفي الواقع فان الفقهاء في معظم الاحيان لم يستطيعوا فرض سلطة الشريعة وهيبتها فوق سلطة الخلفاء والولاة واولي الامر . بل هم قد اعترفوا ضمنيا بوجود صور مختلفة للمحاكم، وباجراءات السلطة التنفيذية ممثلة بالخليفة وولاته وامرائه . تلك السلطة التي تصر ان من واجب المسلم ان يطيع اولي الامر كما ورد في القرآن (٣) .

الحكومة :

ان نظرة على حياة العرب في الجاهلية ترينا مدى التباين في اشكال المؤسسات السياسية التي حكمت الجزيرة بين البداوة وعاداتها واحكامها ، وبين الدولة المعقدة النظام في الجنوب .

(٢) على الرغم من ان المتضرر يحق له نظريا ان يثار لنفسه او لذويه من خصمه حالة وقوع الجريمة او الايذاء الجسدي، فان الشرطة عمليا هي التي كانت مرجعا في تنفيذ العقوبة .

(٣) سورة ٤ (النساء) اية ٥٩و٨٣ .

وفي مدن الحجاز ونجد كان شكل الحكم اشبه بالانظمة البدوية ، فالقبائل تتوزع الاحياء في المدن ، وكل قبيلة تستميت في حماية استقلالها . اما في مكة فقد كان هناك ما اصطلح عليه بـ « الملأ » وهم جماعة من اعيان البلد . وكان الملأ شبيهاً بمجلس البدو .

وهكذا يمكننا ان نصف الحكم في مكة قبل الاسلام بانه « جمهورية التجار » على الرغم من عدم وجود رئيس ذي سلطة تنفيذية ، وقد تركت تلك الاعراف المتباينة اثرها في تطور الحكومة السياسية فيما بعد ولكن الاثر الاكبر كان للتقاليد البدوية الشبيهة بالديموقراطية في النمو السياسي للدولة الاسلامية الفتية .

كان زعيم القبيلة العربية شيخاً ينتخب من بين اعضاء العائلة الرئيسية المسماة « اهل البيت » وهو لم يكن حاكماً مطلقاً بل يتشاور مع بقية الاعيان ، ولم يكن قائداً حربياً بالضرورة ، فيمكن ان تسند قيادة المعارك لشخص يدعى «القائد» والقضاء كان متصلاً بمهمة « الحكم » الذي كان يطلب من طرفي الخصومة ان يقسما اليمين على الرضا بحكمه وتنفيذه ، او يودعا مبلغاً من المال كضمان للتنفيذ في حال رفض الالتزام بالحكم . اما الضمان الجماعي فكان ما تعارف عليه المجتمع من دية في حال الثأر وتجمع من عامة الافراد .

كانت قوة الاحكام تتأثر الى حد بعيد بقوة القبيلة وكثرة عددها . وكانت القبيلة تزيد من عددها بقبول الاغراب الذين يدعون « الموالي » (مفردها مولى) او بضم من جاورها ، او بعقد الاحلاف بينها وبين القبائل الاخرى وكان يفترض في كل عضو من القبيلة ان يتفانى في الذود عنها ضد اعدائها . ووصف ذلك شاعر بقوله :

لا يسألون اخاهم حين يندبهم
من النائبات على ما قال برهانا

وقد اعتمدت الدولة الاسلامية التي اسسها النبي محمد على هذه المفاهيم بفارق ان المجتمع الاسلامي كان مجرد قبيلة كبرى ، ولكن تماسك هذا المجتمع لم يكن برابطة النسب والاصل كما في القبيلة ، ولكنه تماسك قائم على تقبل رسالة النبي محمد . ولم يكن زعيم هذا المجتمع شيخ قبيلة ، بل كان أكبر من ذلك بكثير ... كان النبي محمد الذي جمع الى سيادته المجتمع قيادة الحروب والقضاء ، بمعنى انه كان الحاكم الأوحد من الناحية العملية ، وقد تمتع خليفته بالنفوذ نفسه ما عدا النبوة على الرغم من أن الامر لم يكن وراثيا .

كان شيخ القبيلة الجديد يختار بطريقة وراثية ، اي يجب أن يكون من الاسرة نفسها (من اهل البيت) ، ولم يكن هناك قانون يحصر هذا الارث في الإبن البكر دون اخوته ، فقد كان اعيان القبيلة يختارون الشيخ الجديد على اساس انه من الذكور وأنه الافضل بين اخوته . وقد اتبع سكان المدينة هذه القاعدة حين وفاة النبي فاختاروا سعد بن عبادة ليكون رئيسا للمجتمع الاسلامي . ولكن ثلاثة من رجالات الصحابة المهاجرين عارضوا ذلك ذلك وهم « ابو بكر وعمر وابو عبيدة » فقد تحركوا بسرعة وبايعوا ابا بكر بالخلافة فتبعهم الناس وتركوا سعدا جانبا .

وقد عين ابو بكر (٦٣٢ ــ ٦٣٤م)(١)وهو على فراش الموت عمرا خلفا له في وثيقة مكتوبة بذلك ، بعد تشاور مع قلة من اعيان المسلمين ، وبويع عمر بالخلافة (٦٣٤ ــ ٦٤٤) .

وقد اضاف عمر بعض التدابير الرسمية في اختيار خلفه، فقد عين ــ وهو يحتضر ــ مجلسا من ستة اشخاص ليختاروا بالشورى واحدا من بينهم ، وكان ان اختاروا عثمان (٦٤٤ ــ ٦٥٦ م) واعلنوا قرارهم في جامع المدينة .

ولم يوص عثمان بشيء فيما يتعلق بالخلافة بعد اغتياله.

---

(١) السنوات تشير الى فترة الخلافة فقط . «م» .

وقد بويع علي في المدينة من قبل مؤيديه . ولكن هذه البيعة عارضها معاوية الذي كان واليا على الشام . وقد تطورت هذه المعارضة الى نزاع مسلح نجح معاوية في تحويله الى قضية التحكيم، وقد وافق علي على التحكيم ظنا منه بان المحكمين سيصوتون في صالحه، ولكن الامر ادى في النهاية الى خصومة بين علي وانصاره فخرج عليه قوم اصبحوا ضده وضد معاوية معا وسموا « الخوارج » .

في عام ٦٦١ م قتل علي على يد مجرم ، وقد اتاح ذلك لمعاوية الذي كان يبسط نفوذه على بقاع كبيرة من الدولة الاسلامية ومنها سورية ، ان يستخلص الحكم لنفسه بعد ان تنازل له الحسن بن علي عن الخلافة . وكان الحسن هذا قد بويع بالخلافة لمدة ثمانية اشهر بمساع من عبدالله بن عباس، وحينما تقابلت قوات الحسن مع قوات معاوية في (الاخنونية) رشا معاوية عبدالله بن عباس قائد قوات الحسن بمبلغ مليون درهم لينتقل الى جانبه ، فوجد الحسن انه سيغلب على امره فدخل في مفاوضات مع معاوية بايعه بعدها بالخلافة في جامع الكوفة بعد ان تلقى منه تعويضا ماليا .

ولم يقبل مؤيدو علي اقصاء اسرته عن الخلافة ، واصروا فيما بعد على ان يبقى الحكم في احفاده ، واعتبرت اسرة علي ان الحكم حق الهي لها .

ومنذ خلافة معاوية غدت الطريقة المتبعة في تعيين الخلف وراثية ، فقد اصبح ابن الخليفة هو المرشح للحكم بعد موت ابيه، ويمكن في بعض الاحيان لاخي الخليفة او احد اقاربه ان يتولى الخلافة بعده . وتتم البيعة فور موت الخليفة وتسلم الخليفة الجديد . ويرى بعض المشرعين ان هذه الطريقة في تعيين الخلف نوع من الانتخاب ولكنها في الواقع وراثية .

وعلى الرغم من حجم الدولة الاموية فان ادارتها السياسية

كانت اشبه بالنظم القبلية في الجزيرة العربية ، وقد كـان وجهـاء الدولة من المسلميـن في دمشق يتوقعون من الخليفة ان يشاورهم في الامور واصدار القرارات .

كان الخليفة يملك صلاحيات واسعة منها السلطة القضائية. وقد يسمح للولاة انفسهم بممارســة القضاء او يكون هناك قضاة. كما كان الخليفـة قائدا عسكريـا وامينا للخزانة .

شكل العرب المسلمون فيما بينهم ـ في القرن الاول للاسلام ـ نخبة عسكرية داخل امبراطوريتهم ، اما خارج جزيرتهم فقـد سكنوا في الامصار كالكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان .

لقد شعـر العرب أن على الجماعات المسلمة من غير العرب ان ينتموا الى القبائل العربية ، وقد اطلق عليهم تسمية « الموالي ». هذه التسميـة التي تحمل صفـة اقل من شأن العربي المسلم ، وقد سبب ذلـك بعض القلاقل بعـد زيادة اعداد الموالي وعـــدم رضاهم عن اوضاعهم .

كان عمر قد شكل بعد الفتوحات التي تمت في عهـــده « الديوان » الذي نظم المحاربيـن في الجيوش الاسلامية وحـدد لهم الرواتب والحصص من غنائم البلاد المفتوحة . وتتدرج هـذه الرواتب بحسب قدم الدخول في الاسلام . وهكذا يحصـــل المسلمون الاوائل على مبالـغ اكثر من المتأخريـن في اسلامهم .

وقد سهل هذا الديوان عملية التوسع فـي الفتوحـات اذ ساعدت الرواتب في تشجيع العرب على مزيـد من الفتوحات بدلا من الاستقرار في بلد واحد . وحينمـا تحول المحاربون الـــى محترفيـن فيمـا بعد ، لـم يعـد هنـاك وجـود لهذا النظام .

اما اليهود والمسيحيون فقد خيروا بين الاسلام او دفـــع الجزيـة مع البقاء على معتقداتهم . وكـان هذا الامر معمولا بـه قبل الاسلام حينمـا كانت بعض القبائل تبسط نفوذهـا علـى قبائل اخرى ضعيفـة وتفرض الحمايـة عليها .

وتنص بنود التعهـد بين المسلميـن والمسيحيين واليهـود علـى ما يلـي :

أ ــ الحماية ضد عدو خارجي
ب ــ منحهم الاستقلال الذاتي
ج ــ دفع الجزية الى الخزينة
وقد سميت تلك الجماعات بأهل الذمة .

خلال فترة الفتوحات ، مارس القادة العسكريون حكم البلاد المفتوحة باسم الخليفة واطلق على القائد الحاكم تسمية « العامل » . وكان له ادارة شؤون المسلمين مباشرة وجمع الضرائب من الاقليات المحمية وقد اطلق على الوالي فيما بعد اسم « الامير » واصبح للعامل جباية الضرائب والاهتمام بالامور المالية . والامير هو الذي يعين القضاة .

وظهر في الاسلام جماعات لعبوا دورا شبيها بدور الكنيسة، وهم العلماء . وقد ادت النزاعات التي قامت بين الفرق والشخصيات المختلفة المتحاربة الى نشوء جدل نظري في طبيعة الاسلام والطريقة التي يجب ان يطبق بها . وهكذا ظهر منذ البداية العلماء الذين خبروا شؤون الدين والشرع .

وقف العلماء موقف المعارضة من الامويين الذين ساروا على العرف الجاهلي بدلا من الشريعة . ولهذا رحبوا باقدام العباسيين على توسيع سلطة الشريعة عندما عزلوا الامويين عام ٧٥٠م . وقد تزايد عدد القضاة من العلماء كما ازدادت الشروح الدينية والقوانين مما قوى مركز العلماء وجعلهم يساندون الحكم العباسي .

وفي مقابل العلماء ، عرفت الادارة العباسية نوعا من الموظفين سموا « الكتّاب » وكان كثير منهم يتوارثون العمل. وقد دخل الكتاب في صراع من العلماء على السلطة . ففي القرن الاول للحكم العباسي حاول الخلفاء الاعتماد على دعم العلماء الذين يتمتعون بتأييد شعبي بينما حاول الكتاب تدعيم فكرة الحكم المطلق للخليفة لانهم كانوا عمليا وراء سلطة الخليفة . وهكذا اصطدم الكتاب والعلماء حول مدى الحرية التي يمكن ان تمنح

للخليفة . والذين كانوا يعملون لاعلاء شأن الشريعة عينوا في مراكز دينية تشبه مراكز القساوسة في كثير من الاحيان . وازداد نفوذ هؤلاء العلماء في حياة عامة المسلمين لان نظام التعليم كان بايديهم .

وفي القرن الثاني من الحكم العباسي، تعاظم نفوذ العلماء وقوي مركزهم السياسي . وقد استطاعوا من خلال نفوذهم السياسي مجابهة بني بويه الذين تسلطوا على الحكم العباسي بين عامي ٩٤٥ ـ ١٠٥٥ م . لم يجرؤ بنو بويه على انهاء الخلافة العباسية السنية كليا على الرغم من انهم كانوا شيعة يدعون ان نسبهم يعود الى الساسانين ، الحكام السابقين لايران وقد بدأ نفوذ بني بويه في الاصقاع الشرقية ثم امتد الى بغداد سنة ٩٤٥م حيث قلصوا نفوذ الخليفة وحولوه الى مجرد رمز .

في عام ١٠٥٥ خلع السلاجقة الاتراك السنيون بني بويه واصبحوا هم الاوصياء على الخلافة العباسية واطلقوا على انفسهم لقب « سلطان » على ان وصايتهم كانت ارحم من بني بويه . وقد تعايش الخلفاء مع السلاجقة حتى سقوط بغداد على يد المغول عام ١٢٥٨ م .

كان عهد السلاجقة فترة نفوذ العلماء وبخاصة بعد افتتاحهم المدارس التي تدرس الشريعة على طريقة السنة في المدن الكبرى وذلك بتشجيع من الوزير السلجوقي نظام الملك ، ومن يتم دراسته في هذه المدارس بنجاح يعتبر مؤهلا للعمل ككاتب لدى الدولة .

وبهذه الطريقة تغلب العلماء على خصومهم ، لان الوظائف الادارية لدى الدولة اصبحت تشغل باناس تلقوا ثقافتهم عند هؤلاء العلماء ، ولهم نظرة اساتذتهم نفسها للحياة . واصبح هذا الامر مثلا يحتذى به حتى القرن التاسع عشر .

عنت انجازات العلماء هذه ان الدولة اعترفت بتفوق الشريعة ، ولكن على الرغم من كل ذلك ، لم ينجح العلماء في

وضع الامور الدستورية للدولة الاسلامية تحت احكام الشريعة . وذلك لان ورود سابقة بهذا الامر في الشريعة كان مبهما نوعا ما . اما في مجال السلطة ، فقد بات الذين سيستلمون السلطة يورثونها الى اجدر ابنائهم .

وقد تميز حكم الخلفاء العباسيين بتلاشي اهمية وجود العرب المسلمين في الادارات الحكومية من جهة وتبني الاصول الفارسية في الحكم من جهة ثانية . وهكذا انتهت المكانة الخاصة التي كان يتمتع بها العرب في الحكم ، لان الحكام الجدد كانوا مدينين الى غير العرب في دعمهم ووجودهم في السلطة .

وقد ادى انتقال العاصمة من دمشق الى بغداد التي تبعد عدة اميال عن العاصمة الفارسية « المدائن » الى تبني النظم الفارسية في الحكم ، مما ادى بالتالي الى استخدام رجال ممن يعرفون اساليب الحكم الفارسية في المراكز الادارية . اما المسلمون العرب في الحكم فقد حاولوا التمهيد لوجود رجال في الحاشية ممن يثق فيهم الخليفة من العرب .

وبما ان رجال الحاشية لم يكونوا يتمتعون بمورد رزق مستقل ، فهم لم يستطيعوا ان يورثوا طبقتهم الى ابنائهم ، وبالتالي فلم يكن في الدولة الاسلامية اية القاب تورث اذا استثنينا لقب « الشريف » الذي كان يطلق على المنحدرين من سلالة النبي محمد .

تتميز الملامح الرئيسية للحكم العباسي باحداث وظيفة الوزير ، والوزير في العصر العباسي يماثله رئيس الوزراء في عصرنا ، وكان الخليفة يعينه ويعزله حسب مشيئته ، ويرجع اليه في اموره ، وكانت هذه المناصب يعمل بتوريثها الى الابناء من منصب الوزير فما دون .

لم يكن انفصال الولايات عن الخلافة في بداية العصر العباسي ناتجا عن رغبة محلية في الاستقلال الذاتي عن العاصمة البعيدة — علما بان العلماء والشعب كانوا يؤيدون جميعا الوحدة الاسلامية

بين البلاد ـ بل كان الدافع الى الانفصال ظهور قادة اقوياء لديهم قوة عسكرية تجعلهم يستقلون بولايتهم عن العاصمة .

وكان ضعف الخلفاء يتخذ احيانا شكلا اخر ، اذ يعترف الخليفة بتوريث الولاية كما حدث في ولاية ابن الاغلب على تونس قبيل عام ٨٠٠ م .

ومن الجلي تماما ان الخلافة كانت منصبا دينيا الى جانب كونها منصبا سياسيا . وهذا ما جعل بني بويه يحجمون عن خلع الخليفة العباسي رغم انهم من الشيعة ، فقد كان الخليفة يرأس الغالبية العظمى من السنة الذين لم ينسجموا مع الحكام الجدد من الشيعة . وحافظ السلاجقة على هذا الوضع اذ ان المبرر النظري لحكمهم انهم كانوا مكلفين من قبل الخليفة بالاعباء العسكرية والتنفيذية . وكثيرا ما تابع الحكام المستغلون مطالبتهم بوثائق تعيين من قبل خلفاء ضعاف الشأن ، فقد كانت هذه الوثائق ذات قيمة لهؤلاء الحكام فهي تمنحهم موافقة دينية على ممارسة سلطة كانت حكما في قبضتهم .

في القرن الثالث عشر ادى غزو التتار لغرب اسيا الى تدمير بغداد ومقتل الخليفة المستعصم عام ١٢٥٨ م . وعلى الرغم من توالي سلسلة من الخلفاء العباسيين الضعفاء في القاهرة لمدة ثلاثة قرون تحت حماية السلاطين المماليك والعثمانيين وعلى الرغم من الاحتفاظ بلقب « خليفة » الى ما بعد الحرب العالمية الاولى ، الا ان الحكم الفعلي للخلافة كان قد انتهى في القرن العاشر عند ظهور السلالات الحاكمة من فارسية وتركية . وهكذا نرى ان شكل الحكم الاسلامي اصبح منذ ذلك التاريخ وحتى مطلع القرن العشرين في يد حكام متسلطين .

البيئة الاجتماعية والاسرة :

كان المجتمع قبل الاسلام يرتكز على القبيلة ، وقد كان رئيس

القبيلة ينتخب من قبل رؤساء الاسر التي تتالف منها القبيلة ، وعادة كان ينتخب من اسرة معينة « أهل البيت » وكان المرء يكتسب حسبا ونسبا رفيعين اذا هو انتمى لمثل هذه الاسرة ، وافضل اختبار للنبل كان صفاء النسب ، وقد يشوه صفاء هذا النسب مجرد انتماء احد العبيد الى شجرة الاسرة او وجود صلة قربى برجل وضيع ..

استمرت فكرة النبل المبنية على النسب حتى بعد النبي محمد ، رغم ان القرآن نبذها ولم يقرها ، ولكن شهرة النبي ادت الى ظهور مطلب اخر للنبل هو شرف الانتساب الى النبي ، وبالتالي فان احفاد النبي والمهاجرين من مكة والانصار في المدينة قد اكتسبوا نبلا .

وعندما انتشر الاسلام خارج الجزيرة وفي بقاع الدنيا ، اعتبر المسلمون العرب انفسهم متفوقين على الموالي الذين دخلوا الإسلام ، وكان على هؤلاء الموالي في وقت من الاوقات ان يدفعوا الجزية التي يفترض ان يدفعها اهل الذمة فقط ، وهكذا وردت التفرقة المالية الى جانب التفرقة الاجتماعية التي مارسها العرب الفاتحون .

وفي القرون التي أعقبت وفاة النبي قام الموالي بشن معارك للمطالبة بالمساواة حتى تم لهم ذلك اخيرا . وفي واقع الامر فان سياسة التزاوج التي مارسها العرب انفسهم ضمنت ان المجتمع الإسلامي يجب الا يكون فيه تفوق الخاصة الحاكمة على العامة المحكومة ، لكن يجب ان يكون مجتمعا اساسه المساواة .

اما المسيحيون واليهود والمجوس الذين خضعوا للحكم الاسلامي بعد الفتوحات فقد شكلوا طبقة دنيا في السلم الاجتماعي . ورغم السماح لهم بممارسة حريتهم الدينية فقد اخضعوا لدفع الجزية لخزانة المسلمين . وبسبب الضغط الاجتماعي والشرعي عليهم دخول مجموعات منهم في الدين الجديد . ولم يؤد ذلك الى انقراض المجوس تماما .

يبدو لنا مما تقدم ان التسامح الديني الذي مارسه الاسلام في القرون الوسطى، يفوق التسامح الديني الذي مارسته المسيحية في القرون الوسطى، حيث كاد لا يكون هناك اي تساهل ديني مع اليهود او المسلمين والاخرين الذين خضعوا لسلطة المسيحية.

اما ادنى طبقة في السلم الاجتماعي فقد كان يشكلها العبيد كما كان الحال في الغرب. وقد تقبل النبي محمد العبودية التي وجدها في الجزيرة العربية الا انه اوصى بالرفق بالعبيد وحسن معاملتهم (٢).

وفي الواقع اختلف وضع العبيد في ظل الاسلام، فمن جهة كان يحق لهم جمع الثروة والنفوذ السياسي، بل حتى ظهور سلطة المماليك كما كان الامر في مصر، الا انهم من جهة ثانية كانوا ضحايا الضغط الشديد كما في جنوب العراق في اوائل العصر العباسي.

وعلى الرغم من اضمحلال التمييز بين المسلم فان السعي وراء فكرة النبل استمر مع السعي وراء الانتماء الى سلالة النبي، وفي الواقع فقد منح احفاد النبي لقب «شريف» وكانت الدولة تدفع لهم مخصصات معينة. ومنذ القرن الرابع اصبحوا يتميزون بعصبهم «بلفة خضراء» وفي المدن كان لهم ما يشبه النقابة وعلى رأسهم نقيب ينتخبونه ومهمته حفظ سجل خاص بالاشراف والعناية بمصالحهم ومنعهم من الزواج بأناس اهم دونهم في السلم الاجتماعي. وحيثما تكاثر هؤلاء الاشراف على مر الزمن فلاشي املهم في الحفاظ على وضعهم كطبقة عالية.

قبل الاسلام كان تعدد الزوجات امرا سائدا في حياة الاسرة، واستمر هذا الامر في الاسلام مع بعض التحديد. كان الزواج في الجزيرة العربية يتم باحدى طريقتين: فاما ان تصبح الزوجة

---

(٢) كما اوصى باعتاقهم في بعض الاحيان. ((م)).

عضوا في قبيلة زوجها ويتبعها اولادها ، او تبقى الزوجة عضوا في قبيلتها ويلحق بها الاولاد . وفي زمن النبي محمد كانت الطريقة الاولى هي الشائعة واصبحت القاعدة بين المسلمين .

الزواج في الاسلام اجراء مدني تطور في الاصل من فكرة ابتياع الزوجة . وقبل الاسلام كان العريس يقدم « المهر » لولي امر العروس الذي هو والدها او احد اقاربها . وقد حافظ الاسلام على هذا الاجراء شريطة ان يذهب المهر الى الزوجة . فعندما يحدد مبلغ المهر وتعطى موافقة الولي يحضر شاهدان او شاهد وشاهدتان ، وباتمام هذه الاجراءات وتقديم المهر الى العروس يصبح الزواج نافذ المفعول .

وعلى الرغم من ان الشريعة تتطلب موافقة الفريقين في الزواج الا ان المرأة تعتبر غير مؤهلة لان تعطي موافقتها (٣) . ولذا ينوب عنها وليها . ويحق للولي ان يرفض اعطاء الموافقة في حال عدم بلوغ الفتاة . اما اذا كانت بالغة فلها حق الرفض .

وفي المذهب الحنفي يحق للفتاة البالغة ان تقرر زواجها دون تدخل وليها والشريعة هي التي تقرر اهي بالغة ام لا بناء على ظواهر فيزيولوجية .

يحق للرجل ان يجمع بين اربع زوجات ، اما العبد فله الحق في زوجتين . يبدأ العرس بتلاوة الفاتحة وبخطبة يلقيها ولي العروس (٤) . وتتلو هذا الاحتفال الولائم . تعترف الشريعة بعدة طرق لانهاء الزواج ، والطريقة الاكثر شيوعا هي الطلاق وهو ان يعلن الزوج ثلاث مرات انه طلق زوجته ، وبعد الطلاق الثالث يأخذ الطلاق مجراه . وهذا الشكل من الطلاق يضع الامر كلية في

---

(٣) اذا كانت دون سن البلوغ .

(٤) هذه الخطبة يلقيها في الوقت الحاضر الموظف المكلف بكتابة عقد الزواج .

((م))

يد الزوج . والشكل الاخر لانهاء الزواج هو التفريق وهو ان يعلن القاضي الطلاق بناء على قرار منه او الحاح من الزوج او الزوجة ، وهناك عدة اسباب تخول الزوجة طلب الطلاق مثل عنة الزوج.

للزوج على زوجته حقوق كثيرة في ظل الشريعة ، فله ان يمنعها من مغادرة المنزل ، وله ان يحدد اتصالها باقاربها ، وله الحق في اصلاحها ، ومن جهة ثانية فللزوجة ان ترفض مصاحبة زوجها في رحلاته ولها الحق في المهر والنفقة ، والمهر يدفع جزء منه وقت الزواج ، ويؤجل الباقي فيصبح مستحقا في حال وفاة احدى الزوجات او وفاة الزوج . وهذا الامر يقف حائلا امام طلاق الزوج لزوجته . اما النفقة فتتضمن الغذاء والملبس والمأوى الذي يجب ان يتألف – على الاقل – من غرفة خاصة بالزوجة . والزوجة ليست مجبرة على الاسهام في نفقات المنزل . ويمكن ان يتوقف دفع النفقة حينما تكون الزوجة عاصية ومسجونة لامر دين او تحت ظروف اخرى معينة ، اما اذا تخلف الزوج عن دفع النفقة لزوجته فالقاضي يرهن ممتلكات الزوج لتعيل الزوجة منها نفسها .

ويلاحظ هنا انه على الرغم من ان وضع المرأة في الشرع الاسلامي غير موات الا ان هذا الشرع اعطى المرأة وضعا افضل بكثير مما اعطتها اياه القوانين الاوروبية التي فترة قريبة من العصر الحاضر . فالمرأة تحت حماية الشريعة الاسلامية تحتفظ بالملكية ويحق لها الاحتفاظ بالمهر وبأي شيء تكسبه من الارث او الهدايا ، او من جهدها الخاص . والحق يقال ، فان كثيرات من النسوة المسلمات المرموقات لعبن دورا هاما في المجتمع الاسلامي ، ولنأخذ مثلا عودة بنت احمد المرقيطي ، المتوفاة عام ١٠٠٠ م والتي صممت بناء الجسور ورسمت الطرقات والجوامع وانشأت جامع « باب دق الله » في مراكش .

في القرون الوسطى للاسلام كانت هناك جمعيات تعتمد على

مصالح مشتركة . وكان اهمها المنظمات التجارية التي كانت تدعى « الاصناف » واول من اسسها هم القرامطة الذين كان لهم نفوذ في شرق الجزيرة في نهاية القرن التاسع ، كانت هذه الاصناف تشبه البنيان السياسي في الاسلام اي هي دينية ودنيوية . وكانت هناك مراسيم معقدة للدخول في عضوية هذه الاصناف ، وكانت هنالك عدة رتب تمنح لاعضائها ، وعلى الاعضاء ان يقسموا اليمين على حفظ سر مهنتهم وعلى انتاج افضل الاعمال ، وعلى بيع منتجاتهم باسعار معقولة ، وقد بقيت بعض هذه الاصناف حتى القرن التاسع عشر ، الا ان النقابات الحديثة استوعبتها . ومن المحتمل ان يكون لهذه الاصناف في القرون الوسطى اثر في نشوء الاصناف الاوروبية . اما الشكل الاخر للجمعيات فهو « الطريقة » اي الاخاء في الدين ، وكلمة طريقة وجدت في الاصل لتعني الطريقة المثلى في ارشاد المسلم الصوفي الى الحقيقة الالهية من خلال مراحل نفسية ، وكانت احدى هذه الطرق تستخدم « الذكر » . وقد كان الذكر وسيلة للوصول الى حالة من التركيز الذهني في تهيئة الصوفيين لاستقبال التجربة الالهية . وفي نهاية الامر اصبحت كلمة « الطريقة » تعني منظمة دينية وجدت لتصعيد الطقوس الصوفية التي لم تكن موجودة في الشعائر الدينية الاسلامية ، والعضو في هذه المنظمة كان يدعى « الفقير » . وكان قبوله في المنظمة يتم بعد احتفال رسمي شبيه بجمعية الاصناف .

وكانت شعائر هذه المنظمة تقام في « رباط » اي دير بصورة جماعية ، وهي تتألف من الصوم والصلاة والذكر والدعاء وشعائر دينية اخرى . وقد تعددت امثال هذه المنظمة منذ القرن الثاني عشر وكانت كل منها تنسب الى مؤسسها ، واقدمها « القادرية » نسبة الى عبدالقادر الجيلاني .

وانتشرت كذلك في القرون الوسطى للاسلام جمعية تدعى « الفتوة » وقد استخدم هذا الاصطلاح في القرن الثامن ، وكان

لاغلب المدن مثل هذه الجمعيات التي يؤسسها عادة افقر القوم وكان هؤلاء يقومون بالكثير من الالعاب الرياضية والعسكرية ويميلون الى العنف ، وكانوا احيانا يؤيدون السلطة ، بينما يميلون الى السلب والنهب احيانا اخرى ، وكانوا يبتزون الاموال من التجار في الاسواق في مقابل حمايتهم .

وكانت تسبق عضوية الفتوة فترة اختبار ، ثم يكتسب المرء العضوية الكاملة في حفل كبير يتوجب عليه اثنائه ان يحتسي كوبا من الماء المالح ، ثم يوهب حزاما خاصا .

وفي القرن الحادي عشر طرأ بعض التغيير على جمعية الفتوة نظرا لاستقطابها اشخاصا ذوي مكانة مرموقة واشخاصا ذوي علم وفير . وقد ادى ذلك الى ترقية مفهوم الفتوة والتأكيد على شهامة النفس .

في القرن الثاني عشر انضم الخليفة نفسه الى الفتوة (وهو الناظر الذي حكم بين ١١٨٠ و ١٢٢٥) وقد حاول توحيد بقية المجموعات في بغداد وتهذيبها ، بينما كان يشجع الطبقات الحاكمة والدينية والعسكرية والتنفيذية على الانتماء اليها . وقد كان يأمل ان يجعلها اداة ثقافة اجتماعية ، واداة توحيد بدلا من ان تكون عنصر شغب وعنف داخلي . وقد حث بقية الحكام المسلمين ان ينضموا اليه لتأسيس جمعية فتوة اسلامية شاملة الا ان جهوده ذهبت هباء عند غزو التتار .

اما في الضمان الاجتماعي الاسلامي فقد نص القرآن على ان يدفع المسلمون الاحرار البالغون العقلاء مبلغا سنويا يدعى الزكاة ، والزكاة احد الاركان الخمسة في الاسلام ، وتنفق عائداتها على البؤساء والفقراء والعبيد والمدينين والمسافرين ، كما يمكن ان تنفق في اغراض الجهاد في سبيل الله . وتنص الشريعة على ان تدفع الزكاة بشكل يتناسب مع الملكية التي تزيد عن النصاب والتي يمر عليها حول وهي في حوزة صاحبها ، وتختلف هذه النسبة حسب نوعية الملكية فهي في الذهب والفضة

والبضائع ٢ ونصف ٪ وفي انتاج الاراضي المروية مطرا ١٠ ٪ والاراضي المروية سقاية ٥ ٪ وفي المناجم الخاصة ٢٠ ٪ اما الزكاة عن المواشي والدواجن فتختلف نسبتها باختلاف طبيعة هذه الملتكات .

ان هذه الامور المتعلقة بالزكاة لم يطبقها الخلفاء واتباعهم ويوزعوها كما توجب الشريعة ، بل بقيت غالبا امورا نظرية، ومع ذلك فلا يزال الصالحون من المسلمين يعتبرون الاحسان الى الفقراء امرا دينيا ضروريا رغم أن هذه المسألة تركت لضمير الافراد .

التجارة :

ان نشاط العرب التجاري موغل في القدم ، فقد أزدهرت حضارة جنوب الجزيرة العربية قديما معتمدة على مرور البضائع من الشرق ـ وبخاصة الهند ـ تلك البضائع المطلوبة كثيرا في بلاد البحر المتوسط . الا ان تصدير البخور بدأ من جنوب الجزيرة العربية نفسه وكانت تجارته هامة .

كان تجار جنوب الجزيرة يجوبون الانحاء سعيا وراء تجارتهم، وقد وجد في جزيرة ديلوس اليونانية نصب نقش عليه بالخط المسند اهداء الى الاله (ود) ومن جهة ثانية تأثر جنوب الجزيرة باوروبا بعض الشيء ، اذ وجدت بعض النقود اليونانية في منطقة اليمن .

انهارت هذه التجارة في العصر المسيحي الاول على يد حكام مصر البطالسة الذين كانوا يرسلون السفن مباشرة الى الهند، بينما احتل شمال الجزيرة العربية مركزا هاما في التجارة نتيجة ظهور الدولة النبطية وعاصمتها البتراء . واستمرت التجارة حتى انتهت على يد الرومان عام ١٠٦ م .

وفيما بعد غدت مكة مركزا تجاريا هاما في الجزيرة

العربية ، ومنشأ ذلك امر غامض وقد يعود الى قصي الجد الاكبر للنبي محمد الذي صارت مكة في عهده مدينة بعد ان كانت مركز تجمع حول الكعبة وكان هناك شكل من اشكال التجارة يدعى المضاربة تستثمر فيه مبالغ مالية صغيرة في اعمال تعود بالفائدة على اصحابها . ولقد حرم القرآن الربا مما يدل على أنه كان موجودا في الجاهلية . وكان للنساء دور نشيط في حياة المدينة التجارية ، وكانت الارباح ترتفع الى مئة بالمئة وكان هذا مالوفا مما ادى الى اثراء كثيرين من سكان مكة .

في القرن الخامس وحتى اوائل القرن السابع عندما اضمحلت الامبراطورية الرومانية في الغرب اصبحت القسطنطينية ذات نفوذ تجاري عالمي . ولكن منذ القرن السابع وحتى نهاية القرن الحادي عشر كان العرب اشهر التجار في العالم . وانتقلت هذه المكانة التجارية الهامة الى الاوروبيون منذ نهاية القرن الحادي عشر حتى عصرنا الحاضر .

هذه الشهرة التجارية التي تمتع بها العرب منذ القرن السابع وحتى القرن الحادي عشر تعود الى اتساع منطقة نفوذهم في البحر المتوسط والى اعتبارهم التجارة امرا حيويا وهاما ، فالنبي محمد نفسه كان تاجرا . ان مراكز كالقاهرة وقرطبة وبغداد فاقت القسطنطينية في اهميتها التجارية واصبح الدينار والدرهم عملة اهم في قيمتها المتداولة من الـ Nomisma البيزنطي .

وجدير بالقول هنا ان كلمة « دينار » مقتبسة من اللاتينية « Denarius » وكلمة «درهم» من اليونانية « Drachma » فالدينار كان وحدة نقدية ذهبية والدرهم وحدة فضية واختلفت قيمة العملتين عبر القرون فبينما كان الدينار يساوي عشرة دراهم اصبح يساوي خمسين درهما .

ادى نمو التجارة العربية الى اثراء الامبراطورية العربية، ولكن الثروة لم ينلها غالبية السكان . فالامير عبد الرحمن الثالث (٩١٢-٩٦١) والذي اصبح خليفة في قرطبة جنى مبلغ عشرين

مليون دينار من تجارته بين السودان والمغرب العربي . ويستدل على اهمية التجارة العربية من القطع النقدية القديمة التي اكتشفت في مناطق تبعد كثيرا عن دائرة نفوذ العرب كالبلاد الاسكندنافية وروسيا وحتى انكلترا ، كما يستدل على هذه الاهمية في القرون الوسطى من المصطلحات التجارية العربية التي اقتبسها الاوروبيون مثل « Average » من «عوار» و « Calibre » من «قالب» و « Tare » من «طرح» و « Cheque » من «الصك» و « Tariff » من «تعريف» . . . الخ .

وخلال هذه الفترة الذهبية للتجارة العربية لم يكن هناك تجارة مباشرة بين العرب واوروبا فقد كانت هذه التجارة في يد اليهود الذين لعبوا دور الوسيط مستغلين وجود جماعات يهودية في كل من البلدان العربية والاوربية .

في القرن الحادي عشر تلاشى نفوذ المسلمين التجاري من البحر المتوسط عندما غزا النورمانديون صقلية وجنوب ايطاليا عام ١٠٩١ وعندما نجحت الحملة الصليبية الاولى عام ١٠٩٥ .

كانت الطرق التجارية في اوائل القرون الوسطى افضل عند المسلمين مما هي عند الاوروبيين ، فقد كانت الطرق في آسيا وافريقيا اجود من طرق اوروبا التي يصعب سلوكها في الشتاء والتي كانت تغطيها الغابات مما يجعلها مأوى مناسبا للصوص وقطاع الطرق ، بينما كانت طرق شمال افريقيا مكشوفة ويابسة .

كانت المعاملات التجارية في البلاد العربية والاوروبية خلال القرون الوسطى تقام في المدن الكبيرة وفي الاسواق ، وكان يؤم هذه الاسواق جميع طبقات الناس ، فقد كان فيها الى جانب البضائع اماكن للهو وفرص لعقد الصفقات التجارية . ولهذه الاسواق تاريخ عريق عند العرب وقد كانت معروفة في الحجاز قبل النبي محمد وبخاصة سوق عكاظ .

كانت السلع التجارية المتداولة في القرون الوسطى تدور في ثلاثة نماذج : تجارة الرقيق ، والمنتجات الطبيعية ، والمصنوعات ،

اما تجارة الرقيق فكانت معروفة لدى المسلمين والاوروبيين في القرون الوسطى ، حتى ان البابا مارتن الخامس اصدر قرارا عام ١٤٢٥ يحرم فيه الرق ، ولكن هذا القرار لم يستطع ايقاف هذه التجارة وكانت مدينة جنوا المركز الاساسي لتجارة الرقيق ، وكان العبيد ينقلون من القرم الى مصر ، وكان المسلمون يبيعونهم فيها حيث ينقلون للقيام باعباء تجديف السفن الاوروبية .

اما المنتجات الطبيعية الهامة التي كان الاوروبيون يستوردونها من المسلمين وبوساطتهم فهي : التوابل والمعادن والشب (الذي يستخدم كمثبت للون في صباغة النسيج) والسكاكر والزعفران والحرير .

والمصنوعات التي استوردها الاوروبيون من المسلمين هي النسيج من مصر والزجاج من سورية والسجاد من ايران .

وكانت المدن الاوروبية تصدر للعرب العبيد والفراء والشمع والعسل والنسيج وبعض المصنوعات الاخرى .

لقد سبق نشوء الشركات التجارية في اوروبا وجود جمعيات تجارية مشابهة في البلاد العربية ، اشهر هذه الجمعيات التجارية كانت شركة «الكارم» التي سمع بها اول مرة في القرن العاشر ، والتي اندثرت في القرن الخامس عشر . كان تجار هذه الشركة يستقرون في مصر ، وكانوا يهتمون كثيرا بتجارة التوابل بين اليمن ومصر ، وكان لتجار عدن وكالات خطية عن التوابل من التجار الهنود ، وكانوا ينقلون الحمولات على سفن عدنية الى الشاطىء المصري السوداني عند «القصير» ومن هناك تنقل الى القاهرة على متن بارجة .

لقد اثري تجار شركة الكارم ، فقد دون ان ابن مسلم المتوفي عام ١٣٧٤ ترك ثروة تقدر بعشرة ملايين دينار . وقد مكنت هذه الاموال الضخمة التي جنتها شركة الكارم اصحابها ان يعملوا كأصحاب المصارف ، فقد سجل التاريخ ان هذه الشركة اقرضت

السلطان برقوق (١٣٨٢ـ١٣٩٨) مبلغ مائتي الف دينار لتجهيز جيشه .

وازدهرت الاعمال المصرفية كذلك بعوامل اخرى : كنشاط الجهابذة (٥) (الصرافين) . فقد ادى استخدام النقود الذهبية والفضية في الامبراطورية الاسلامية وتداول كثير من العملات الاجنبية الى نشوء فئة الجهابذة . ففي القرن العاشر ظهر الجهبذ كصاحب المصرف في الوقت الحاضر .

الا ان عمل الجهبذ تطور واتسع ليشمل قبول الودائع ونقل الاموال من مكان الى اخر بموجب حوالة، بل حتى اقراض الاموال للخلفاء والوزراء ورجال البلاط وذلك بقبول الفوائد والكفالات عليها . وكان اغلب هؤلاء الجهابذة نصارى او يهودا ، واول مصرف ظهر في التاريخ الاسلامي كان في عهد الخليفة المقتدر عام ٩٣٢. واسسه يهوديان من بغداد هما يوسف بن بنخاس وهارون بن عمران . وكانت بغداد اهم مركز تجاري في الشرق العربي . وهكذا نجد ان شارع لومبارد Lombard Street وشارع Wall Street (٦) قد سبقهما بقرون «درب العون» في بغداد وهو الحي الذي يتركز فيه الصرافون .

كان الصرافون واصحاب المصارف يؤدون خدمات ذات فوائد جمة لهؤلاء الذين يملكون اموالا طائلة ، والذين يخشون السرقة، او مصادرة الولاة او الجباة لاموالهم . وحفاظا على السرية كانت هذه الأموال لا تدخل في دفاتر الحسابات .

واحتمالا لوقوع اخطار في نقل الاموال من مكان لاخر فقد ابتكر التجار العرب (السفتجة) (٧) وقد استخدم الولاة السفتجات في نقل الاموال الى العاصمة وكانت هذه السفتجات تقبض عند

---

(٥) الجهبذ : العلامة والناقد الكبير .

(٦) حيان هامان تجري فيهما البورصة في كل من لندن ونيويورك .

(٧) السفتجة : الكمبيالة .

الصرافين .

كانت القروض التي يمنحها الصرافون للخلفاء تأخذ اشكالا معقدة من الإجراءات . وعلى سبيل المثال فقد يمنح الصرافون قرضا للخليفة مقابل كفالات ترسل اليهم من الولايات ومقابل فائدة تدفع لهم من قبل الحكومة .

لم يتفق هذا النظام المالي والتجاري مع قواعد الاسلام ، ولم يعترف الاسلام بالحوالات واعتبرت أمرا غير شرعي ، الا ان التجار والصرافين عمدوا الى الحيل لجعل الشريعة غير فعالة في هذا المجال .

ومنذ القرن الحادي عشر وما بعده ، شهدت البلاد الاسلامية انحدارا في الاحوال الاقتصادية رافقه خسارة العرب سيطرتهم على طرق التجارة العالمية ، واضيف الى ذلك الغزو الاجنبي ، وساهم في سقوط الاحوال الاقتصادية نقصان الموارد الطبيعية كقلة الاشجار والانهار والموارد المعدنية في البلاد العربية . والاشجار دوما كانت قليلة عند العرب الا انها استغلت كثيراً في القرون الوسطى مما ادى الى تناقصها بالتدريج وانقراضها في اغلب الاحوال ، ومثالا على ذلك ان اشجار الارز كادت تختفي من لبنان . وهذا التناقص عائد الى استخدامها في الوقود وصناعة الالات والجسور والسفن والمنازل والاثاث واشياء كثيرة اخرى .

ومما اعاق استمرار الحياة الاقتصادية عند العرب قلة الانهار وعدم استخدامها في نقل البضائع .

في المحيط الهندي حافظ العرب على مكانتهم التجارية لفترة اطول الا انهم فقدوا هذه السيطرة حينما حل مكانهم البرتغاليون في القرن السادس عشر بعد اكتشاف فاسكو دي غاما الطريق المؤدية الى الهند في احدى رحلاته البحرية عام ١٤٩٧ ـ ١٤٩٩ . وقد خلف الهولنديون البرتغاليين في تفوقهم البحري في المحيط الهندي في القرن السابع عشر .

وفي القرن الثامن عشر تغيرت مظاهر التجارة بين الشرق

والغرب فقد تضاءل نشاط التجار الاوروبيين في المستعمرات الاوروبية اما لانعدام الامن او لارتفاع نسبة الفوائد في بقية الانحاء ولهذا انتقلت التجارة التي تقوم على تداول المنتجات الاوروبية الى ايدي افراد في البلاد العربية هم غالبا من المسيحيين او اليهود ممن يجيدون اللغات الاوروبية ويعرفون طرق المعاملات التجارية الاوروبية .

وهذه التطورات كانت سباقة في حركة التجارة في البلاد العربية في الوقت الحاضر .

الزراعــة :

تتباين الزراعة في البلاد العربية بتباين مناخين : منـاخ منطقة الرياح الموسمية التي تؤثر في جنوب الجزيــرة العربيـة وجنوب السودان ، ومناخ منطقة البحر المتوسط ، ويأتي منـاخ منطقة الرياح الموسمية بالأمطار الكافية صيفا لزراعة الفاكهـة الاستوائية والبن والتمر الهندي والقات ، اما خارج هذا النطاق فيتميز مناخ البلاد العربية بشتاء بارد ممطر ، وصيف طويل حار غير ممطر في منطقة البحر المتوسط ، وكلما ابتعدنا عن الشاطيء تقل الامطار حتى تتوقف كليا في الداخل كالصحراء الكبرى .

وفي السهول الساحلية المطلة على المتوسط والتي يسقـط فيهـا المطر بمعدل ٥٠٠ الى ١٠٠٠ ملم تزرع الحبوب والخضروات بانواعها والتبغ والزيتون ، كما تزرع محصولات تعتمد على السقاية كالقطن والحمضيات والرمان . وفي مناطق السهول الداخلية حيث يبلغ معدل المطر ٢٥٠ الى ٥٠٠ ملم يمكن ان يزرع القمح والشعير والذرة الصيفية والعدس ... الخ . الا ان السقاية ضرورية لكثير من الفواكة والخضار ، كالبندورة والارضي شوكي والباميـاء ، وللازهار كالورد والياسمين والخشخاش ... الخ .

اما في المناطق الاخرى كالصحاري حيث يندر هطول الامطار

وتصل درجة الحرارة الى ٣١ مئوية فتقوم زراعة المانجو والتمر والبرتقال والارز وقصب السكر والقطن ان توفرت السقاية لذلك .

ان اخصب الاراضي للزراعة في البلاد العربية هي اراضي وادي النيل والسودان وحوضا الفرات ودجلة ، وفي القرون الوسطى كان العرب يمتلكون منطقتي خراسان والصغد الخصبتين ، ويمثل الجراد احد الاخطار التي تهدد الزراعة في البلاد العربية وليس هناك طريقة بعد لازالة هذا العدو الخطير نهائياً .

ان اغلب المنتجات الزراعية التي يعنى بها العرب اليوم كالقمح والشعير والارز والدخن وقصب السكر والبطيخ والباذنجان والقطن والجوز والبن والبرتقال والبلح والليمون والتفاح والمشمش والدراق والتين والعنب والزيتون والزمان كانت تزرع في القرون الوسطى ما عدا المانجو والبطاطا والبندورة .

تبدأ الزراعة عند العرب في حضارة جنوب الجزيرة العربية وتعود كثافة السكان قديماً في هذه المنطقة الى اختراع الاسمنت الذي يحتمل ان يكون اخترعه اليمنيون ونقلوه الى فينيقيا وسورية . وكان الاسمنت يستعمل في انشاء خزانات المياه التي كان يعتمد عليها كثيراً في جنوب الجزيرة العربية ، كما يرجع العرب الى حاجة بالخزانات في انشاء السدود التي لعبت دوراً هاماً في السقاية والتي لاتزال آثارها قائمة حتى اليوم ، وفي شمال الجزيرة العربية كان العرب الانباط يعتمدون كذلك على تخزين المياه في خزانات ضخمة .

وقد وجد المسلمون بعد انتشارهم في البلاد التي فتحوها وسائل زراعية متطورة كانت تدر على اصحابها محصولاً وفيراً . وقد استمروا في اتباع نظام السقاية في سورية الى جانب الاستفادة من فيضان النيل في مصر .

وفي شمال غرب افريقيا ادى وجود بني هلال وبني سليم في القرن الحادي عشر الى تدمير المنشآت الزراعية الرومانية الاسلامية التي كانت قائمة في ذلك العصر . وتعود خلفية

تاريخ هاتين القبيلتين الى تمركزهما في مصر اكثر من مائة عام كانتا خلالها مثلا للفوضى والضراوة ، وقد نجح الخليفة الفاطمي المستنصر في تهجيرهم الى شمال غرب افريقيا ليكونوا شوكة في جنب واليه المعز بن باديس . وقد ادت هجرتهم غير المتوقعة الى تدمير المرافق الحضارية في طريقهم مما جعل الزراعة تتأخر عدة قرون في تونس .

تابع العرب استخدام عدد من التجهيزات الزراعية ، فقد استعملت وسائل متعددة لرفع المياه في القنوات والانهار : مسمار ارخميدس والشادوف اللذان يعتمدان على قوة العضلات البشرية، والساقية والتابوت اللذان يعتمدان على القوة الحيوانية ، وتتألف الساقية ـ التي لا تزال مستعملة ـ من عجلة عمودية محاطة بدلاء فخارية ، وتغطس في الماء الدلاء التي تكون في الاسفل، وتتصل هذه العجلة بعجلة اخرى على المحور نفسه ، وتتصلان معا بعجلة افقية اكبر يديرها الحيوان ، اما التابوت فهو مشابه للساقية وبدلا من الدلاء الفخارية يستخدم طوق الدولاب او اطار العجلة الاجوف.

اما الطاحونة الهوائية فترجع الى سيستان ، وكان لها شكل افقي،وهي مزودة بدعائم قائمة ولها اشرعة مثبتة على دعامةاخرى وكانت الطاحونة تستخدم لادارة الرحى في طحن الحبوب .

اهم الادوات الزراعية التي استخدمها العرب في العصور الوسطى هي : المحراث البدائي ، والرفش ذو الشفرات المثلثة، والجاروف والمنجل ، والشوكة ، والمدقة والمعزقة، والنورج الذي هو عبارة عن اطار مركب على احدى عشرة عجلة او اسطوانة يجرها الحيوان لدرس الحبوب .

كانت مساكن العمال الزراعيين تبنى من القرميد ، او من الحجر او البازلت ان توفرا وكان محتوى هذه المساكن يتألف من اثاث بسيط وادوات مطبخ .

لقد انصب اهتمام الاسلام على المدن ، وجاءت رفاهية القرويين في المرتبة الثانية . ويمكن اعتبار العرب كمستنبطين لعلم

النبات ان كنا نعني بذلك تنمية النبات في الحدائق باجراء التجارب عليه ومن ثم محاولة تحسين نوعه .

وقد ظهر عدد من المهندسين الزراعيين في اسبانيا كانت تحت تصرفهم حدائق يجرون فيها تجارب على النباتات المحلية والاجنبية ، او يحاولون تطعيم النباتات ، او تنمية انواع جديدة من الفواكة والازهار وكانت اول حديقة لدراسة النبات في طليطلة في القرن الحادي عشر ، ثم تبعها عدة حدائق مماثلة في اشبيليه ، بينما لم يسمع باي حديقة لدراسة النبات في اوروبا حتى عام ١٥٤٥ في بادوفا الايطالية .

قام العرب في القرون الوسطى باصدار الدراسات الهامة في موضوعات الزراعة وفن زراعة الاشجار وازهار الزينة ، ودراسات حول ادارة الاراضي الزراعية .

وكان اول عمل من هذا النوع كتاب «الفلاحة النبطية» لابن وحشية ، الذي ظهر عام ٩٠٤م ، الا انه من غير المعتقد ان تكون مصادر هذا الكتاب من النبطيين ، ومما اساء الى قيمته العلمية تضمينه موضوعات خرافية . وقد خلت الكتب التي تلته من ذلك وسجلت الكثير من الملاحظات الشخصية والتجارب العملية .

وفي اسبانيا ظهر عدد كبير من الكتب التي تعنى بالزراعة، وروي أن كتابين منهما ترجما الى الاسبانية في القرون الوسطى. واول كتاب مطول عن الزراعة كان « كتاب الفلاحة » للاندلسي أبي زكريا يحيى بن محمد بن العوام في القرن الثاني عشر وهذا الكتاب كان بمثابة خلاصة لكل ما كتب قبله عن الزراعة .

هذه الدراسات العربية تضمنت موضوعات متعددة مثلا: مختلف انواع التربة، السماد، الادوات الزراعية ، الري، التقليم ، التطعيم ، طرق حفظ الفاكهة ، تربية النحل، العناية بالدواجن ، العناية بالاشجار المثمرة ، والكثير من التجارب المعقدة . يقول ابن العوام، على سبيل المثال ــ عن زراعة الورد (٨) : « يتنوع لون الورد تنوعا

(٨) ليس النص الحرفي كما اورده ابن العوام وانما نقلا عن الانكليزية .

كبيرا فقد يكون احمر او ابيض او اصفر او ازرق فاتح ، او ازرق فاتح في الورق واصفر من الداخل . ان شجر الورد يحب الارض المنبسطة اذ له صلة قرابة بالعليق ، ويحب ايضا الارض الرملية حيث يكتسب منها عبيرا نفاذا . كما يمكن تكثيره من جـذوره بوساطة القطع ويساعد في اسراع نموه بعض الجرف الخفيف من حوله وتبدأ معظم الورود بالبراعم في نيسان . لقد زرعت اشجار الورد على ضفاف القنوات وتم نموها بنجاح ، ويقال ان تطعيم شجرة الورد جيدا بشجرة التفاح يجعلها تنموبشكل افضل، اما اذا طعمت بشجرة اللوز فيصبح وردها اكبر من المعتاد » .

يظهر مما تقدم ان ابن العوام عرف تطور الورد الازرق عن طريق المسلمين . وهذا التطور لم يعرف في انكلترا الا بعد الحرب العالمية الثانية .

هذا البحث يظهر بعض الاشياء الرائعة جدا في كتب العرب الزراعية . ان هذه المصادر في تاريخ الزراعة لم تدرس كثيرا في الغرب . ولكن عندما لقيت العناية التي تستحقها ، فان المرء يجد ان اسهام العرب في ميدان الزراعة كان عظيما جدا .

التقنيـة :

ورث المسلمون تقنية الاقدمين ولم يدخلوا عليهـا اية اضافات على الرغم من انهم قاموا ببعض التقـدم فـي القرون الوسطى .

واذا نحن اخذنا التقنية بمعناها الواسع فسيتوجب علينا ان ندرس التقنية المدنية التي هي عنصر هام من عناصر الحضارة الاسلامية ، ويشهد على هذه الحقيقة الكثير من المدن التي انشئت في زمن المسلمين كالكوفة والبصرة وواسط والموصل وبغـداد والقاهرة والقيروان والمهدية والجزائر ووهران وفاس ومراكـش وغيرها .

ولقد اخذ المسلمون بتخطيط الاقدمين في بناء المدن : طريق عريض يشطر المدينة وشوارع صغيرة تتفرع منـه الى الجانـب الايمن. وفي مركز المدينة يقوم الجامع حيث تتجمع حوله الاسواق المتناثرة ، وهذه الاسواق كانت تتألف ـ تماما كما في العالم القديم وفي اوروبا في القرون الوسطى ـ من عدة شوارع جانبية لعرض البضائع والصناعات اليدوية المتنوعة . اما الحوانيت فكانت اشبه بالعلب رفع احد جوانبها لتسهيل عملية العرض للمشتري. وغالبا ما كانت هذه الحوانيت تغلق بواسطة مصراعين علوي وسفلـي. فالعلوي كان يفتح ليشكل مظلة للحانوت ، والسفلي يفتح عـلى الارض لعرض البضائع او الجلوس عليه ، ويتم اغلاق الحانوت برد البابين على بعضهما . ولا تزال هذه الاشكال من الحوانيت قائمة في مدينة «موستار» اليوغوسلافية التي حكمها المسلمون .

كانت المدن التجارية الهامة تزود بمستودعـات لبضائـع التجار ، وتعرف بالخانات او الفنادق. وكانت هذه الخانات تتألف من باحة مستطيلة يحيط بها بنــاء . ويضـم القسم الارضـي مستودعات تقوم فوقها غرف لاستيعاب التجار النزلاء . ولضرورة الامن كان للفندق مدخل واحد فقط .

كان في كثير من مدن المسلمين حمامات عامة لها اهميتهـا الصحية والاجتماعية . وهذه الحمامات توارثهـا الناس عـن الاقدمين بلا تعديل .

اما توزيع المياه العامة فكان يتم بعدة اشكـال : فأحيانـا تستخدم الاقنية القديمة لجر المياه ، وفي الفسطاط كانت الميـاه توزع في اوان تحمل على ظهور الحمير او الجمال . وفي اشبيليه انشأ الموحدون اقنية جديدة لجر المياه .

غالبا ما كانت الابنية القديمة تستخدم كمقالع احجار ومواد بناء للابنية الحديثة، وفيما عدا ذلك كانت مواد البناء الاساسية هي الاجر . وكان يستخدم الملاط بانواع كثيرة : الفخار والجير، ثم الرمل والجير، او مزيج من القرميد والجير. وكانت تستخدم

السلالم من الحبال والخشب بالاضافة الى السقالات (الحمالات) الخشبية في عملية البناء .
وفي مجال التمديدات الصحية كانت البواليع لتصريف مياه المجاري . واحيانا كان متعهد يتولى جمع القاذورات ليبيعها الى مزارعين في اطراف المدينة .
اما التهوية فكان لها عدة اشكال : منها النوافير التي تستخدم في تلطيف الهواء في باحات بيوت الميسورين وفي مصر هناك الملقف الذي هو كوة في السقف تواجه الشمال وتستخدم للتهوية صيفا . وفي البلاد العربية شرقا كانت الابراج الهوائية تؤدي الغرض نفسه .
لم يكن للمنازل ملامح محدودة من الخارج ، واذا كان صاحب الدار ميسورا فان داره تتصف بالذوق والاناقة . اما اثاث البيت بالمعنى الغربي فكان نادرا عدا خزانات للثياب او لادوات المنزل واشهر ما في تلك المنازل السجاد والمنسوجات ، وادوات المطبخ كانت تعتمد على الوضع المالي لصاحب الدار فتكون من الذهب او الفضة او البورسلان او الفخار او الخشب .
والاضاءة كانت تتم بالسراج الفخاري او المصباح النحاسي ومن المصابيح ما كان يصنع من الزجاج . وترى منها نماذج رائعة صنعت في مصر في عهد المماليك . اما في الجوامع فكانت تستخدم الثريات ، وكانت التدفئة تعتمد على الصوفان .
كانت المدينة العربية في القرون الوسطى تبدو من الخارج مجموعة من المنازل المتفاوتة في الارتفاع تفصل بينها الازقة، وكان الشارع العريض فيها هو ذلك المؤدي الى ابواب المدينة فقط . وكانت المدن تبنى على ضفتي النهر كما هو الحال في بغداد واشبيلية والقاهرة . والوسيلة الوحيدة لربط طرفي المدينة ببعضهما مجموعة من الزوارق المتصلة بسلاسل . وفي كثير من الاحيان استخدمت القوارب لنقل الناس بين طرفي المدينة .
تلاشت جميع انواع النقل في البلدان التي حكمها العرب

واستعيض عنها بالجمال في العصور الوسطى وكان ذلك نتيجة لرداءة الطرقات والجمل خير بديل في هذه الحال وهو اكثر راحة للمسافرين من اية وسيلة اخرى، وكانت النساء والمرضى يسافرون في الهوادج على ظهور الجمال او في محفات متصلة بالجمال والبغال .

ازدهرت الملاحة زمن العرب ، ولكن تقنية صناعة السفن لم تقدم الشيء الكثير للعالم القديم . واول الاساطيل الاسلامية في المتوسط بناها السوريون والاقباط الذين اتبعوا التصميمات البيزنطية المختلفة عن السفن العربية في البحر الاحمر والمحيط الهندي . وكانت تصنع هذه السفن من الواح خشبية والياف جوز الهند ، وتصنع بلا دعائم . اما السفن الاسلامية في البحر المتوسط فكانت تصنع بدعائم ولها سطح مقعر ، وكانت الالواح الخشبية يتصل بعضها ببعض . والسفينة الاسلامية النموذجية هي المسماة «الدرمند» ولها دفتان جانبيتان واشرعة ثلاثية الشكل . ولها (برطوز) امامي واخر في الوسط .

الا ان مرتبة التقنية الاسلامية في صناعة السفن كانت اقل من مثيلتها البيزنطية . فقد كانت سفنهم ابطأ واقل متانة وقليلة المناورة ويستدل على ذلك من ان العرب فقدوا اربعة امثال ما فقده البيزنطيون من السفن في فترة ثلاثة قرون في البحر المتوسط بسبب العواصف او الصدام مع الاعداء . ومرد ذلك الى قلة خبرة البحارة العرب من جهة ، ومن جهة اخرى فان اللوم الاكبر يقع على نوعية الخشب الذي استعمله بناة السفن وكان ادنى نوعا من خشب سفن البيزنطيين .

وعلى كل حال فان صناعة السفن ادت الى اختفاء الغابات من غرب اسيا وشمال افريقيا . وفي ستة الاف السنة الماضية انخفضت نسبة الغابات في منطقة المتوسط من مليون ميل مربع الى عشر هذه المساحة .

وكان من اهم صناعة المسلمين في القرون الوسطى الجلد

والورق والسجاد ، فقد كانت الجزيرة العربية وبخاصة اليمن تعنى بصناعة الجلد ، وكان يستخدم في صناعة الحبال والاحذية والسروج والخيم والدلاء . اما دباغة الجلد وتزيينه فكانت من أهم صناعات قرطبة .

قبل صناعة الورق كان الرق والبردي يستعملان للكتابة ، كان البردي ينتج في مصر ، وكان سعر اللفافة الواحدة يساوي الاجرة السنوية لمساحة فدان من الارض المزروعة . اما الرق فكان اغلى من البردي . الا ان الجيد في هذين النوعين انهما قابلان للغسيل والاستخدام من جديد . وهذا ما جعل هذين الصنفين لا يستخدمان الا في الكتابة الجدية .

اخترع الورق في الصين من الكتان او القنب ، ويقول العرب انهم تعلموا صناعته من اسير اخذوه في معركة « تلاس » عام ٧٥١ في اواسط اسيا . وبدأ اول مصنع للورق في بغداد عام ٧٩٥ . وقد وسع الورق افاق الثقافة عند العرب وتوسعت صناعة الكتب وعملية بيعها وادى ذلك الى اتساع نطاق العلم . ولقد غدت كل من شاطبة وبلنسيه في اسبانيا من اهم مراكز صناعة الورق ومنهما ومن صقلية انتقلت هذه الصناعة الى اوروبا ، واقدم مخطوط عربي على الورق هو الكتاب المعروف «بغريب الحديث» لابي عبيد القاسم بن سلام عام ٨٦٦ ولا يزال محفوظا في جامعة ليدن . واول مخطوط اوروبي يعود عهده الى عام ١٠٩٠ ومصدره صقلية .

اما اقدم سجادة يدوية فمصدرها اسيا وتعود الى القرن الخامس ق.م . وتدعى «البازريق» Pasyryk واقدم نموذج للسجاد من صنع اسلامي يعود الى القرن الثالث عشر . ولم يطرأ على هذا الفن اي تعديل منذ اقدم العصور . وعلى الرغم من شهرة ايران قديما وحديثا بصناعة السجاد فان العرب صنعوا ولايزالون يصنعون روائع السجاد في القيروان ومراكش على سبيل المثال اما في مجال الساعات فقد كان الكثير منها يعمل على الرمل .

مناجم الذهب كان يوجد كثير منها في جنوب مصر والجزيرة العربية وكان المنقبون عنه يعملون ليلا في ضياء القمر علهم يجدون ما يشع على ضوئه . فاذا لمع شيء في ضوء القمر كانت البقعة تحفر وتنقل الاتربة الى منبع ماء حيث تغسل في وعاء من الخشب اما المعادن الخام التي يستخرج منها الزئبق فكانت في Almaden «المادن» ـ وتعني ببساطة «المعدن» ـ وتوجد في اسبانيا. وكانت هذه الخامات تسخن في افران للحصول على الزئبق . كان الملح يستخرج في حضرموت وشمال افريقيا . وكانت مصر والسودان تنتجان الشب . وفي غرب مصر كان ينتج النطرون المستخدم في جلاء النحاس وفي انتاج الخيوط والكتان وتحضير الجلود .

كان ينقب عن الحجارة الكريمة في كثير من المناطق : الزمرد في مصر العليا والفيروز في فرغانة والينبع والعقيق في اسبانيا واليمن . اما اللؤلؤ فكان يستخرج في مناطق الخليج وشواطىء الحبشة ، والمرجان يحصل عليه من شواطىء شمال افريقيا صقلية وسردينيا بواسطة الة مصنوعة من القنب ومزودة بجيوب ، وهي تصطاد المرجان وتخرجه الى سطح الماء .

جاءت صناعة الفولاذ من الهند واشتهرت بها دمشق وطليطلة حيث كانت تصنع منه الاشياء الصغيرة والاسلحة .

كتبت في القرون الوسطى كتب عديدة حول موضوعات فنية اهمها كتاب (في معرفة الحيل الهندسية) الفه الجزري عام ١٢٠٥ـ١٢٠٦ . وتعود قلة اسهام العرب في التقدم التقني في القرون الوسطى الى افتقارهم الى الخشب والقوى المائية، وهذا احد الاسباب البعيدة التي ادت الى اخفاق العرب في ايقاف قوة الغرب المتزايدة .

العناية بالمرضى :

ربما لقي المرضى في القرون الوسطى عناية طبية في بلاد

المسلمين اكثر من اي مكان اخر في العالم . وكان ذلك نتيجة للمعرفة الطبية الموجودة وقتذاك . والتي استوحيت من الاغريق، كما كانت تلك العناية نتيجة للمكانة التي يحتلها الطبيب العربي، ولتطور المؤسسات الطبية كالمستشفيات .

لقد لخص (سنجر) (٩) في كتابه كل ما اعتمد عليه العرب في طبهم الذي اقتبسوه عن الاغريق على النحو التالي : تعتمد حالة الجسم الصحية على توزيع العناصر الاربعة وهي التراب والهواء والنار والماء وتمازجها وخصائصها الاساسية ، الجفاف والحرارة والبرودة والرطوبة ، هذا يشكل الجسم ومقوماته . واليها تعود السوائل الاساسية كالدم والبلغم والصفراء والسوداء. اما ضروريات الحياة فهي الحرارة الداخلية للجسم التي يسبب فقدانها الوفاة، والروح التي تدور في الاوعية . هذه الامور قد تبدو لنا خيالية لكن علينا ان نتذكر ان النصف الاول من القرن التاسع عشر ضعف امام طب الامزجة الذي دام مدة أثنين وعشرين قرنا قبل ان ينتهي امره .

اقتبس العرب عن الاغريق النظريات الطبية التي لا تشكل قاعدة ثابتة ومرضية لعلاج المرضى . الا ان الاطباء المسلمين ركزوا على الامور العملية بدلا من النظرية في العلاج الطبي. وقام العرب بكثير من الاكتشافات الطبية واحرزوا تقدما كبيرا في فن الاستطباب .

لكن اهم عامل وقف حائلا دون معرفة التشريح كان العامل الديني الذي يحرم تشريح الجسم (هذا التحريم كان قائما ايضا في اوروبا في العصور الوسطى وتؤيده الكنيسة).

كانت الجراحة العربية تتألف بشكل اساسي من الكي

---

(٩)
C. Singer (Medicine) in the legacy of Greece ED. by R.W. Livingstone, oxford, 1921, P. 218

ومعالجة كسور العظام وخلعها ، والبتر وازالة حصوة المرارة وفتح الخراجات والقبالة واشهر الجراحين العرب ابو القاسم خلف بن عباس الزهراوي المتوفي عام ١٠١٣ في قرطبة . وكتابه(التصريف لمن عجز عن التأليف) يضم قسما عن الجراحة يعتبر اعظم اسهام في هذا الموضوع في القرون الوسطى .

كانت وسائل التخدير معروفة نوعا ما لدى العرب . الا ان تفاصيل استخدام المواد المخدرة وقتئذ امر غامض الان .

والى العرب يعود اختـــراع الادوات الجراحـيـة كخلال الاستسقاء . كان فحص المريض يتم بشكل كامل، وان العالم مدين للعرب بوصف العديد من الحالات الطبية والامراض. لقد كـــان ابو بكر محمد بن زكريا الرازي المتوفي عام ٩٢٥ اول طبيب يميز بين مرضي الجدري والحصبة وذلك في كتابه (في الحصبـــة والجدري) وان اشهر اعماله كانت اوسع مجالا من ذلك ، فكتابه (الحاوي) يعتبر موسوعة طبية يلخص فيه معارف الاغريق والفرس والهنود في الطب ويضيف بعدها ملاحظاته الشخصية .

اسهم العرب كثيرا في علم طب العيون وصناعة الادويـة ، واشهر طبيبي عيون هما المسيحي علي بن عيسى من بغداد والمسلم عمار الموصلي (كلاهما في النصف الاول من القرن الحادي عشر). وقد الف كل منهما الكتب حول الطب ووسعا دائرة المعرفة الطبية اليونانية واضافا التعليمات العديدة حول اجراء العمليات كمـــا اضافا ملاحظاتهما الشخصية .

واشهر كتاب في صناعة الادوية والصيدلة هو كتاب (الجامع في الادوية المفردة) لعبدالله بن احمد بن البيطار المتوفي عام١٢٤٨ ويشمل هذا الكتاب كل علوم ديوسقوريدس وجالينوس الطبيـة ويقطع بعدها شوطا كبيرا . ويضم الكتاب ١٤٠٠ موضوع منهـــا ٣٠٠ موضوع كانت معروفة في زمانه . وقد اعتمد ابن البيطـــار في وضع كتابه على الاختبارات التي اجراها على النباتات التـــي جمعها في اسبانيا وسورية . وقيمة هذا الكتاب ليســت فقط

كونه تاريخا في علم الصيدلة، بل هو كذلك من اهم الكتب في علم النبات في اللغة العربية .

كان لدى الاطباء العرب موهبة نظرية وعملية في تصنيف علوم الطب وتقديم نتائجهم في كتاب عملي واضح للطلاب وللاطباء معا. واشهر الكتب الطبية كتاب (القانون في الطب) لابي علي الحسين بن سينا (٩٨٠-١٠٣٧) وقد درس هذا الكتاب الطبي في اوروبا بعد ترجمته الى اللاتينية .

غير ان اكبر انجاز طبي للعرب يتجلى في انشاء المستشفيات وادارتهم اياها على اكمل وجه . واذا لم يكن للعرب فضل بناء اولى المستشفيات في التاريخ ، فان لهم فضل العناية بالمستشفيات الى درجة ان كثيرا من ملامح هذه المستشفيات تبدو واضحة في مستشفياتهم الحديثة حاليا .

اول مستشفى اسسه الخليفة هارون الرشيد في مطلع القرن التاسع في بغداد . كما بنى المأمون (٨١٣-٨٣٣) دورا للمكفوفين واخرى للنساء العواجز . وانشأ دورا للايتام في المدن الكبرى . ويقلد العرب اليوم هذه الامثلة القديمة .

يقوم المستشفى العربي القديم على الشكل التالي : جناحان احدهما للذكور والاخر للاناث . وكل منهما يضم اقساما بحسب تصنيف الامراض . وكانت المستشفيات تستقبل نزلاءها من المرضى ، والمعالجين الذين يزودون بالدواء من صيدلية المستشفى ويعودون الى منازلهم .

كان رئيس المستشفى رجلا عاديا . وكان يوكل عنه ـ للضرورة العملية ـ موظفا اخر وهذا بدوره يعاونه رؤساء العيادات الطبية العامة والعيادات الطبية العينية والعيادات الجراحية . اما المشرف والقوام فهما مساعدان ثانويان يجبيان الاموال من المرضى .وكانت المستشفيات تستخدم ايضا مكانا لتدريس الطب . وكانت هذه المستشفيات تخضع لنظام التفتيش المالي والاداري .

. اشهر المستشفيات في القرن الثالث عشر هو (مستشفى المنصوري) في القاهرة الذي اسسه السلطان قلاوون من المماليك (١٢٧٩ـ١٢٩٠) ولا يزال هذا المستشفى قائما حتى اليوم ويستخدم في طب العيون وهو اقدم مستشفى في مصر . وكان دخل قلاوون من وقفه مبلغ مليون درهم في العام . ويعود الباعث على انشائه الى ان السلطان كان قد عولج في مستشفى (نوري) في دمشق الذي انشأه نور الدين الزنكي عام ١١٥٤ من مرض القولنج . وقد لاحظ العناية التي يتلقاها نزلاء المستشفى فاقسم ان يؤسس مثيله في القاهرة .

كان مستشفى المنصوري يضم مدرسة وجامعا. وله عدة اقسام لعدة امراض كالحمى وامراض العين والزحار، وكانت فيه صيدلية وحمامات ومطابخ ومستودعات . وكان رئيس الاطباء يلقي محاضراته الطبية في قاعة محاضرات خاصة . وكان كلا الجنسين يعمل فيه ويسمح بدخوله للجنسين ايضا.

اما في سورية فقد اسس سيف الدين ابو الحسن علي ابن يوسف بن ابي الفوارس ابن موساق القيمري الكندي مستشفى يدعى (مستشفى القيمري او الصالحية) عام ١٢٥٦ في الصالحية احدى ضواحي دمشق . ووقف عليه عائداته من عدد من الاراضي والبساتين والدكاكين والمطاحن . وكان يدفع لكل طبيب في المستشفى ٦٠ او ٧٠ درهما في الشهر ونصف كيس من الحنطة. اما المشرف فكان يدفع له ٤٠ درهما ونصف كيس حنطة. ويدفع للكحال ٤٥ درهما ونصف كيس حنطة . والرجال الثلاثة الذين يقومون على خدمة المرضى الذكور يدفع لكل منهم ١٣ درهما و١/٦ كيس من الحنطة . اما النساء اللواتي يعنين بالمريضات فيدفع لكل منهن عشرة دراهم و ١/٦ كيس من الحنطة . وكان يدفع للصيدلي ومعونه ٢٦ درهما لصناعة الادوية و ١/٣ كيس حنطة. اما كاتب المشرف والاداريون فيدفع لهم ٦٠ درهما وكيس من الحنطة واخر من الشعير . والامام كان يدفع له ٤٠ درهما وثلث

كيس حنطة . والبنّاء الذي يعتنـــي ببناء المستشفى كان يدفع له ١٣ درهمــا و١/٦ كيس حنطــة . وكان يدفع لمؤذن الجامع ٣٥ درهمــا من الاوقاف كل شهر .

هذه الامثلة تعطي فكرة واضحة عن مدى اهتمام المسلمين وجديتهم في العناية بالمرضى .

الفصل الرابع

الحياة الفكرية والفنية عند العرب

علـــوم العرب وعلوم العجـــم

لم تكن لدى العرب قبل الاسلام ايـة معرفـــة علميـــة او فلسفية ، وكانت كلمة (علم) تعني ببساطة (معرفة) . الا ان عرب الجاهلية اظهروا فهما ممهدا للعلوم ومقدرة على القيام بملاحظـــات مفصلة ودقيقة ، ووصف للحيوان والمعادن ، وبعض ظواهر الطبيعة الاخرى ، كالمناخ مثلا . فمفرداتهم الوافرة ومصطلحاتهم الكثيرة التي كانوا يستخدمونها لتمييز اختلافات بسيطة بين مجموعات متماثلة من الاشيـــاء او الحيوانات ، لمـــا يشهد بقدرتـــهم عـــلى الملاحظة .

وبمجيء الاسلام استقطب القرآن والحديث الدراســـات المطولة . وكانت هناك من جهة ثانية (علوم العجم) التـــي اتسعت نتيجة الاحتكاك بالفكر الاغريقي وببعض الشعوب الشرقية القديمة. وعلى الرغم من ان اصل علوم العرب هو القرآن والحديث ، فـــان

دائرة المعرفة العلمية بدأت تتسع . وقد مهدت دراسة لغة القرآن لنشوء علم قواعد النحو وتصنيف القواميس ، وجمع بعض اشعار القدماء ودراستها لتلقي الضوء على شرح القرآن . كما ساعدت دراسة الحديث على نشوء كتابة السيرة . وقد تحول اهتمام عرب الجاهلية بالانساب الى اهتمام بسلالة النبي وصحبه.

وبما ان علوم العرب تشمل الشعر والبلاغة فقد اعتبر هذان الموضوعان ملحقين بدراسة القرآن . والى جانب ذلك فان القران والحديث كانا مصدر الفقه الاسلامي وعلم الكلام الذي يهتم بطبيعة الله والقدر والامور الاخرى والشاهد على ذلك كله .

لقد ادى الاحتكاك بالفكر الاغريقي والامم الشرقية القديمة الى نشوء علم الفلسفة والرياضيات والموسيقى والطب والفيزياء والكيمياء وعلم النبات والتنجيم ، وعلم الفلك والجغرافية . كما اعتبر السحر الى ذلك ضربا من العلوم .

اضحت علوم العرب وعلوم العجم تعتبر قسمين اساسين للمعرفة :

المعرفة الدينية التي مصدرها النبي والتي لها مجال واحد في المحاكمة العقلية للوصول الى التطبيق العملي. والمعرفة الدنيوية التي يكتسبها المرء بمحاكمته الذهنية المجردة .

ان هذا الجزء يبحث في العلوم العربية التي اقتبسها العرب من الاعاجم او استوحوها . الا انهم زادوا عليها وطوروها الى ابعد مما وصلتهم . فهي لذلك تعود الى العرب كلية .

كان علم المنطق الاغريقي الذي استخدمه المتكلمون عاملاً هاما. بينما تأثر علم النحو عند علماء البصرة الى حد ما بمنطق ارسطو عن طريق مدرسة جنديسابور . ولكن علوم العرب في البصريات والجبر والكيمياء اهم بكثير مما جاء به الاغريق او اية امة اخرى. حتى ان كلمة جبر او كيمياء هما عربيتان .

لقد بدا تقسيم المعرفة الى مجموعتين واضحا في مجال الفلسفة والعلوم الدينية . ويمكن تقسيم المفكرين المسلمين في

القرون الوسطى الى فلاسفة والى علماء كلام وهم الذين يرجعون الى علوم ارسطو او افلاطون اوتلاميذ افلاطون . بينما لم يستطع الفقهاء المدرسيون الذين رفضوا علم هؤلاء ان يتخلصوا من تأثيرهم في كثير من الاحيان .

ا ـ علوم العرب

١ ـ العلوم الدينية :

يمكن القول ان علم الكلام بدأ بعد موت النبي محمد بسبعين او ثمانين سنة وقد دفع الى نشوء هذا العلم الرغبة في فهم عقيدة القرآن .

ان الجدل الديني الذي كان قائما بين المسيحيين ، وكذلك الجدل الديني الذي كان قائما بين المجوس او المانويين ، كان باعثا على وجود علم الكلام عند المسلمين . وقد نشأ نتيجة لعلم الكلام كثير من الطوائف الدينية في الاسلام .

في الفترة ما بين القرنين الثامن والعاشر للميلاد ظهر اعظم مذهب في الاسلام وهو مذهب (المعتزلة) (١) الذي يعتبر مدرسة فلسفية اسسها واصل بن عطاء (المتوفي عام٧٤٨) وكان قد اعتزل مذهب الحسن البصري (المتوفي عام ٧٢٨) .

رفض المعتزلة فكرة صفات الله وقالوا بان الله يعرف من خلال الجوهر وليس من خلال صفاته . وكانوا يدرسون الناس ان القرآن خلق في حينه وليست له صفة الازلية كالله ، كما يعتقد اهل السنة ويؤكدون . كما انكر المعتزلة ان الناس مسيرون ، بل ذهبوا الى القول ان الله ليس خالقا للشر . ورأوا ان ما يعانيه الناس من الآم هو امر يستحقونه ، وان لم يكن ذلك فلا بد له من تعويض في الدنيا والاخرة . وتدل هذه الاراء على ان المعتزلة

---

(١) يقال انها جاءت من قول الحسن البصري (اعتزلنا واصل) .

تاثروا بالمجوسية التي تنكر العدالة المطلقة للقدرة الالهية نظـراً لوجود الشر في العالم . وهم يعتقدون ايضا ان المسلم اذا ارتكب خطيئة فظيعة وتوفي من غير ان يندم عليها فسوف يلعـن الى الابد . وينكرون ان الذين يحلون في الجنة يرون وجه الله كما يعتقد اهل السنة .

كان معظم المعتزلة يعتقدون ان العالم يتكون من ذرات بسيطة وينكرون مذهب السببية في العالم . فالكون عندهم يتألف مـن ذرات مادة ، وذرات الزمن والفضاء ، وذرات الحركة ، وذرات اللون ولا تستطيع اي من هذه الذرات ان تعمر اكثر مـن ذرات الزمن ، ويعتقدون ان الله يخلق كل لحظة ذرة جديدة لتأخذ مكان ذرة توقفت عن الوجود . وبناء على ذلك فكل شيء في الحياة منقطع وغير مستمر . ان المعتزلة استخدموا جدلا استخدمه بعدهم الفيلسوف الانكليزي ديفيد هيوم (١٧١١-١٧٧٦) .

ويقول هذا الجدل بانعدام العلاقة بين السبب والمسبب ، وذلك لان كل حادث يتبعه حادث اخر . وهكذا فالنار اذا التقت بالخشب يحدث الاحتراق عادة . الا انهم يرفضون هذه الحقيقة ويقولون ان من عادة النار احداث الاحتراق وليس من طبيعتها احداث اثر الاشتعال .

وصل المعتزلة الى اوج عزهم اثناء حكم المأمون (٨١٣-٨٣٣) والمعتصم (٨٣٣-٨٤٢) والواثق (٨٤٢-٨٤٧) ولكن الخليفة المتوكل قلب لهم ظهر المجن وعانوا في عهده الاضطهاد الذي كانـوا اذاقوه خصومهم سابقا .

تلاشت سطوة المعتزلة في القرن العاشر بنشـوء مذهب الاشعرية الذي اسسه ابو الحسن علي الاشعري (المتوفي عام٩٣٣) . وقد كان معتزليا لمدة اربعين عاما، واخذ عن المعتزلة العقيدة الذرية ، الا انه واتباعه كانوا اكثر انتظاما في عدم اخذهم بالقول: ان الافعال الانسانية تسبب سلسلة من المسببات والاسباب. وكان الاشاعرة يعتقدون – على نقيض المعتزلة – ان العامل الاساسي

في افعال البشر ليس الانسان بل الله.. والبديل للقوة التي يمتلك بها الانسان افعاله هو قوة « الاكتساب » وهذا معناه انه، مع العلم ان الله يخلق افعال الناس، فان لدى الانسان مقدرة اكتساب هذه الافعال . وهذا الاكتساب هو ايضا يخلقه الله .

يتهم المعتزلة الاشاعرة بانه ليس من العدل تحميل الانسان مسؤولية افعاله ما دامت هذه الافعال من خلق الله وليست من ارادة الانسان . ولكن الاشاعرة رفضوا هذه التهمة بانكارهم ان الخيرة والشر هما مستويان مستقلان عن الله . بل قالوا : ان ما هو خير وما هو شر انما تقرره مشيئة الله . وهذا يتفق مع رأي الشاعر الانكليزي الكسندر بوب(١٦٨٨–١٧٤٤) Alexander Pope الذي يقول «كل ما يكون فهو حق » .

وقد قبلت اراء الاشاعرة في نهاية المطاف على انها التفسير الصحيح للعلوم الدينية الاسلامية من خلال اعمال ابي حامد الغزالي (١٠٥٨–١١١١) .

لم يساعد الغزالي في تثبيت دعائم مذهب الاشاعرة فحسب وانما جاء بالتصوف في مجال الدراسات الدينية الاسلامية. ونتيجة لازمة فكرية تحول الغزالي من معلم للديانة الاسلامية الى متصوف . وبعد أن درس الفلاسفة والفقهاء والمتكلمين خلص الى ان الحقيقة المثلى تدرك من خلال الوحي الصوفي .

وجمع اراءه في كتابيه (احياء علوم الدين) و(تهافت الفلاسفة) وكتب اخرى .

وهو يرفض الاعتقاد بان العقل يدرك المطلق والابدي ويأخذ بان العقل يجب ان يجد نفسه بما هو فان ونسبي .

وقد انكر الغزالي – على نقيض الفلاسفة الارسطوطاليين – ان العالم وجد منذ الازل . وان معرفة الله امتدت لتشمل الكليات. وبما ان الله هو المسبب الاول فانه عالم بادق التفاصيل عن العالم الذي خلقه – كما يعتقد الغزالي – .

تتجلى اهمية الغزالي في اخلاقياته وربطه التقوى الدينية

الحقة بالفلسفة . وهو قد عمق المفهومات الدينية الاسلامية واعطى التصوف طابع الرجحان .

بعد مائتي عام من الغزالي ظهر اخر الائمة واعظمهم في العصور الوسطى للاسلام وهو تقي‌الدين احمد بن تيمية الدمشقي (١٢٦٣–١٣٢٨). ولم يكن من جماعة المتكلمين او فيلسوفا ولكنه قام بحملة على الارسطوطاليين وفلسفتهم في كتابه (الرد على المناطقة) . وقد اشار الى ان النعوت المستخدمة في نقل المعرفة بالاشياء الموصوفة هي محدودة اصلا . ثم اشار الى عدم جدوى الايضاحات المنطقية لعلاقتها بالوجوديات . وذلك لان الايضاح يختص فقط بالكليات التي تملك حقيقة قائمة في العقل وفي مجال الفكر ، وليست قائمة في العالم خارج الفكر .

وتظهر قيمة ابن تيمية في كونه صلة فكرية بين العصور الوسطى والوقت الحاضر ، فبينما استنار هو بابن حنبل في زمانه فقد استنار بتعاليمه محمد بن عبد الوهاب في القرن الثامن عشر ومحمد عبده في القرن التاسع عشر .

كانت هذه الفلسفات تساير الدين الاسلامي كما كان الحال عند الغزالي ولكنها غالبا ما كانت تقف في صف المعارضة له. لقد ظهر في المجتمع الاسلامي منذ اقدم العصور الاسلامية ميل الى الروحانيات كالصوفية التي استمدت تسميتها من اعتياد اصحابها ارتداء الملابس الصوفية الخشنة .

نشأت الصوفية من حاجة هؤلاء الذين وجدوا ان الدين اذا كان تقليديا فان ذلك ليس كافيا لهم .

تعمقت جذور المفهومات الروحانية الاسلامية باتصال المسلمين بالفكر الاغريقي في بداية القرن التاسع . وكان للفلسفة الافلاطونية المحدثة كما وردت في الكتاب المسمى (الدين عند ارسطوطاليس) الذي ترجم الى العربية عن الاغريقية في منتصف القرن التاسع–كان لها الاثر الفعال في فلسفة المسلمين الروحانية.

وبينما كان الغزالي في كتاباته جسرا بين السنة في الاسلام

وبين المتصوفين ، فقد قام غيره من شارحي الصوفية أمثال محي الدين بن عربي (١١٦٥ــ١٢٤٠) بمعارضة السنة واظهر ميلا الى مذهب وحدة الوجود .

ادعى ابن عربي النبوة (٢) وتحدث عن وحدة جميع الاشياء بطريقة ضاع فيها التمييز بين الخالق والمخلوق . لقد استخدم المسلمون الروحانيون ، كأقرانهم المسيحيين ، الاستعارات والثمل العاطفي والحب الانساني ليصفوا التجربة الانسانية . الا ان هذه الاستعارات كانت منافية لما اكده القرآن من سيادة الله وتساميه .

تطورت بعض هذه المذاهب الصوفية في تأملاتها وشعائرها الدينية الى درجة استطاع معها افرادها ان يسيطروا على اجسامهم ويحفظوها من الاذى بطرق لم يستطع الغرب شرحها عن طريق المحللين النفسانيين او غيرهم . هذه الشعائر تتركز مثلا في ان يأخذ احدهم قضيبا حديديا حادا ويغرزه في جسده دون ان يسبب له اي اذى . ولا تزال هذه الشعائر تمارس . ومثل هذه الامور يهملها الغرب لعدم تمكن الاوروبيين من فهم او شرح الناحية الفزيولوجية فيها .

٢ ــ قواعد اللغة وتأليف المعاجم :

بدأت الدراسة العلمية للغة العربية بدراسة القرآن والحديث. ففي العصر العباسي لم تظهر فحسب اختلافات في اللغة العربية المتحدث بها انذاك وبين اللغة العربية المتحدث فيها في الحجاز ايام النبي محمد . بل ان اعدادا كبيرة من المسلمين الفرس ممن لغتهم الاصلية غير العربية وجدوا انفسهم في حاجة ماسة الى

(٢) عرضت لابن عربي حالات من الاشراق والرؤي الصوفية والاحلام التنبؤية. وقال بتوحد الخالق والمخلوق . وقال عباراته المشهورة « وكيف يكون مسجونا من حل الله في جسده » (المراجع) .

فهم تركيب العربية ليتسنى لهم فهم القرآن فهما كاملا والمشاركة الجماعية في الصلاة . ولهذا كان طبيعيا ان تبدأ دراسة العربية في العراق الذي يشكل وسطا جغرافيا بين العربية والفارسية ، وهكذا نشأت في البصرة والكوفة مراكز هامة لدراسة اللغة العربية وقد وضع ابو الاسود الدؤلي (المتوفي عام ٦٨٨) في العصر الاموي مبادىء النحو ، وكانت غايته من ذلك اتاحة الفرصة للمسلمين من غير العرب لفهم القرآن . وخلف ابا الاسود الخليل بن احمد الفراهيدي (٧١٨–٧٨٦) وهو من البصرة ايضا، وهو الذي وضع قواعد علم العروض ، وهو اول من وضع معجما عربيا سماه «العين» . اما تلميذه الفارسي سيبويه فقد الف اول كتاب في النحو العربي المدروس والمبوب سماه « كتاب سيبويه » وهو مرجع في النحو حتى يومنا هذا .

ان أسس النحو التي وضعها نحويو القرن الثامن لضبط الصحيح في اللغة باقية مستمرة حتى اليوم . وان النحو الذي يدرس اليوم في المدارس العربية انما هو نفسه الذي وضعت قواعده في القرن الثامن في العراق .

وقد تلا العمل الرائد للخليل في التأليف المعجمي اعمال مؤلفين معجميين كثر في ما بعد . واشهرهم ابو بكر محمد بن الحسن بن دريد (٨٣٧–٩٣٤) صاحب «الجمهرة» وصاحب « الصحاح في اللغة » . وابو الطاهر مجد الدين الفيروزابادي (١٣٢٩–١٤١٤) صاحب معجم «القاموس المحيط» .

٣ ـ الادب العربي :

ظهرت بدايات الادب العربي في اواخر القرن الخامس بظهور شعراء استخدموا الاوزان الشعرية المعقدة والاساليب الشعرية، وكان ذلك في الشمال الشرقي من الجزيرة العربية واطراف نهر الفرات . وقد اطلقت كلمة «قصيدة» على اللون الشعري الذي

أوجده هؤلاء الشعراء ، وهي قطعة شعرية مطولة تضم اكثر من موضوع .

وكانت موضوعات هذا الفن الادبي تهتم بوصف الصحراء وسكانها وقيمهم من الفضائل والشجاعة والشهامة وتغنى بالمغامرات العاطفية للشاعر وتجاربه وفخره بأفعاله الشخصية.

ومنذ اواسط القرن السادس يطرأ تغير كبير على الشعر العربي بدخول المديح كعنصر هام في القصيدة . وقد شجع ذلك ثراء الحكام اللخميين والغساسنة الذين اجتذبوا الشعراء الى بلاطهم فامتدحوا شجاعتهم وكرمهم. واستمر المديح فنا متعارفا عليه في الادب العربي ازمانا طويلة .

وبظهور الاسلام لم تعد اللغة والادب العربي وقفا على عرب الجزيرة بل اصبحا اداة تعبير لحضارات تشمل ثلاث قارات.

لقد ارتبط الادب خلال العصور الاولى للاسلام بالسلطة الحاكمة وبالمؤسسات الدينية . فلقد كان الادباء يدورون في فلك اولياء نعمتهم من الحكام والامراء مما كرس سلبية الادب العربي وحصر طاقاته في البلاط الحاكم .

ومن جهة ثانية فقد اثر الدين بشكل كبير في تقدم الادب العربي وازدهاره وادى الاهتمام بالقرآن الى قيام دراسات تهتم باللغة والادب اللذين يسهمان في فهم القرآن وتفسيره . اضف الى ذلك اضطرار العجم الذين دخلوا في الاسلام ان يدرسوا العربية كأداة لفهم القرآن ، وقد نتج عن ذلك انتشار اللغة العربية على نطاق واسع في بلدان خسر العرب سيطرتهم عليها فيما بعد.

ان القرآن الذي هو اعظم كتاب نثري في العربية ، قد ظهر بظهور النبي محمد . وهو كتاب يعتمد السجع وتتفاوت سوره طولا وقصرا . وقد ترك اثرا بعيدا في الادب العربي .

لم يلق الشعراء استحسانا من النبي محمد على وجه العموم. ولكن العصر الاموي شهد عودة المكانة المجيدة التي كانت للشعراء ايام اللخميين والغساسنة . وقد حرض الخلفاء الامويون ان

يستخدموا بلاغة الشعراء في التأثير على الناس دعما لسلطانهم.
ولم تعد الصحراء هي التي تحتضن الشعر ، بل انتقل الى الحجاز وسورية والعراق ودخل مع العرب المسلمين حياة الحضر بعد البداوة . واهم شعراء العصر الاموي : الاخطل (توفي ٧١٠) والفرزدق (توفي ٧٢٨) وجرير (توفي ٧٣٢) وكانوا من شعراء البلاط الاموي . وجدير بالذكر ان الاخطل المسيحي كان شاعر الخلفاء وصديقهم الامين .
وكان الغرض الاساسي في شعر هؤلاء هو المديح كأداة للتكسب ، والهجاء يستخدمونه في ذم اعداء الخلفاء والولاة او فيما بينهم، وقد شاع كثيراً في ذلك العصر .
وتطور غرض شعري اخر في الحجاز خلال العصر الاموي وهو الغزل، وذلك على يد عمر بن أبي ربيعة (توفي ٧١٩) وجميل بثينة (توفي ٧٠١) وهو الذي كان اكثر جدية وصدقا ووفاء في شعره الغزلي وتفوق بذلك على عمر بن ابي ربيعة . وسار على منوالهما الشاعر قيس بن الملوح المعروف باسم «مجنون ليلى».
واولى المحاولات النثرية كانت على يد عبد الحميد بن يحيى الكاتب (توفي ٧٥٠) . وكان كاتبا لدى مروان الثاني، وقد عرف برسائله المنمقة الجميلة الاسلوب ، ويبدو انه ادخل ذلك الى الاسلوب العربي اقتباسا من الادب الفارسي .
وفي العصر العباسي غدت العاصمة بغداد مركزا ادبيا كثر فيه الاعاجم الذين اتخذوا العربية لغة ادبية لهم وبخاصة الفرس. وقد ازدهرت الاداب العربية والعناية بتاريخ الادب العربي .
ظهرت مجموعة من الكتاب الذين يعملون في دوائر الدولة كأبن المقفع (توفي ٧٥٧) وهو تلميذ عبد الحميد الكاتب . وقد ترجم عن البهلوية كتابا ذا اصل هندي على لسان الحيوانات وسماه بالعربية « كليلة ودمنة» نسبة الى شخصيتين في الكتاب . وهو من روائع الادب العربي الخالدة .
كما ظهرت مجموعة ثانية من الكتاب الادباء كالجاحظ (توفي

٨٦٩) الذي كتب في عدة موضوعات ومحمد بن مسلم بن قتيبة الذي اهتم بتاريخ الادب وبالنقد الادبي .

شهد القرن العاشر اقبالا كبيرا على فن الرسالة او المقالة في الادب العربي ، وقد تميزت الرسائل بالاسلوب المنمق الجميل. واشهر هذه الرسائل رسالة الغفران للمعري (٩٧٣-١٠٥٧) وهي التي يلعب فيها الخيال دورا هاما . صور المعري في رسالته الفردوس كملجأ لشعراء الجاهلية الذين غفر لهم وقبلوا من ثم في السماء . كما صور مناقشاتهم الادبية وتناشدهم الشعر وشروحهم اياه . كما تصور الرسالة بعض الزنادقة المشهورين .

وشهد القرن العاشر كذلك ظهور لون جديد في الادب العربي هو فن المقامة غير المعروف في اوروبا واول من كتب فيه بديع الزمان الهمذاني (٩٦٩-١٠٠٨) .

والمقامة عبارة عن سلسلة من الحوادث تكتب باسلوب نثري يغلب عليه السجع ويمكن ان تضم قطعة او قطعتين من الشعر ، وللمقامة بطل يتكرر ظهوره في اكثر من مقامة واحدة . وتتميز المقامات بلغتها الجميلة ووفرة الاستشهادات الادبية والتاريخية فيها وطرافة موضوعها . واشهر كتاب المقامات ابو محمد القاسم الحريري (١٠٥٤-١١٢٢) الذي انشأ خمسين مقامة تعتبر من اعظم الانجازات في الادب العربي ، وتضم تلك المقامات نقدا ذكيا للحياة الاجتماعية والسياسية في ذلك العصر . وهي من الشمول مما يمكن معه اعتبارها في مصاف الادب العالمي . فالمقامة الثامنة عشرة مثلا تدور حول الحقيقة القائلة بأن جميع الناس يحبون النميمة . بينما تدور المقامة الثالثة حول الطبيعتين (الفعلية والمجازية) للمال . ولقد وصف السير هاملتون جب (Sir Hamilton GIBB) مقامات الحريري بانها احدى اغلى الوثائق الادبية في القرون الوسطى للاسلام . كما ابدى جار الله الزمخشري اعجابا مماثلا بمقامات الحريري فقال :

« أقسم بالله وآياته

ومشعر الحج وميقاته
ان الحريري حرى ان
تكتب بالتبر مقاماته »

وفي مجال الشعر العباسي برز شاعران هما بشار بن برد الاعمى (الذي اعدم عام ٧٨٣) والحسن بن هاني « ابو نواس» (توفي ٨١٠) وقد عرفا بأنهما فاسقان ، وعنيا بالغزل والخمريات مما يعكس ضعف تأثرهما بالدين الاسلامي .

وعلى نقيضهما كان معاصرهما الشاعر اسماعيل بن القاسم ابو العتاهية (٧٤٨-٨٢٨) الذي يمثل جانب التقوى والصلاح في الشعر العباسي المبكر . كان ابو العتاهية خزافا ثم تقرب الى الرشيد وتحول بعد ذلك الى حياة التصوف والدراويش ، وهو مشهور بشعره في التقوى وكره المفاسد والحياة الفانية .

وفي القرن التاسع ظهر شعراء كبارهم : ابو تمام حبيب بن آوس الطائي (توفي ٨٤٦) واشتهر بجمعه للشعر العربي قبل الاسلام في كتاب «الحماسة» أكثر من شهرته بشعره نفسه : والبحتري ابو عبادة الوليد بن عبيد (٨٢٠-٨٩٧) وابن الرومي علي ابن العباس بن الرومي (٨٣٥-٨٩٦) الذي كان هجاء والذي يدل اسمه على اصله البيزنطي .

اما اعظم شعراء القرن العاشر على الاطلاق فهو ابو الطيب احمد بن الحسين المتنبي (٩١٥-٩٦٥) الذي ولد في الكوفة ونشأ بين أعراب دمشق ، ثم قربه سيف الدولة الحمداني وقدر موهبته واجزل له العطاء على مدائحه . ورحل بعد خلافه مع سيف الدولة الى مصر حيث خابت آماله ، ولقي حتفه اخيرا على يد احد مهجوئيه (٣) وهو في طريقه الى شيراز . وتعتبر مدائحه في سيف الدولة من اجمل واعظم قصائد الادب العربي . ولكنها لسوء الحظ لم تنل هذه المكانة لدى النقاد الاوروبيين بسبب اسلوبها

(٣) فاتك بن جهل الاسدي .

الجمالي المنمق . وربما كان الامر مختلفا لو استمر رنولد نكلسون (Reynold Nicholson) في ترجمة نماذج اكثر للمتنبي في كتابه «تاريخ الادب العربي» بطريقته الادبية الساخرة .

وبعد وفاة المتنبي ولد ابو العلاء المعري (٩٧٣-١٠٥٧) وهو صاحب رسالة الغفران المذكورة انفا . فقد المعري بصره نتيجة اصابته بالجدري في سن مبكرة . وتدل اعماله على انه كان اعظم مفكر حر عند العرب . كانت تأملاته الفلسفية غير منتظمة ، بل كانت مبعثرة في اشعاره هنا وهناك وهذا ما جعله ينجو من تحرش اهل السنة به . وتتجلى اهمية المعري في مواقفه النقدية من العرف والسلطة ، وفي تبنيه للعقلانية ومجابهته للدين ومطالبته بتحكيم الضمير . واعظم اعماله «اللزوميات» وهي مجموعة شعرية تضم اراءه الفلسفية والدينية . ولم تترجم هذه المجموعة بكاملها الى اية لغة اوروبية .

وفي القرن الحادي عشر والثاني عشر شهد الغرب الاسلامي ظهور شعراء كبار عنوا بشعر الطبيعة كابن زيدون احمد ابي الوليد (١٠٠٣ - ١٠٧١) الاندلسي وابن حمديس عبد الجبار الصقلي (١٠٥٥ - ١١٣٢) وابن خفاجة (١٠٥٨ - ١١٣٩) الاندلسي .

لم يكن في صالح الادب العربي استيلاء السلاجقة الاتراك على بغداد عام ١٠٥٥ ثم الاحتلال العثماني وقد امتد ذلك قرابة الف عام .

فمن جهة تقلصت السلطة العربية التي كانت تحتضن الشعراء ومن جهة اخرى كان للفرس والاتراك ادبهم الخاص . ومع ذلك ظهر بعض الشعراء الكبار كابن الفارض (١١٨١ - ١٢٣٥) والشاعر والكاتب المؤرخ لسان الدين بن الخطيب (١٣١٣ - ١٣٧٤) .

لم يكن لنعم البلاط كبير تأثير على بعض الادباء . ولقد شهد عصر المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧) تبلور « الف ليلة وليلة » في

شكلهـا النهائي . وكانت اول نسخة قد ظهرت في منتصف القرن العاشر . ولم يتحمس النقاد العرب لهذا العمل الادبي بل ازدروه، في حيـن تأثر به الغرب كثيرا وترجـم الـى عـدد مـن اللغـات الاجنبيـة .

وشهد القرن الثالث عشر اعلى مرتبة من فن « خيال الظل » ولسوء الحظ لـم يبق من هذا الفـن سوى « طيف الخيال في معرفة خيال الظل » لمحمد بن دانيال (توفي ١٣١٠) .

٤ ـ تدوين التاريخ والسيرة الذاتية

على الرغم من ان تدوين التاريخ ظهر مع نشوء الاسـلام ، الا ان بدايـة ذلـك عرفت في العصر الجاهلي من خلال « ايـام العرب » التي هي عبارة عـن حوادث وحروب وغزوات بين القبائل العربية رويت شعرا . يضاف الى ذلـك ان ولع العرب بالانساب كـان بمثابة حجر الاساس لعلم التاريخ العربي فيما بعد .

نشأ علم التاريخ عند العرب بدراسـة سيرة النبي محمـد وحديثه ، تلـك الدراسة التي اعتمدت على طريقة الاسناد وربط الحوادث المرويـة باسماء من شهدوها .

كـان الدافع الاكبر للبحث التاريخي عند العرب هو الاهتمام بحياة النبي وصحابته ، ولكـن الاهتمـام بالبلاد والحكام وافعالهم كان دافعـا للاهتمـام بالماضي . فنحـن مثلا نسمع عن الراوي عبيد بن شرية الذي دعي الى دمشق ليروي لمعاويـة عن ملـوك العرب وقبائلهم القديمة .

وكانت المادة التاريخية التي اعتمدها المؤرخون المسلمون في تدوينهم هي اخبار الجاهليـة وحوادثها واساطيرهـا واشعارهـا المرويـة من شخص لآخر كما كـان الحال في معرفة سيرة النبـي محمد وصحبه . كان اول عمل اعتمد الحديث لتدوين سيرة محمد هو « سيرة رسول الله » لمحمد بن اسحق من المدينة ، وقد بقي

هذا الكتاب بشكله الموجز على يد ابن هشام (توفي ٨٣٣) .

وهناك كتاب آخرون مثل موسى بن عقبة (توفي ٧٥٨) والواقدي (توفي ٨٢٣) اللذين كتبا في غزوات النبي محمد التي بلغت خمسا وسبعين غزوة .

تلك كانت من اوائل الكتب التاريخية التي ظهرت ، وتلتها كتب اخرى تعنى بتدوين فتوحات الاسلام ككتاب « فتوح مصر واخبارها » لابن عبدالحكم (توفي ٨٧١) و « فتوح البلدان » للفارسي احمد بن يحيى البلاذري (توفي ٨٩٢) وهو يلقي نظرة شاملة على فتوحات الاسلام .

وفي القرن التاسع غدا تدوين التاريخ « اشمل فاصبح تدوينا لتاريخ العالم » ، ولا ريب أن تاريخ الاسلام احتل الجزء الاكبر من هذه الكتب . اما تاريخ الجاهلية فقد دون ليكون بمثابة تمهيد لتاريخ الاسلام . واول هذه الكتب : « الاخبار الطوال » لابي حنيفة احمد بن داوود الدينوري (توفي عام ٨٩٥) ولقد بلغت كتابة التاريخ العربي في القرون الوسطى اوجها على يد أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٨٣٨ – ٩٢٣) وأبي الحسن علي المسعودي (توفي ٩٥٦) .

تعتمد شهرة الطبري على كتابه الضخم « اخبار الرسل والملوك » الذي يتحدث عن تاريخ البشرية منذ بدء الخليقة حتى سنة ٩١٥ م . وقد استقى مادته التاريخية من المؤرخين الاوائل ومن الترجمات الفارسية والروايات التي جمعها في رحلاته الكثيرة في البلاد الاسلامية طلبا للعلم والبحث .

اما المسعودي فكانت رحلاته أغزر وابعد ، فقد وصل الى زنجبار والهند ووضع كتابا في التاريخ والجغرافية في ثلاثين جزءا لكنه لم يبق منه سوى موجز وضعه عنه واسماه « مروج الذهب ومعادن الجوهر » . وهناك كتاب هام آخر هو « تجارب الامم » وضعه الفارسي مسكويه (توفي ١٠٣٠) وهو في تاريخ العالم .

والى جانب الكتب التاريخية الشاملة ظهرت كتب تتناول

تاريخ بقع خاصة في العالم ككتاب ابـي القاسم علي بن عساكر في تاريخ مدينة دمشق .

ازدهرت كتابة تاريخ القرون الوسطى باللغة العربية في عصر المماليك في مصر ، وكان اشهـر المؤرخيـن المصريـيـن تقي‌الديـن احمـد المقريزي (١٣٦٤ ـ ١٤٤٢) وجاءت شهرته من كتابه في تاريخ مصر « المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار » .

الا ان اشهر مؤرخي العرب في القرون الوسطـى هو عبد الرحمن بن خلدون (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦) من تونس . وكانت اسرته قد رحلت من اليمن الى اسبانيا في القرن التاسع . وتعود شهرته الكبيرة الى مقدمة كتابه التاريخي « كتاب العبر وديـوان المبتدأ والخبر في ايـام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر » وتحتل المقدمة الجزء الاول من الكتـاب ، بينما يؤرخ الجزء الثاني للعرب والشعوب المجاورة ، ويعنى الجزء الاخير بالبربر وممالك المسلمين في شمال افريقيا .

يعرض ابن خلدون في مقدمته ـ للمرة الاولى ـ نظريـات تاريخيـة وسننا للتاريخ البشري آخذا بعين الاعتبار تأثير العوامل الجغرافيـة والبيئة الطبيعية في التاريخ الى جانب تأثير العوامـل الخلقيـة والعقليـة في المجتمعات البشرية . ان ابن خلدون في تحليله السياسي والاجتمـاعي والاقتصادي حول ظـهور الدول والممالـك قد ارسى حجر الاساس لظهور حقل جديد من العلم . هو مـا يعرف الآن بعلم الاجتمـاع وفلسفـة التاريخ والنظريـة السياسيـة .

كانت كتابة السيرة ـ كمـا ذكرنا آنفا ـ قد بدأت بتدوين سيرة النبي لكنهـا سرعـان مـا توسعت لتشمل سيرة الصحابة وتابعيهم ، كما فعل ابو عبدالله محمد بن سعد (توفي ٨٤٤) في كتابه « كتاب الطبقات الكبير » الذي يعتبـر اول كتاب يعنى بفئة خاصـة من الناس . ويلاحظ ان ابن سعد قـد ركز اهتمامـه على عرض صادق لحياة الناس الذيـن يذكرهم او الذيـن يروون الحديـث .

لقد غدت كتابة السيرة جزءا من الادب العربي على الرغم من ان بعضهـا كان يعنى بسيرة افراد فقط في القرون الوسطى مثل « سيرة صلاح الدين » لبهاءالدين بن شداد (توفي ١٢٣٤) .

ومن اهم كتب السيرة « اخبار العلماء باخبـار الحكماء » للمصري علي بن يوسف القفطي (توفي ١٢٤٨) ولم يبق من هذا الكتاب سوى موجز ،ثم كتاب « عيـون الاخبار في طبقات الاطباء » للسوري موفق الديـن بن ابي اصيبعة توفي (١٢٧٠) ويضم هذا الكتاب ترجمة لاربعمائة طبيب يوناني وعربي . ولما كـان الكثيرون من هؤلاء الاطباء فلكيين او رياضيين او فلاسفة فقد اكتسب كتاب عيون الاخبار اهميـة بالغـة في مراجع العلوم عامة .

ومن اعظم كتاب السيرة كذلك سوري آخر هو شمس الدين بن خلكان (توفي ١٢٨٢) الذي شغـل منصب رئيس القضاة في دمشق لعدة سنوات ، ويحمل كتابه عنوان « وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان » وفيه ترجمة خمسة وستيـن وثماني مائـة مـن شخصيـات المسلميـن الذين عاشوا حتى ذلـك التاريخ . وقـد قال عنه ر. أ نكولسن : انه اعظم كتاب في السيرة العامـة كتـب حتى الآن .

لقد اغتنى الادب العربي في القرون الوسطى بعدد من كتب السيرة الذاتيـة مثل « كتاب الاعتبار » لاسامة بن منقذ (١٠٩٥ ــ ١١٨٨) و « المذكرة » لعبدالله بن بلكين (توفـي ١٠٩٠ فـي غرناطـة) .

ب ــ علـوم العجم

١ ــ الفلسفة :

بدأ اهتمام الفكر الاسلامي في شرحه القرآن بالدفاع عـن العقيدة الاسلامية ضد الاديان الاخرى وبخاصة الدين المسيحي .

واخذت تطرح مسائل كالتالية : ما الذي يجعل المسلم مؤمنا حقا؟ هل كان علي بن ابي طالب المؤمن الحق ام كان المسلمون الذين عارضوه هم المؤمنين حقا . واعمق المسائل المطروحة على بساط المناقشة كانت ذات اهتمام عام وشامل مثل التباين بين كمالية الله وعجز العالم ، التخيير والتسيير ، الله الذي لا يتجزأ والكون الذي يتألف من اجزاء .

وقد ادى الجدل في هذه المسائل الى ظهور الفلاسفة والمتكلمين وعلماء الدين .

وقد استعان الفلاسفة وعلماء الدين بالفلسفة الاغريقية لارسطو وافلاحون وتلاميذه المحدثين واول الفلاسفة المسلمين ابو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي (توفي حوالي ٨٧٣) وقد كتب عددا من الكتب العلمية ووسع الفلسفة الاغريقية .

واعظم المفكرين الاصلاء في الفلسفة هو محمد ابو النصر الفارابي (توفي ٩٥٠) وهو من اصل تركي . وقد لقب بالمعلم الثاني نظرا لشهرته الفلسفية ، بعد المعلم الاول ارسطو . وله اسهامات كثيرة في الفلسفة الميتافيزيقية وعلم النفس والمنطق . اما معاصره ابو بكر محمد بن زكريا الرازي الذي اسهم في الطب، فقد كان فيلسوفا مرموقا كذلك ، وكان في كثير من الاحيان على نقيض الفارابي في جوانب كثيرة فلقد كان يؤمن بالمساواة بين البشر وكان منافيا للسلطة ، يؤمن ايمانا فلسفيا انه ليست هنالك اية سلطة تخرج عن نطاق النقد ، كما اعتبر الكتب الدينية لمختلف الديانات قصصا خلقية لا تعتمد المنطق ورأى ان المعجزات المزعومة ما هي الا حيل ذكية للانبياء ، وان الناس الذين يلتفون حول الانبياء هم البسطاء من الرجال والنساء .

لقد غطت شهرة الرازي في الطب والكيمياء على ارائه الدينية ، وقد عارض الاسماعيليون هذه الاراء التي تقول بالمساواة بين البشر واسهموا بعد وفاة الرازي في حقل الفلسفة من خلال «رسائل اخوان الصفا» التي هي مجموعة رسائل تعالج العلوم

المتعددة التي عرفت آنذاك . ويتركز اهتمام هذه الموسوعة العلمية على الامام رئيس الطائفة الاسماعيلية الذي يمثل رئاسة الترتيب الكوني كالنفس الكلية والعقل الكلي .

تقول هذه العقيدة بالتسلسل وعدم المساواة بين البشر لان المعرفة الحقة ممنوحة فقط لقلة من الاعيان ، وهذا نقيض فلسفة الرازي القائلة بالمساواة .

وبعد الرازي ظهر جيل آخر من المفكرين المسلمين اشتهر منهم الفيلسوف ابو علي بن عبد الله بن سينا (٩٨٠-١٠٣٧) . وقد اصدر عددا من الكتب تتناول عدة موضوعات خلال حياته القصيرة نسبيا (سبع وخمسون سنة) .

عاش ابن سينا حياة حافلة بالتجوال ، وشغل منصب الوزارة وجذب اليه الكثيرين من طلاب الفلسفة والطب والفلك والرياضيات والجيولوجيا والكيمياء . والف في ذلك الكثير من الكتب . واذا كان ابن سينا قد استند الى فلسفة الفارابي وارسطو فانه بدأ يؤكد من جهة ثانية ان الحقيقة هي في حركة دائمة ، وهذه الفكرة هي دستور الفيزياء في القرن العشرين .

لم يخرج ابن سينا عن معتقد التوحيد الاسلامي وفي مذهبه الفلسفي يرى ان الله هو القمة وهو المسبب في كل شيء ، وهو واجب الوجود ، وان كل شيء مجرد احتمال ، وقد يوجد او لا يوجد اي شيء ، فاذا وجد فهو عرضي . وعلى ذلك فان التكاثر والفردية موجودان فقط في المخلوقات غير الله وان المادة هي مبدأ التكاثر والفردية بما انها تحدق عمل الروح . وان امورا كالخلود تغدو ممكنة لان الروح تكتسب فردية من خلال اتحادها بالجسد وهذه الفردية تستبقيها الروح بعد موت الجسد .

كما اسهم ابن سينا في علم النفس واهم ما قاله في هذا المجال اعتقاده ان العقل يوجد مستقلا عن الجسد . وان فكرة ابن سينا المتطرفة في العقل بين الجوهر والوجود واكتشافه للانا والوعي الذاتي هما امران كان لهما التأثير الكبير في الفكر

الاوروبي .

وشهد القرن الثاني عشر ازدهارا للفلسفة الارسطوطالية في الاندلس . فقد ظهر في هذا القرن ثلاثة فلاسفة عظام تركوا اثرا كبيرا في تاريخ الفكر الانساني وبخاصة الفكر اليهودي والمسيحي. وقد امكن ذلك بسبب وجود اعداد كبيرة من اليهود في اسبانيا واقتسام السلطة هناك بين المسلمين والمسيحيين .

اول هؤلاء الفلاسفة ابو بكر محمد بن يحيى بن باجة الذي عاش بين سرقسطة وغرناطة وتوفي في فاس ١١٣٨ . ولم يبق من كتبه سوى كتاب : «تدبير المتوحد» (٤) . الذي يبحث في كيفية اتحاد العقل الانساني بالعقل الفعال ويرى ابن باجة ان هدف الفلسفة هو السمو التدريجي للروح الانسانية من خلال اتحادها مع الله. كما يرى ان الروح الانسانية تموت بموت الجسد ، وان الجسد يحيا فقط في العقل الذي لا خاصة فردية له . وان العنصر الكوني في تركيب الانسان هو وحده الذي يبقى . كما يرى ان على الناس الذين يكرسون انفسهم طلبا للحكمة ألا يهتموا كثيرا بالبلد الذي يعيشون فيه . بل عليهم ان يعتبروا انفسهم غرباء وحيدين . كما يوحي بذلك كتابه .

وثاني هؤلاء الفلاسفة ابو بكر محمد بن عبدالله بن طفيل (توفي ١١٨٥) . وقد اشتهر بروايته الفلسفية (حي بن يقظان) التي يشير عنوانها الى الروح البشرية ومبادىء الحياة التي يؤسسها العقل الواعي ويعتقد ابن طفيل ان الروح تبقى بعد موت الجسد .

وحي بن يقظان بطل الرواية صبي صغير وجد في جزيرة نائية غير مأهولة ، وربته غزالة وارضعته وبعد موت الغزالة تعلم حي الاعتماد على نفسه ، وبلا كتب ولا معلم توصل الى معرفة حقائق فلسفية ادت الى تجربة غيبية عميقة . وفي الجزء الاخير من

(٤) وذكر له المستشرق الاسباني بالنثيا مجموعة من الرسائل المخطوطة طبع بعضها ، وذلك في كتابه (تاريخ الفكر الاندلسي) (المراجع) .

الكتاب يتصل حي بمجموعة من الناس يعيشون في جزيرة مجاورة ويعتنقون دينا لقنهم اياه نبي ، ورأى حي انهم يعنـون بالقشـور والظواهر الدينية بينما كان حي يدرك بعمق معاني هذا الديـن ويحاول تعليم الناس ذلك . وحينمـا يرفضون محاولته يعرف ان معظم البشر ليسوا افضل حالا من الحيوانات من حيث مـدى إفتقادهم المقدرة اللازمة للاشراق الفلسفي ، وبالتالي يتوصل حي الى الاعتقاد بأنه من الخطأ حمل الناس العاديين من العامة عـلى تغيير الطقوس الدينية التي الفوها . وانه من الافضـل تركهـم يدورون في قشور الدين بدلا من التعمق في جوهره . وتنتهـي القصة بعودة حي الى جزيرته .

اما ثالث فلاسفة القرن الثاني عشر في اسبانيا فهو ابـو الوليد بن رشد (١١٢٦ـ١١٩٨) وقد ذاعت شهرته في المشرق من خلال كتابه «تهافت التهافت» الذي يرد فيه على الغزالي . اما في الغرب فقد جاءت شهرته من شروحه وتعليقاته على فلسفة ارسطو تلك الشروح التي تبين للغربيين مدى اصالة فكره في تحليل الافكار الحقيقية لارسطو .

كان ابن رشد عقلانيا يرى ان كل شـيء يجب ان يخضـع للمحاكمة الذهنية عدا امور الإيمان . وكان يرى ان الكون كائـن متجدد خالد يقف وراء حركته المحرك الاول . وقد اهمل الجـدل الفلسفي السائد حول ما اذا كان الله يهتم بالامور الجزئية كاهتمامه بالامور العامة، واخذ بفكـرة ان جوهر الاله يسمو فوقهمـا ويتجاوزهما .

وقد استعدى ابن رشد عليه كلا من المسلمين والمسيحييـن في فكرته القائلة برفض خلود الروح . فهو يرى ان الروح تفقـد فرديتها بعد الموت وتعود الى الروح الكونية التي انبثقت منها .

لقد ارقت افكار ابن رشد الفلسفية المفكرين الاوروبيين اكثر من المفكرين المسلمين . فقد كان اتباع ابن رشد من الاوروبييـن يمثلون احد التيارات العقلانية في اوروبا حتى نهاية القـرن

السادس عشر رغم اعتقادهم بالحقيقة المزدوجة اي ان العرف قد يكون صوابا من الناحية الدينية وخطأ من الناحية الفلسفية او بالعكس رغم ان ابن رشد نفسه لم يتبين هذا الاعتقاد . ويجدر بالذكر ان معظم فلاسفة القرون الوسطى كانوا اطباء ويبدو ان مهنة الطب كانت امرا طبيعيا يكسب الفيلسوف منه معيشته.

ان اوائل الذين اهتموا بفلسفة الاعاجم اهتموا كذلك بعلوم الاعاجم وبخاصة العلوم الطبيعية التي كان ابرز نظرياتها هي العناصر الاربعة التي كانت تقوم عليها النظريات الطبية في القرون الوسطى . وفي الواقع فان تعبير «فلسفة» كان يشمل الرياضيات والطب والعلوم الطبيعية الى جانب المنطق والميتافيزيقيا . ولهذا يجدر بنا الان ان نلاحق تطور علوم الاعاجم وبعض انجازات المسلمين في العلوم .

٢ ـ الرياضيات :

اسهم المسلمون في اغناء المعرفة الانسانية في هذا المجال ، وقد تابعوا دراسة علم الحساب الى مدى ابعد من عرب الجاهلية الذين انحصرت معلوماتهم في حدود التجارة والدية . فالدولة الاسلامية تطلبت تقديرات حسابية لتنفيذ أحكام الزكاة والجزية والخراج وتقسيم الارث كما نص على ذلك القرآن .

في الجبر برز محمد بن موسى الخوارزمي (توفي ٨٥٠) الذي يعود اليه تأسيس علم الجبر ، وهو الذي تعمق في هذا العلم مدى ابعد من الاغريق وكتابه «كتاب الجبر والمقابلة» قدم للعالم تعبيرا خاصا عن هذا الفرع من الرياضيات ، تشير كلمة « الجبر » الى عملية تحويل الكم السالب الى الطرف الاخر من المعادلة وتغيير الاشارة الى موجب . بينما تشير المقابلة الى مقارنة الرموز السالبة مع الموجبة في المعادلة ثم عملية الاختصار بينهما ، وهكذا نجد :

ب س + ٢ ك + ك = س ٢ + ب س

مقابلة ٣ ك = س٢

اختصار متتال

يضم كتاب الخوارزمي هذا ثمانمائة مثال . وهو افضل كتاب في مادة الجبر حتى الازمنة الحديثة وقد تابع عمر الخيام (توفي ١١٢٣) اعمال الخوارزمي ...

ادخل البتاني (توفي ٩٢٩) النسبة في علم المثلثات كما هي معروفة اليوم . وتبعه عالم عربي لامع في الرياضيات هو ابو الوفا (توفي ٩٩٧) الذي اكتشف معادلة لجمع الزوايا :

جيب (ب+ج)= جيب ب تجب ج + جيب ج تجب ب

وهو الذي اكتشف ايضا الخط الذي يقطع القوس .

اما الهندسة فقد كانت متقدمة عند المسلمين وهم الذين استخدموها في مجالات عملية كالمساحة وانشاء طواحين الماء ، اضافة الى استخدامهم اياها كثيرا في اغراض الزينة في فنهم .

ولعل اهم اسهام للعرب في حقل الرياضيات كان ادخالهم الرموز التي سموها (الارقام الهندية) وفي الواقع فان كلمة هندية تشير الى المصادر التي اخذ عنها الرياضيون المسلمون . والمسلمون هم الذين بسطوها وجعلوها طيعة بحيث قبلها العالم على مر العصور . اما الارقام التي يستخدمها الاوروبيون اليوم ويطلقون عليها «الارقام العربية» فلهم كل الحق في اطلاق هذه التسمية عليها .

٣ ـ الفيزياء :

اهم عالم فيزيائي عربي هو ابو علي الحسن بن الهيثم (توفي ١٠٣٩)الذي برز في علم البصريات،وقد عارض اقيلدس وبطليموس في زعمهما ان العين ترسل اشعاعات الى الشيء المنظور تمكن من رؤيته . واصر على ان عملية الرؤية تحدث عندما يرسل المنظور اشعاعات تدخل العين .

وقد وجد لدى تفحصه قدرة القمر على الاشعاع ، ان القمر ليس بالجسم الصقيل كالمرآة، ومن ثم اكتشف ان جميع الاجسام

الملونة تعكس الضوء وأن الضوء واللون متطابقان ولاثبات فرضياته قام بتجارب ادت به الى اختراع الة لتصوير الظلامية .

وتشير الابحاث الحديثة في مخطوطاته الى انه كـان مدركا تمام الادراك دور الرياضيات في نظريته في البصريات ، وقـد خلص الباحثون الى اعتباره بكل جدارة مؤسس علم الفيزيـاء ، بالمعنى الحديث للكلمة (٥) .

اكتشف البيروني (توفي ١٠٥٠) عن طريق التجربة عـددا من الجاذبيات المحدودة بوساطة ما اسماه « المخروط » ويعد هذا اول مقياس للثقل النوعي .

اما الخازني (توفي ١١٠٠) فقد استخدم مقياسا للكثافـة شبيها بذلك المقياس الذي استخدم قديما في الاسكندرية للتحري عن خواص السوائل كما بحث مشكلة كثافة الماء عند منتصف الكرة الارضية، تلك المشكلة التي تناولها بعينها روجر بيكون .

٤ ـ علم الفلك :

حظي هذا العلم بترحيب اكبر من بقية علوم الاعاجم لـدى الدوائر الرسمية بسبب اهميته لدى المسلمين في اهتمامهم (بعلم الميقات) الذي يحدد مواعيد الصلاة واتجاه مكة المكرمة ... الخ. الى جانب ان هذا العلم ينتمي اليه التنجيم الذي تمتع بشعبيـة واسعة على الرغم من رفض الباحثين المسلمين لافتراضاته .

اشتهر بين فلكيي العرب في القرون الوسطى الفزاري (توفي ٧٧٧) وهو اول عربي انشأ الاصطرلاب . ثم البتاني (توفي ٩٢٩) الذي قام ببعض الارصاد الفلكية الهامـة وبعض المقاييس وتبعـه عمر الخيام (توفي ١١٢٣) الذي صمم تقويما جديدا هو التقـويم

---

(٥) Cf. M. Schramm, Ebn al - Haythams Wegzur Physik (Wiesbaden 1963) .

الجلالي . وقد اخطأ الخيام بيوم واحد فقط في كل خمسة الاف سنة . اما التقويم الغريغوري المستخدم اليوم في اوروبا فانه يخطىء بيوم واحد في كل ثلاثة الاف وثلاثمائة وثلاثين سنة ؛

وقد كان ابو معشر (توفي ٨٨٦) واحدا من اولئك الفلكيين الواثقين بصدق علم الفلك . وله يد على انتقال هذا العلم الى اوروبا. ولقد بحث بشكل دقيق في العلاقة بين المد والجزر وحركة القمر .

ان اهم انجازات المسلمين في علم الفلك تتمثل في تصميمهم المرصد . وعلى الرغم من ان الاغريق صمموا عدة ادوات فلكية منها الاصطرلاب الا ان المرصد بشكله المخصص والمنظم لم يظهر للوجود الا في العصر العباسي .

كانت المراصد الاسلامية مزودة بعدد من الادوات ، وبمكتبة ايضا . وكان من اسس انشاء هذه المراصد هو ان الفلكيين المسلمين تحروا الدقة في رصدهم النجوم ، كما ارادوا تكبير ادواتهم وتطويرها اكثر فأكثر . وهكذا وجب ان تقوم المراصد في اماكن مستقرة دائمة واستخدمت في المرصد ادوات هي : ذات الربع ، والاصطرلاب ، والمحلق ، والكرات الهندسية . (الرسم رقم (١) و (٢) .

كان الفرض الاساسي للمراصد وضع الجداول الفلكية المبينة على المرصد . وكانت هذه الجداول تستخدم في الجغرافية والتقويم ، واحيانا في التنجيم .

اول مرصد عربي بناه المأمون في بغداد عام ٨٣٠ أو ٨٣١ . واتبعه بمرصد اخر على قمة جبل قاسيون في دمشق .

الا ان اهم مرصد اسلامي كان مرصد «مراغة» الى الجنوب من تبريز وقد بناه عام ١٢٥٠ المغولي مانغو اخو هولاكو هادم بغداد . وكان للمرصد قبة فيها فتحة تسمح بدخول اشعة الشمس مما سهل قياس حركة الشمس في الفصول المختلفة .

وقد بقي هذا المرصد بعد وفاة بانيه عام ١٢٥٧ . ويبدو انه

استمر حتى عام ١٣١٦ . ولا تزال آثاره باقية حتى اليوم . ولا تزال الكرة المعدنية التي استعملت فيه محفوظة في مدينة درسدن.

٥ ـ علم الجغرافية :

بدأ علم الجغرافية عند العرب بترجمتهم عن الفارسية والسنسكريتية والاغريقية ، وبخاصة مؤلفات بطليموس ومارينوس الصوري . وقد اخذت عن هؤلاء الجغرافيين تقسيم الارض الى عدد من المناخات ، تلك الفكرة التي تعود الى تاريخ طويل في علم الجغرافية . وقد توسع علم الجغرافية الاغريقي ، وصحح في كثير من الاحيان بعد قيام الرحالة العرب بكشوفهم الجديدة في الاصقاع البعيدة . وقد امتد شمول علم الجغرافية العربي من الجزائر إلى الخالدات غربا الى كوريا واحتمال وجود اليابان شرقا.

انصب اهتمام الجغرافية العربية على اراضي الدولة العباسية وقد اصدر الجغرافيون العرب الكتب التي تصف الطرق والمدن الاسلامية ، كما وصفوا طرق القوافل ومحطات توقفها .

اول هؤلاء الجغرافيين ابن خرداذبة الذي غدا كتابه (المسالك والممالك) عام ٨٤٦ قدوة لاعمال مماثلة اخرى .

وشهد القرن العاشر تطورات في الجغرافية العربية تمثلت في كتابات الرحالة امثال ابن فضلان وبوزريخ بن شهريار اللذين استندا في تنظيماتها الجغرافية الى الاقدمين ولكنهما توسعا في معارفهما الجغرافية .

وكتاب (احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) للمقدسي (توفي عام ١٠٠٠) اسهم في توسيع مجال علم الجغرافية بضمه بحوثا في المناجم واللغات المحلية وعروق البشر والعادات القومية والديانات والاوزان والمقاييس . الخ . كما كان هناك جغرافيون هامون في القرن العاشر هم البلخي والاصطخري وابن حوقل .

وعرف القرن الثاني عشر اعظم عمل جغرافي عربي منظم في كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) لابي عبدالله محمدبن محمد

الادريسي (١١٠٠–١١٦٦) الذي عمل في بلاط الملك المسيحي روجر الثاني ملك صقلية في باليرمو . ويضم كتابه العظيم اعمال الجغرافيين السابقين كما يضم المعلومات التي رواها الرحالة . ويشير الكتاب الى افتراض ان الارض كروية .

وشهد القرن الثالث عشر اعداد اعظم قاموس جغرافي لياقوت بن عبدالله الحموي (١١٧٩–١٢٢٩) وهو (معجم البلدان) الذي تم تصنيفه في مدينة حلب عام ١٢٢٨ . وفي الفترة نفسها ظهرت رسائل قيمة عن رحلات ابن حسين بن احمد بن جبير (١١٤٥ – ١٢١٧) المولود في بلنسية والذي قام برحلات طويلة في المشرق.

وفي القرن التالي فاقت انجازات المغربي محمد بن عبدالله بن بطوطة (١٣٠٤–١٣٧٧) اعمال ابن جبير . وقد اعد ابن بطوطة كتابا عن رحلاته في سيلان والبنغال والصين .

وبصورة عامة فان اهمية الجغرافيين المسلمين تكمن في وصفهم لبلدان شرقي اسيا واجزاء من افريقيا وجنوبي روسيا الى جانب البلدان الاسلامية بطبيعة الحال . كما تكمن هذه الاهمية في رسمهم الخرائط الجغرافية ووصفهم التفصيلي لمناطق خاصة – اي الجغرافية المحلية – ويعود للعرب فضل حفظ النظرية القديمة القائلة بكروية الارض .

٦ – الكيمياء :

كانت التجارب التي تجري في مجال الكيمياء او الصيدلة (فالاقدمون لم يستطيعوا التمييز بينهما لعدة قرون) متقدمة، وقطعت اشواطا اكبر مما تكهن به الاغريق . وكانت البحوث جميعها تعتمد الفرضية القائلة بان المادة تتألف من اربعة عناصر هي التراب والنار والماء والهواء ، وان الذهب اصفى المعادن و« انبلها » وان تحويل معدن الى آخر امر ممكن . كما يمكن تحويل المعدن « الوضيع » الى معدن «نبيل» بوساطة الاكسير . وقد شجعت

هذه الفرضيات على ان تمضي التجارب المطولة قدما باستمرار.
كان الاهتمام ينصب في هذه المرحلة المبكرة من دراسة الكيمياء على الخواص الخارجية للمواد وهذا ما دفع الكيميائيين بدوره الى ان يعنوا بألوان المواد وان يهملوا خواصها الجوهرية .
كان اول عربي اهتم بالبحوث الكيمياوية حفيد الخليفة معاوية الاول خالد بن يزيد (توفي ٧٠٤) ومن المرجح انه اكتسب معرفته العلمية من الاسكندرية . وقد اعد في وقته اعمال كيميائية لم يبق منها اي شيء في الوقت الحاضر .
والرجل الثاني الهام في ميدان الكيمياء هو جابر بن حيان (حوالي ٧٢١م ـ حوالي ٨١٥م) الذي ولد في طوس وامضى معظم حياته في الكوفة . ويظن بأنه تتلمذ على يد خالد الا ان هذا غير مؤكد تماما . كان ابن حيان بحاثة عظيما اجرى تجارب عديدة على الشعر وعظام الثعلب والثور والغزال والحمار . وتجارب اخرى على الزهور كالياسمين والبيش (٦) ، وعلى البصل والاجاص وشقائق النعمان والزنجبيل .
صحيح ان اهتمام ابن حيان تركز على التجارب بغية تحويل المعادن الوضيعة الى نبيلة ، الا انه سجل ملاحظاته وتجاربه التي ادت الى تحضير حمض الآزوت لاول مرة في التاريخ . وقد اكسبه هذا الابداع مكانة مرموقة في تاريخ الكيمياء . وقدم جابر وصفا كاملا لعملية تحضير الفولاذ وتصفية المعادن الاخرى وعملية صبغ الاقمشة ودباغة الجلود والدهان لصنع الملابس الواقية من الماء ، وكيفية حماية الحديد من الصدأ . كما عرف صناعة حمض الخل بتقطيره من الخل ، الى جانب وصفه بدقة بعض العمليات الكيمياوية كالتبلور والانحلال والتكرير .
كان الرازي ــ رغم شهرته في ميداني الطب والفلسفة ــ ذا قدم راسخة في مجال الكيمياء ، الا ان اهتمامه تركز على

---

(٦) نبات كالزنجبيل رطب ويابس ، يلفظ بكسر الباء . (المراجع)

الكيمياء المخبرية اكثر من الكيمياء العامة وفرضياتها . وهو صاحب مذهب في دراسة الكيمياء اخذ يوسع مجال المعرفة الكيمياوية شيئا فشيئا بجهود الباحثين في هذا المضمار . وقد استخدم الرازي عدة مواد في تجاربه منها كل المعادن المعروفة في عصره والملكيت واللازورد والفيروز والشب والجص والبورق والكلس والبوتاس والزنجفر والزنجار .. الخ ..

والرازي هو اول من وضع نظاما لتصنيف الحيوان والنبات والمعدن . ومن فارس كذلك جاء واحد من اعظم خلفاء الرازي ، وهو ابو منصور موفق . وهو اول كيمياوي ميز بين كربونات الصوديوم وكربونات البوتاس . وقد شرح كيف يعطي الجص اذا سخن نوعا من الكلس يمكن مزجه بزلال البيض فيصنع منه جص خاص لتضميد كسور العظام وتعرف هذه المادة اليوم بجص باريس . وتستخدم كثيرا في الصناعة وبخاصة صناعة القوالب.. الخ .

وجدير بالذكر هنا ان مشاهير المسلمين كابن سينا وابن خلدون قد رفضوا الكيمياء وبخاصة فكرة تحويل المعادن الى ذهب . ولكن الكيمائيين دابوا على تجاربهم بكل حرية الى ان توصلوا الى الكشوف العلمية التي ادت بدورها الى تطور الكيمياء بشكلها المعاصر .

٧ ــ علم النبات :

على الرغم من ان المسلمين لم يقدموا اسهاما كبيرا في ميدان علم الحيوان في القرون الوسطى (باستثناء علم الخيول) الا انهم اغنوا المعرفة الانسانية في مجال علم النبات وبخاصة ما له منها صلة بعلم الطب .

بدأ هذا العلم على يد الاغريقي ديسقريدس . وقد جمع عالم الطبيعة القرطبي ابوجعفر احمد بن محمدالغافقي (توفي١١٦٥)

مجموعات من النباتات من اسبانيا وشمال افريقيا واطلق عليها تسميات بالعربية واللاتينية والبربرية ووضعها بدقة في كتابه «الادوية المفردة» .

واعظم صيدلي وعالم نباتي في القرون الوسطى هو عبدالله بن احمد بن البيطار (توفي ١٢٤٨م) والذي اعتمد في كتابه على أعمال الغافقي ، وقد ارتحل الى شمال افريقيا والى سورية باحثا في حياة النباتات ، مع العلم بانه من مالقة في اسبانيا .

ذاعت شهرة إبن البيطار من خلال كتابيه «المغني في الادوية المفردة» وببحث في المواد الطبية و «الجامع في الادوية المفردة » وببحث في الحيوان والنباتات والمواد المعدنية ذات الخواص الطبية . وقد صب عنايته على المعلومات التي زودوه بها سابقوه ولكنه اضاف ثلاثمائة مادة جديدة الى المواد المكتشفة سابقا وعددها الف واربعمائة .

٨ ـ السحر :

كان السحر غالبا ما يعتبر مادة تدخل في العلوم الطبيعية ورغم الحد الفاصل اليوم بين السحر والعلوم الطبيعية فان العرب استنتجوا نظريات في السحر ادت الى فوائد ، رغم ان النتائج لم تكن هي المرجوة دائما . وكانت مكانة السحر مشابهة لمكانة التنجيم والكيمياء القديمة .

وافضل مثال في هذا المجال هو ما يدعى المربع السحري. وهذا مربع يقسم بدوره الى مربعات صغيرة توضع فيها ارقام متعددة كالآتي :

٤	٩	٢
٣	٥	٧
٨	١	٦

بحيث لو جمعنا الارقام بأي اتجاه كان الناتج ١٥ . وهذا مجرد مثال بسيط ويمكن اشتقاق تركيبات اكثر تعقيدا . فهناك مربعات ترسم انطلاقا من المبدأ نفسه ولكنها تعطي تركيبات غامضة الاعداد، مما جعل بعضهم يعتبرها رموزا دينية استخدمها ـ بالتالي ـ بعض الجهلة كتعاويذ .

جذبت هذه الاوفاق ـ اي المربعات السحرية ـ اهتمام بعض الرياضيين في الغرب في القرون الاخيرة . واعتبرها بعضهم الغازا رياضية . وعكف بعضهم على دراستها واعتبرها مسائل في النظرية العددية . وتطور استخدام المربعات السحرية فحلت الاحرف محل الارقام لتساعد في تصميم التجارب الاحصائية في علم الزراعة والطب .. الخ .

عرف العرب هذه الاوفاق حوالي ٩٠٠م نقلا عن الصين . وقام بعض الرياضيين المسلمين بتحريات واسعة في الكشف عن خصائص هذه الاوفاق . واشهرهم الجزائري محي الدين ابو العباس البوني (توفي ١٢٢٥ م) .

٩ ـ الموسيقى :

كان للموسيقى شأن كبير لدى عرب الجاهلية وبخاصة الموسيقى الصوتية لا الآلية . وقد احتلت مكانة مرموقة في الفنون العربية. وكانت الآلات الموسيقية قبل الاسلام تتمثل في الدف والقصبة والمزمار . وكان للاغريق تأثير واسع على العرب قبل النبي محمد. فلقد عين امراء الغساسنة لهم المغنيات ، واستخدم بنو لخم آلة العود .

وتشير بعض احاديث النبي محمد الى نفوره من الموسيقى، ولعل مرد ذلك الى ان عرب الجاهلية استخدموا الموسيقى في عباداتهم، وقد كانوا يعبرون عن احساساتهم بالغناء والشعر بدلا من الموسيقى .

ويدل كتاب «الاغاني» لابي الفرج الاصفهاني (توفي حوالي ٩٦٧) على ان العرب قدروا الموسيقى تقديرا عظيما ، ولسوء الحظ فان كتاب الاغاني — رغم احتوائه كثيرا من الشعر الموسيقي — يخلو من تدوين العلامات الموسيقية .

من اوائل الذين كتبوا نظريات موسيقية يونس الكاتب (توفي حوالي ٧٦٥م) والخليل بن احمد الفراهيدي(توفي عام ٧٩١م) الذي وضع علم العروض كما وضع اول معجم في العربية .

ومن الترجمات التي قام بها العرب عن اليونانية ترجمات في النظرية الموسيقية ونظريات في الصوت . ومنذ زمن الكندي الذي الف سبعة كتب في الموسيقى ، بقي العرب حجة في النظريات الموسيقية الاغريقية .

وان اعظم كاتب عربي في ميدان الموسيقى هو الفارابي . وكتابه « كتاب الموسيقى الكبير » اهم كتاب في هذا الموضوع . وتناول البحوث الموسيقية فيلسوفان آخران هما ابن سينا وابن باجة .

ان النظرية الموسيقية فرع من الرياضيات فلا عجب ان يبدع المسلمون في الموسيقى وهم الذين ابدعوا في الرياضيات .

١٠ — الفن الاسلامي :

ابرز ما يميز الفن الاسلامي خلوه من تمثيل الاشخاص ، ورغم الخروج على هذه القاعدة احيانا، فان قلة اللوحات الزيتية والتماثيل المنحوتة تجعل البون شاسعا بينها وبين وفرة ذلك في الفن الاوروبي . ويفسر ذلك موقف الدين الاسلامي من هذا الموضوع .

وكان لابد للفن الاسلامي ان يجد له متنفسا ، وهكذا قدم العرب انقى الفنون المعروفة . لان الفن الاسلامي لم يتأثر بالادب او الدين او التاريخ او المسرح كما حدث في الفن الاوروبي . بل

انه ـ اي الفن الاسلامي ـ يعتمد تماما على التلاعب بالخطوط والاشكال والالوان ، وانطلاقا من هذه الاحتمالات خرج الينا اروع نتاج في الفن الاسلامي هو «الارابسك» أي ـ التوريق ـ ويتميز فن «الارابسك» باستخدامه النماذج النباتية المجردة من الصفات الطبيعية والتي يمكن تكرارها . وكانت النماذج الزخرفية الهندسية تقترن بهذا الفن الا انها تتميز عنه تماما . وكان الفنان المسلم يستخدم فن «الارابسك» ويكرره الى جانب النماذج الزخرفية الهندسية في كل اعماله ـ من زخرفة اواني المطبخ الى جدران الجوامع ـ .

وفي مجال فن العمارة يتضح تأثير زخارف «الارابسك» وزخارف السقوف المقرنسة في تحليل المادة وتحويل الكتل الصلبة الى نماذج انيقة ومكررة ودائمة .

تبلورت الشخصية المتميزة للفن الاسلامي منذ أيامه الاولى، ورغم وجود بعض الفروق المحلية فان الفن الاسلامي بصورة مجملة واحد في شكله سواء اجاء من اصفهان أم من غرناطة ، على نقيض الفن الاوروبي الذي تلاحظ فيه فروق محلية وقومية كثيرة. والعوامل التي ادت الى تشابه الفن الاسلامي تظهر في عملية الاتصال الدائم نوعا ما بين جميع اطراف العالم الاسلامي ، وفي تنقل بعض العمال والفنانيين من مكان الى مكان آخر كما تظهر في انتقال العاصمة من منطقة الى غيرها مما يستتبع ـ ليس نقل جهاز دولة فحسب ـ بل نقل الحرفيين والفنانين الذين يريدون البقاء على مقربة من الطبقات الحاكمة .

استفاد الفن الاسلامي كثيرا من المزايا الفنية الاجنبية كالفارسية والصينية في الشرق والبيزنطية في الغرب . ولكن الفن الاسلامي بقي محافظا على شخصيته المتميزة .

تتجلى اهمية الفن الاسلامي في مجال العمارة والتصميمات الخزفية وتصميم النسيج والمعادن والجلود والرسم وصناعة السجاد التي اشتهر بها بلاد فارس مع وجود تأثير عناصر عربية

هامة فيها .

تأثر فن العمارة الاسلامي بفارس وبيزنطة وروما . واهم الاشكال التي استعارها العرب هي القبة وبعض اشكال الاقواس وبعض تصميمات الاعمدة .

لفن العمارة الاسلامي ملامح هي :

١ ـ الاقواس الناتئة .
٢ ـ الجدران المسننة .
٣ ـ الابراج ذات الزخرفة المتشابكة .
٤ ـ استخدام الحجارة الملونة في الصفوف المتباينة .
٥ ـ القباب البصلية الشكل .
٦ ـ القضبان المزخرفة بالخط العربي .
٧ ـ استخدام القرميد بكثرة .
٨ ـ غنى اجمالي بالزخارف .

وعلى الرغم من معاداة السنة للفن التشخيصي فان هناك بعض الابنية الاسلامية المزينة باللوحات الجدارية كما ان قصر العمرة الاموي الذي بني بين عامي ٧١٢م ـ ٧١٥م والواقع الى الشرق من البحر الميت لا يزال يعرف بلوحاته التي تمثل الاشكال البشرية والحيوانية والاشجار . ويحتمل ان يكون الفنانون مسيحيين كلفهم الخليفة بزخرفته . وكذلك قصر «سامراء» الذي بناه الخليفة المعتصم عام ٨٣٦م فقد زخرف باللوحات الجدارية ويحتمل ان يكون الفنانون المسيحيون قد استخدموا في تزيينه .

اما الرسم الاسلامي على لوحات مصغرة فيبدو انه تأخر في الظهور واول المخطوطات الاسلامية الموضحة بالرسوم المصغرة تعود الى القرن الثالث عشر وهي «كليلة ودمنة» و «مقامات الحريري» .

وفي نطاق الفن الخزفي الاسلامي فان اعظم انجاز هو الاواني الخزفية ذات البريق المعدني وفي صناعتها يبدأ بالرسم على الاواني بأملاح معدنية ثم يثبت الرسم بتعريضه للابخرة الحارة

وتغدو الانية التي انتهى صنعها متقزحة الالوان .

اما تطعيم الزجاج بالمينا او بالذهب فقد بلغ درجة عالية من الرقي في الاصول الفنية، وذلك في سورية . (الرسم رقم (٣) و(٤)).

وفي مجال النسيج ، فالى جانب الاصناف التقليدية كالحرير ابتكر المسلمون انسجة جديدة كالموصلين والدمسق والتفتا والفسطان (وهذه الكلمات مشتقة من المدن التي كانت تصنع فيها هذه المنسوجات كالموصل ودمشق والفسطاط ، اما التفتا فهي فارسية ومعناها القماش الحريري) .

ويغلب على نقوش المنسوجات تصميمات من الزهور والفواكة تنطوي على اشكال هندسية او طبيعية .

اشتهر العمال الفنيون العرب باختراعهم تمويج الفولاذ وتزيينه، وبنقش المعادن وتزيينها بالذهب والفضة . وهذا يعني تغطية الاواني المعدنية بزخارف «الارابسك» أو بالاشكال الهندسية او الخطوط العربية .

وتوصل الفنيون العرب الى نتائج مذهلة في تزيين اغلفة الكتب واستوردوا الاصول الفنية في التزيين على طريقة المكبس. وكانوا يختمون الاغلفة بأختام ملونة ، ثم كانوا يملأون التجاويف بالذهب ، ويزخرفون الورقة الاخيرة في غلاف الكتابة ونهاية الصفحات بشكل يدعو للاعجاب .

وكان لفن الخط العربي مكانة تفوق في عظمتها كل فنون الرسم ، وكان مرجع ذلك الى توخي الخطاط ان يصل الى اجمل النسخ للقرآن . كان الخطاطون يبدعون في تفننهم في الخط الى درجة انهم توصلوا الى رسوم مصغرة للحيوانات نتيجة تلاعبهم بالحرف العربي وطريقة التوائه .

وللسجاد في الشرق تاريخ طويل وكان يستخدم للنوم عليه او لتعليقه قبل ان يستخدم لفرشه على الارض . وفي ايران بلغت صناعة السجاد قمة مجدها في القرن السادس عشر . الا ان المغرب العربي وبقية الاقطار العربية لها كذلك صناعتها المرموقة

في مجال السجاد . الرسم رقم (٥) و (٦)

كانت نقوش السجاد تتدرج مــن التصورات المجازية الى التصميمات الواقعية ، كمشهد صيد او منظر حديقة، وصورت على بعض السجاد اشياء تتصل بالمساجد كالابريق والمصابيح .

ظهر علم «شعارات النبالة» (الرنوك) مبكرا عند المسلميــن، وربما في وقت مبكر بالنسبة لاوروبا . ويتميــز علـم الرنوك الاسلامي في القرون الوسطى عن زميله في اوروبــا بأن الرنــوك الاسلامية كانت تمثل المراكز الرسمية التي يشغلها الناس وليس النسب العائلي .

١١ ـ التعليم :

لم تعرف فترة ما قبل الاسلام مؤسسات تعليمية وسمية . وفي القرن الاول بعد وفاة النبي محمــد بدأ التعليم يشق طريقــه في انعقاد الحلقات في الجوامع لقراءة القرآن الكريم وشرحه مــع الحديث .

وقد استمرت لفترة من الزمن في ظل الحكم الاسلامي تلــك المؤسسات التعليمية ذات الاصل غير العربي كمدرسة جنديسابور في الجنوب الغربي من بلاد فارس .

وسرعان مــا انتشرت الكتاتيب في ظل المساجد . كــان الكتاب يعلم القراءة والكتابة من خلال القرآن الذي هــو الكتــاب المتداول ، والذي لا بد مــن حفظه كاملا للبحاثة في اول الامر .

اما ابناء الاسرة الحاكمة وابناء الاثرياء فكانوا يتلقون تعليمهم على يــد « المؤدب » . كــان المنهاج الذي يدرس منهاج المدارس الابتدائيــة مضافا اليه بعض الاهتمام بالادب ، وبالتاريخ والاخلاق احيانا ، وهذا النمط في التعليم كان يسمى « الادب » .

اول مؤسسة للتعليم العالي في الاسلام كانت « بيت الحكمة » الذي انشأه الخليفــة المأمون عام ٨٣٠ م في بغداد ، وكان يستخدم

مركزا للترجمة ، وقد ضم كذلك مكتبة ، ومرصدا متصلا به .

ووجدت كذلك مؤسسة مشهورة للتعليم العالي هي «الازهر» الذي لا يزال يعمل حتى يومنا . وقد اسسه جوهر الصقلي عام ٩٧٢ م ليكون جامع المدينة الجديدة « القاهرة » وكان جوهر هذا قائد جيش الخليفة الفاطمي « المعز » .

بدات الدراسة في الازهر منذ عام ٩٧٥ م وقد اراد الفاطميون للمؤسسة الجديدة ان تتوسع بالعقيدة الاسماعيلية . وفيما بعد حول صلاح الدين خلال حكمه (١١٦٩ م ـ ١١٩٣م) الازهر الى مركز للتدريس على طريقة السنة . وهكذا اصبح للازهر مكانته المرموقة . الرسم رقم (٧)

في القرن الحادي عشر ازدهرت انواع جديدة من التعليم بظهور (المدارس) . وكان هدف المدرسة في الاساس تدريس الدين ، وكانت تسد مسد المدرسة الثانوية والجامعة في عصرنا الحاضر .

اصبحت المدرسة النظامية نموذجا للمؤسسات التعليمية العالية في الاسلام فيما بعد ، وقد سميت على اسم مؤسسها نظام الملك (الوزير الفارسي للسلاطين السلاجقة ، ألب ارسلان، ملك شاه ، وولي عمر الخيام) وكان تأسيسها عام ١٠٦٦ م في بغداد . وكانت تدرس فيها مادتان اساسيتان هما العلوم الدينية وفقه الشريعة ، تليهما الدراسات اللغوية المبنية على القرآن ثم الشعر القديم وكان يتوفر لطلابها الطعام والمأوى ويحظى بعضهم بالمنح الدراسية .

وظهرت مدرسة اخرى هي « المدرسة المستنصرية » التي اسسها الخليفة العباسي قبل الاخير عام ١٢٣٤ م . وكانت المستنصرية مركزا لتدريس المذاهب الاربعة للسنة . وتضم مبانيها الحمامات والمطابخ والمستشفى والمكتبة . وقد آلت هذه المدرسة الى نهاية مؤسفة حيث تحولت في اواخر ايامها الى مستودع للبضائع . وفي عام ١٩٦٣ تم ترميمها مجددا وتزويدها

بالاثاث اللازم وحوّلت رسميا الى متحف .

انتشرت المدارس في العديد من المدن الاسلامية . وكان المحاضر في هذه المدارس يمنح الطلاب المتخرجين على يده اجازات تخولهم تدريس الموضوعات نفسها بعد ان يتموا تحصيلهم العلمي .

وقد عانت هذه المدارس من نقص خطير واحد هو اغفالها علوم العجم في مناهجها الدراسية وهذا الاغفال غدا عاملا في تقهقر الحضارة الفكرية الاسلامية في القرون الوسطى المتأخرة .

اما التعليم العادي للبالغين فكان يتم في المساجد ، في الحلقات التي يعقدها المحاضر لجمع من الطلاب يعطيهم المواد الدينية والادبية .

لقد ادت المنح الدراسية في البلاد الاسلامية خلال العصر العباسي الى ظهور المكتبات في المدن الكبرى وبخاصة بغداد وقرطبة والقاهرة ودمشق ومشهد . وكانت تلقى فيها المحاضرات والابحاث بحيث تشبه الى حد كبير الاكاديميات .

كما كانت الندوات تعقد في قصور الخلفاء ومنازل الاثرياء الذين يهتمون بالعلم . كانت هذه الندوات الادبية (الصالونات) مراكز هامة للتبادل الثقافي والفكري ، وكانت موضوعات نقاشها في الدين والفلسفة والادب وكانت المساجد غالبا ما تضم مكتبات كما هو الامر في عصرنا . وكان الاثرياء في القرون الوسطى يؤسسون المكتبات كمؤسسات مستقلة يعمل فيها الباحثون وتعقد فيها الندوات الثقافية والمساجلات الفكرية .

وفي ميدان الطب كانت المحاضرات تلقى في المستشفيات وكان الاطباء المدرسون يعيشون في المستشفى ، ويحاضرون في الطب واصول ممارسته كما كان مفهوما في ذلك العصر .

اما في الاماكن التي ليس فيها مستشفى فان المحاضرات الطبية تلقى في الجامع المحلي . وهناك طريقة اخرى لتلقي المعرفة الطبية من خلال التدرب على ممارسة الطب عند طبيب

يعلم طالبه المهنة وفن العلاج .

لم تكن هناك مناهج تعليمية للامتحانات ، وبقي ذلك لمدة طويلة . ولكن ظهرت سجلات للاطباء ــ في ازمنة وامكنة مختلفة ــ تطلبت اجراء امتحانات للاطباء قبل السماح لهم بمزاولة الطب .

اسباب انحطاط الحياة الفكرية عند العرب

على الرغم من ان القرنين الثاني عشر والثالث عشر عرفا اسماء بارزة جدا كالحريري وابن النفيس وياقوت وابن خلدون . الا ان هذين القرنين شهدا تقلصا عاما في النشاط الفكري لدى العرب على نقيض الخطوات الواسعة التي خطتها اوروبا في هذا المجال :

ان عدم الاستقرار السياسي في ذلك العصر ، وغزو الاتراك والمغول ، والانقسامات التي مزقت البلاد العربية ، ادت كلها الى تحول الادمغة العربية عن البحث العلمي والالتفات الى التصوف والتقشف والابتعاد عن الامور الدنيوية .

ولقد تجلى الانحطاط الفكري لدى العرب اكثر في مجال العلوم والتقنية والاسباب التي ادت الى ذلك واضحة الى حد ما . فالمسلمون لم يستطيعوا ان يوفقوا بين العلوم الاغريقية والعلوم الدينية الاسلامية . على عكس الاوروبيين الذين استطاعوا الوصول الى هذا التوافق . وكان رجال الدين الاسلامي يميلون الى عدم تشجيع الاخرين على دراسة العلوم ، حتى انهم حرموا دراستها على انفسهم .

تقبل العرب في أواخر القرن العاشر فكرة الفصل بين فرعي العلوم ، اي علوم العرب وعلوم العجم وبما ان علوم العرب تتصل بالدعوة الاسلامية في حين لا تتصل بها علوم العجم ، فقد

لقيت علوم العرب مزيدا من الرعاية واحتلت مكانة الصدارة وأدى ذلـك الى اهمال علوم العجم فـي مناهج المدارس العربية .

ويعني هذا ان انتشار العلوم الطبيعيـة اعتمد اكثر ما اعتمد على الجهود الشخصيـة من غير تشجيع من المؤسسات العلميـة الكبرى . وهكذا كان انعدام الدعم والتشجيع عائقا كبيرا . كمـا كـان اعتمـاد المشروعات الكبرى على رجل واحد ينهي هـــذه المشروعات في حال موت الرجل .

فمثلا اغلقت مراصد المأمون بعد وفاته . كما توقف العمل في بناء منارة الاسكندرية بموت المسؤول عن مشروع بنائها وهو الملك الناصر الذي حكم بيـن ١٢٩٣ ـ ١٣٢١ م .

وهناك عائق آخر هام يتمثل في انعزال المفكرين المسلمين عن العالم في اواخـر القرون الوسطى فبينمـا كان المسلمون فـي القرنين الثامن والتاسع ممسكين بزمام الفكر اليوناني ويستوعبونه ويضيفـون اليه اخذ الاوروبيـون في اواخر القرون الوسطـى يستوعبون العلوم العربية ويضيفون اليهـا في الوقت الذي لـم يبد فيه المسلمون اي اهتمام بالترجمة عن اللاتينية او بقية اللغات الاوروبيـة كمـا فعلوا قبل ذلـك بنقلهم عن اليونانية .

لقد تقهقرت العلوم العربيـة بعد فترة من الازدهار ، كمـا ان التقنيـة العربية لـم تقطع في تقدمهـا شوطا بعيدا . ولكـن، وعلى الرغم من اهتمام المسلميـن بالمبادىء النظريـة للتقنية فقط فانهم قد قاموا ببعض الاختراعات الفنية الهامة . وقد تبدو هـذه الحقيقـة غريبة . ولكن الحسن بن الهيثم اقترب من اختـــراع العدسات المكبرة واولاد موسى بن شاكر (النصف الثاني من القرن التاسع) اصدروا الكتب التي تبحث في الحيل الفنية لاختـــراع آلات الضخ . ولقد كانت هذه الآلات صغيرة نوعـا ما ولم تستخدم في الاغراض العلميـة .

هذا الاخفاق المحير في تقدم الحضارة الاسلامية يتعارض تقنيـا مع التقدم الاوروبي الحقيقي والبطيء الذي حدث في اوروبا

بين عامي ٥٠٠ م — ١٥٠٠ م . فمنذ القرن السادس بدأت أوروبا تعرف الابتكارات التقنيــة التي هــي اكثر اهميــة من تلك التــي حدثت في العالم البيزنطي ، كالمحراث المتطــور الاكثر فعالية ، والطاحونــة المائيــة التي اختصرت اليد العاملة .

وفي منتصف القرن الرابع عشر جعل اختــراع الســاعــة الآلية اوروبا متفوقــة تقنيا حتى وقتنا الحاضر .

الفصـــل الخـــامس

تأثيرات الحضارة العربية في اوروبــا العصور الوسطـــى

كان للحضارة العربية تأثير كبير في اوروبا . وتظهر جذور هذا التأثير بلا شــك في مفردات الكلمات التي أستعارتهـا اللغات الاوروبيــة من اللغــة العربية . فمثلا في الانكليزيــة نجد الكلمات التاليــة : (١)

Average (معناها غوار ــ أي خطأ) Carat (معناها القيراط)
Coffee (معناها القهوة) Mohair (معناها المخير)
Muslin (معناها الموصلين) Tare (معناها الطرح)
Tariff (معناها التعريف) Magazine (معناها المخزن)

وهذه كلها كلمات ذات تعبير تجاري .

---

(١) تعدد المستشرقة الالمانية زيغريد هونكة ٢٥٠/ كلمة ومصطلحا في الالمانيـة ماخوذة في الاصل عن العربية . في كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب) « المراجـع »

وفي مجال التعبير العلمي نجد :

Algebra (معناها الجبر) Azimuth (معناها السمت)
zenith (معناها سمت الراس) Cipher (معناها الصفر)
Alcohol (معناها الكحول)

اما الكلمات التي تتعلق بالفنون الجميلة فانها تأتي من الحضارة الاسلامية . مثلا :

Lute (معناها العود) Rabec (معناها الرباب)

وهناك العبارات العسكرية مثل :

Arsenal (دار الصناعة) Admiral (امير البحر)

كما ان مجموعات كبيرة من المفردات العربية في اللغات الاوروبية مستمدة من الحضارة الاسلامية مثل :

Caliph (اي الخليفة) Sultan (اي السلطان)
Emir (اي الامير) Cadi (اي القاضي)
Imam (اي الامام) Mufti (اي المفتي)
Mahdi (اي المهدي) Averroism (نسبة الى ابن رشد)
Sufism (اي الصوفية)

لقد عبرت الحضارة العربية الى اوروبا وتركت آثارها من خلال ثلاثة جسور هي بترتيب الاهمية ـ : اسبانيا وصقلية وسورية وفي الجسرين الاولين لعب اليهود دورا هاما كوسطاء وكتجار . اما في الحالة الاخيرة فكان الدور للحروب الصليبية .

تبقى اسبانيا اهم طريق مرت عبره الحضارة العربية الى اوروبا .

ان التأثير العربي الدائم في اسبانيا ثقافيا ولغويا .. لم يكن فقطبسبب تواجد السلطة العربية في هذه البلاد زهاء ثمانية قرون . فان الحضارة العربية تجاوزت اسبانيا الى اوروبا حيث غدت اسبانيا منطلقا لترجمات في الفلسفة العربية والعلوم العربية على نطاق واسع . وذلك في مدينة طليطلة التي استعادها المسيحيون عام ١٠٨٥ م .

. اسس المطران ريمون Raymond في طليطلة في القرن الثاني عشر معهدا لترجمة الاعمال العربية الى اللاتينية وعهد برئاسته الى رئيس الشمامسة دومينيك كانديسالفي Dominic Gandisalvi وفي عام ١٢٥٠ م تأسس في طليطلة اول معهد للدراسات الشرقية وكان هدفه تدريب الارساليات لتوجيهها الى المسلمين واليهود .

واشهر المترجمين في معهد طليطلة : الانكليزيان روبرت الكيتوني (Robert of Ketton) وادلارد الباثي (Adelard of Bath) والايطالي جيرار الكريموني (Gerard of Cremona) الذي ورد ذكره في مقدمة الكتاب .

واشتهر بعض اليهود في اعمال الترجمة في طليطلة مثل ابراهام بن عزرا (Abarham ben Ezru) .

وكانت الثقافة العربية تنتقل كذلك الى اوروبا عن طريق الباحثين الى جنوب فرنسا وتولوز ومرسيليا وناربون ومونبليه .

وشهد القرن العاشر انتقال العلوم العربية بصورة مبكرة الى اللورين (Lothringen) مما جعلها مركزا ثقافيا هاما لمدة قرنين . كما غدت مدن اخرى مراكز للتأثير العربي الحضاري وهي ليبج (Liege) وكورز (gorze) وكولون (Cologne) ومن اللورين انتقلت الثقافة العربية الى اجزاء اخرى من المانيا والى انكلترا . (الرسم رقم (٨))

وكانت صقلية الجسر الثاني الذي اجتازته الحضارة العربية في طريقها الى اوربا . فتح العرب صقلية عام ٩٠٢ م ولكن النورمانديين هاجموها عام ١٠٦٠ م ولم يتمكنوا من بسط كامل نفوذهم عليها ــ كما فعلوا بالجزيرة البريطانية ــ الا عام ١٠٩١ م .

وقد اختلفت سياسة النورمانديين في صقلية عن سياسة القمع التي مارسوها في انكلترا . ولقد شهد القرن الثاني عشر ظهور حضارة مسيحية اسلامية صقلية نتيجة لسياسة اللين

التي اتبعهـا النورماندیون في صقليـة . ولسوء الحظ فان هذه الظاهرة من التعاون الحضاري فريدة في تاريخ العلاقات بين العرب واوروبـا .

اخذ النورمانديون عن العرب اصول احتفالات البلاط . كما اخذوا عنهم آدابهم وعلومهم . واستخدمت اللغـة العربيـة لغـة رسميـة الى جانب اللاتينية واليونانية . وضربت النقـود علـى النمط العربـي .

كان اشهر حكام صقلية فريدريـك الثانـي (١٢١٥ م — ١٢٥٠ م) (Frederich II) الذي اصبح فيمـا بعـد امبراطورا للامبراطوريـة الرومانية المقدسة عام ١٢٢٠ م وملكـا على القدس عام ١٢٢٥ م .

كان فريديريك الثاني وابنه مانفراد (Manfred) يعرفـان العربية قراءة وكتابة . وقد الفا الكتب بالعربيـة وترجمت الـى اللاتينية . وانشأ فريديريك جامعة نابولي عام ١٢٢٤ م واهداها مجموعة كبيرة من الكتب العربية .

وكان للفلاسفة العرب مكانتهم في بلاطه . كما قامت علاقات ودية سياسيـة بينه وبيـن السلطان الكامل محمد (١٢١٨ م — ١٢٣٨ م) وهو ابـن اخي صلاح الدين . وقد تراسلا في امـــور فلسفيـة ورياضية . مما جعل المجمع المسكوني للكنيسة في ليون عام ١٢٤٥ م يتهمه باعتناق الاسلام سرا .

وكانت سوريـة الجسر الثالث للحضارة العربية العابرة الى اوروبا خلال الحروب الصليبيـة .

كان السلاجقة الاتراك قد بدأوا ما يمكن تسميته ـ الهجوم المعاكس للحملات الصليبية ـ حينمـا زحفوا باتجاه الغرب فاحتلوا بغداد عام ١٠٥٥ م والقدس عام ١٠٧٠ م ووضعوا نهاية لسياســة اللين تجاه الرحالة المسيحيين .

وفي عام ١٠٧١ م قهر السلطان السلجوقي « الب ارسلان » الامبراطور البيزنطي ديوجينس رومانوس (Diogenes Romanus)

في معركة ملاذكرد . وانتهى بذلك النفوذ البيزنطي في آسيا الصغرى . وعلى الرغم من الانشقاق الكنسي النهائي بين الشرق والغرب عام ١٠٥٤ م فقد ناشد الامبراطور الكسيوس كومينوس (Alexius Commenus) عام ١٠٩٤ م الكاثوليك الغربيين لمساعدته ضد المسلمين ووجد هذا الطلب اذنا صاغية لدى البابا اربان الثاني (Urban II) الذي خطب في الناس يحثهم على خوض الحرب الصليبية الاولى عام ١٠٩٥ م .

وكان الامبراطور الكسيوس عازما على تجنيد مرتزقة وقيادتهم تحت أمرته رافعا شعار « مسيحيو الغرب يساعدون مسيحيي الشرق » . ولكن هذه الجيوش كانت لها اهميتها المستقلة فقد اعادت للرومان القسم الغربي من آسيا الصغرى ثم تقدمت صوب سورية فاحتلت القدس عام ١٠٩٩ م . وتأسست نتيجة لهذه الحملة الصليبية اربع امارات يحكمها المسيحيون هي : الرها وطرابلس وانطاكية وبيت المقدس .

وهكذا غدت سورية التي احتلها الصليبيون جسرا للتأثير الحضاري العربي في اوروبا في المجالات التجارية والعسكرية والزراعية والصناعية . اما في مجالات العلوم والفلسفة فلم يكن لسورية كبير تأثير في نقل الحضارة العربية الى اوروبا .

الى جانب ذلك فان الادب الاوروبي اغتنى بما نقلته الحملات الصليبية الى اوروبا من الفن القصصي والاسطوري للحضارتين البيزنطية والعربية .

وكان للتجار الفضل الكبير في نقل الثقافة الاسلامية الى اوروبا عن طريق سورية في زمن الصليبيين فقد كانت الطرق التجارية الاسلامية تنطلق من سورية والبحر الاسود وبعد ذلك صوب المدن التجارية الإيطالية مثل جنوه ولوكا والبندقية وكانت البضائع تنقل عبر جبال الالب الى المراكز التجارية الكبرى في اوروبا مثل اوكسبورغ (Augsberg) ونورنبرغ (Nurnburg) واولم (Ulm) وريجنسبرغ

(Regensberg) وغيرهـــا .

اما الطرق التجاريـــة الشرقيـــة فكانت تنطلق من المناطـــق الشرقيـــة للبلاد الاسلاميـــة عبر روسيـــا والى بلدان شرق اوروبا. وكان نهر الفولغا اهم الانهار التجارية . وان قطـــع النقود العربية التي عثر عليهـــا بكميـــات كبيرة في بلاد اوروبا الشرقيـــة وبخاصة السويـــد ومنطقة فلاديمير الروسية وبروسيا وبومرانيا وملكينبرغ ويوركشير فـــي انكلترا تشهد على الازدهار التجاري عبر الطـــرق الشرقيـــة الى اوروبا . وتعـــود هذه النقـــود الى القرنين التاسع والعـــاشر .

وقد لعب اليهود دورا هامـــا في نقل الثقافـــة الاسلامية الى اوروبـــا لانهم كانوا رحالين تجارا .

الفلسفـــة :

اول مـــا وصل من التيارات الفلسفيـــة العربيـــة الى اوروبا كـــان الترجمـــات اللاتينية عن الكتب الفلسفية العربية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . ويتجلى التأثير الفلسفي العربـــي في اعمال تومـــا الاكويني (Thomas Aquinas)(توفي عام ١٢٧٤ م) الذي نلاحظ اوجه الشبه بين افكاره وافكار ابن رشد من جوانب متعددة . كمـــا يظهـــر تأثير الفيلسوف العربي الاخر« الغزالي » على المفكرين المسيحين بشكل بالـــغ . وقد عرفت كتبه في المنطق والفيزياء والميتافيزيقيا نتيجـــة لجهود مترجمي طليطلة في القرن الثاني عشر . كمـــا كانت كتب الكندي والفارابي وابن سينا مألوفة وقد تركت الآراء التي ضمتهـــا هـــــذه الكتب آثارا بعيدة فـــي الغـــرب .

وثاني التيارات الفلسفيـــة العربية التي عرفتهـــا اوروبـــا ، انما جاء في عصر النهضة في شمال ايطاليا . فقد كانت الجامعات الايطاليـــة خلال العصور الوسطى ، كجامعـــة بادوفا وبولونيا ،

تجني ثمار المعرفة الفلسفية لدى ابن رشد متحدية بذلك الكنيسة . وقد استمتعت الفلسفة الرشدية بقمة مجدها بصورة خاصة في عام ١٥٠٠ م وكانت احد العوامل الفكرية التي شكلت خلفية فكرية لاعمال غاليله (توفي ١٦٤٢ م) وبداية لظهور العلوم الاوروبية الحديثة .

اما ثالث هذه التيارات الفلسفية العربية فقد كان له دور في اوروبا في القرن السابع عشر باسهامه في التطورات الفكرية لدى طائفة البروتستانت في شمال اوروبا . كانت العقيدة البروتستانتية تشدد على اعتبار الانجيل المرجع الاول وهذا ما ساعد على زيادة الاقبال على دراسة اللغة العربية لان معرفة هذه اللغة تساهم في القاء الضوء على كتب التوراة العبرية . وقد ادى اهتمام الاوروبيين باللغة العربية الى اكتشافهم كتاب « حي بن يقظان » لابن طفيل الذي كان موضع اهتمام بعض الفئات البروتستانتية .

وقد نشر ادوارد بوكوك (Edward Pocock) استاذ اللغة العربية في جامعة اوكسفورد النسخة العربية لحي بن يقظان للمرة الاولى . وتلاه ابنه ادوار بوكوك (Edward Pocock Junior) فنشر الكتاب باللاتينية عام ١٦٧١ م وفي السنة التالية ترجم الكتاب الى الهولندية . وفي عام ١٦٧٤ م الى الانكليزية . ثم الى الالمانية عام ١٧٢٦ م .

العلوم الطبيعية :

يمكن للمرء ان يستنتج تأثير المسلمين في الغرب في مجال العلوم الطبيعية من خلال التعابير العربية التي استعارها الاوروبيون والانكليز في لغاتهم مثل : (Nadir اي النظر) (Realgar اي رهج الفار) (Elexir اي الاكسير) (Alembic اي الانبيق) (Antimony اي الإثمد) . . .

لقد اغنى الرياضيون العرب العالم بالمعرفة في جميع المجالات وبخاصة الافكار والملاحظات الرياضية .

وأحد اوائل الاوروبيين الذين اخذوا بالارقام العربية كان جربرت (Gerbert) الذي اصبح فيما بعد (في عام٩٩٩م) البابا سلفستر الثاني (ولد ٩٤٥ - توفي ١٠٠٣) . سافر جربرت هذا بين عامي٩٦٧ و ٩٧٠ الى اسبانيا حيث درس العلوم والف بعد ذلك كتابا يشرح فيه كيفية استخدام الارقام العربية . الا ان اوروبا لم تلق بالا الى هذا النظام الجديد . بل كان ينظر الى جربرت بعين الشك لانه درس على يد العرب في اسبانيا . وعلى المستوى الشعبي كان يشك في انه يمارس السحر .

ولقد رويت عنه كثير من الروايات الخارقة . فقيل انه كان يغادر الدير ليلا ويطير في الهواء الى اسبانيا حيث يدرس الفلك والفنون السحرية ، ثم يعود الى حجرته قبل بزوغ الفجر . كما كان يظن بانه تعلم احضار الارواح من جهنم وانه يحتفظ بكتاب سحر حصل عليه بالمكر والخديعة من ساحر عجوز . وانه رهن روحه للشيطان لكي يحميه من انتقام هذا الساحر العجوز.

وبعد فترة طويلة من الزمن تبنت اوربا الارقام العربية نتيجةاعمال ليوناردو فيبوناتشي من بيزا (Leonardo Fibonacci) الذي توفي عام ١٢٤٠ . وكان فيبوناتشي رياضيا درس الرياضيات على يد معلم عربي في شمال افريقيا . واصدر كتابا يشرح فيه نظام الارقام العربية عام ١٢٠٢ وكان ذلك بداية تاريخ تبني اوربا للارقام العربية . وبداية لعلم الرياضيات الاوروبي .

وفي مجال الفيزياء فان اشهر الاعمال في القرون الوسطى « كتاب المناظر » لابن الهيثم الذي يتناول علم البصريات . والاصل العربي للكتاب مفقود إلا ان النسخة المترجمة الى اللاتينية

معروفة في اوروبا باسم (Opticae Theraurus) (٢) ويكاد جميع الذين درسوا علم البصريات يبنسون ابحاثهم على كتاب ابن الهيثم في القرون الوسطى . ويتجلى تأثيره اكثر ما يتجلى في اعمال روجر بيكون (Roger Bacon) الانكليزي وليوناردو دافنشي (Leonardo Da vincie) الايطالي . وجوهان كيبلر (Johann Kepler) الالماني .

من الباحثين الاوروبيين الذين ترجموا علم الفلك العربي الى اللاتينية : ادلارد الباثي الانكليزي (Adelard of Bath) وافلاطون التيفولي (Plato of Tivoli)وجيرار الكريموني (Gerard of Cremona). وقد ترجمت قوائم الزيج والاعمال الفلكية الى غير اللاتينية احيانا ، كترجمة زيج البتاني الى الاسبانية بناء على رغبة الملك الفونسو العاشر (Alfonso X) الذي حكم ليون وقشطالة بين (١٢٥٢ ــ ١٢٨٤) ومن الثابت حقا ان فكرة المرصد اخذتها اوروبا من المسلمين . فالمأمون اسس اول مرصد عربي في القرن التاسع . بينما لم تظهر المراصد الاوروبية حتى في القرن السادس عشر . واحد المراصد الاوروبية الاولى المرصد الملكي الذي اسسه الكونت وايلهلم الرابع (Wilhelm IV) في مدينة كاسيل (Kassel) . وكان التسابق الاوروبي في انشاء المراصد مدفوعا بالتأثير العربي كما ساهمت عوامل مشتركة بين العرب والاوروبيين في هذا التسابق الزمني . منها اهتمام كل من العرب والاوروبيين بزيادة دقة الادوات الفلكية ، الى جانب اهتمام كل من الجانبين بدعم السلطة المادي لوجود هذه المراصد واهتمامها كذلك برسم

---

(٢) توجد نسخة مخطوطة بالعربية من « كتاب المناظر » مؤلفة من سبعة اجزاء في مكتبة « اياصوفيا » كما توجد ستة اجزاء مخطوطة في مكتبة «الفاتح» والجزء السابع المفقود في مكتبة (طوب قابو سراي) في استانبول . كتاب «الحسن بن الهيثم» لاحمد سعيد الدمرداش ص ٢٧ «المراجع» .

الجداول الفلكية، الا ان اهم الدوافع التي حدت بالعرب والاوروبيين الى انشاء المراصد تكمن في رغبة كل منهم باصدار التقويم الصحيح ، وحسن الملاحة وضمان سير السفن ، وأخيراً الآمال الخادعة التي لوح بها علم التنجيم .

وفي علم الكيمياء ، فعلى الرغم من ان مصادر الاوروبيين كانت اعجمية ، الا ان التأثير العربي في اوروبا كان أكبر مصدر لها في هذا المجال . واشهر الاعمال التي اثرت في الكيمياء الاوروبية كانت مؤلفات جابر بن حيان الذي علم اوروبا عمليات التكليس والتبخير والتصفية والتقطير والتبلور وتحضير الكثير من المواد الكيماوية مثل كبريتيد الزئبق واوكسيد الزرنيخ والشبوالقلي. وكانت مؤلفات جابر (او المؤلفات التي نسبت اليه) اشهر ما تداوله الاوروبيون في علم الكيمياء حتى القرن الثامن عشر . كما كان لمؤلفات الرازي شهرتها مثل « سر الاسرار » الذي نقله جيرارد الى اللاتينية .

كثير من الادوات التي استخدمت قديما في الكيمياء انتقلت الى الكيمياء الحديثة واشهرها الفرن والانبيق ، ولا تزال المعدات العربية في مجال الكيمياء والتي انتقلت الى الكيمياء الحديثة تحمل اسماءها العربية الاصيلة . وحوالي عام ١٦٠٠ كانت هناك مجموعة من الكيمياويين الذين واصلوا عملهم صارفين النظر عن البحث في تحويل المعادن الى ذهب . وقد سجل ذلك تاريخ ولادة الكيمياء الحديثة وفي الوقت نفسه نجد اولى المحاولات العلمية في مجال الكيمياء الصناعية في اوروبا . واستخدمت في هذا المجال الطرق المتطورة التي كانت تستخدم في الكيمياء القديمة . وقد ادى ذلك الى وجود الكيمياويين الحديثيين .

وفي علم النبات اسهم العرب كثيرا في القرون الوسطى في نقلهم علوم ديوسقريدس . وفي كتاب ابن البيطار « الجامع في الادوية المفردة» الذي كان اشهر كتاب في القرون الوسطى في علم النبات وقد استفيد كثيرا من نسخته المترجمة الى اللاتينية.

ونشرت اجزاء منه في كريمونا عام ١٧٥٨ .

الطب :

تبنت اوروبا في القرون الوسطى نظام الطب العربي ــ الذي كانت معظم مصادره اغريقية ــ وذلك لكونه متفوقا على الطب الاوروبي الذي كان وقتها عبارة عن سحر ودجل وتعاويذ .

لم تتغير نظرية الطب عند العرب عما كانت عليه عند الاغريق. رغم أن بعض الاطباء العرب انتقدوا بعض الاخطاء الطبية اليونانية. وفي مجال العلاج تقدم العرب كثيرا وانتقل هذا التقدم الى اوروبا فيما بعد .

اما تدريس الطب عند العرب فقد انتشر في مجالات اوسع مما انتشر في زمن اية حضارة سابقة ولم يكن ذلك فقط بالمحاضرات التي تلقى في المستشفيات وغيرها بل كان في مقدرة الاطباء العرب على تقديم الملخصات والموجزات الطبية في موضوعات معينة لمنفعة الطلاب ، وتقديم كتب مرشدة موجزة ليستخدمها الاطباء العاملون . كما اظهر تقدما كبيرا في مجال الجراحة العامة التي استفاد منها الغرب . وبعض العمليات الجراحية التي وصفها العرب في القرون الوسطى بقيت تجري حتى القرن الثامن عشر . ومن الادوات الجراحية العربية التي انتقلت الى اوروبا : المحط الجوفي ، وادوات الكي، وادوات ثقب عظام الجمجمة ، وعمليات العين . (الرسم رقم (٩)) .

كما انتقلت انجازات العرب في ميادين تنظيم الطب والابنية الطبية وتأسيس المستشفيات التي مر وصفها فيما سبق في الكتاب .

كان ما وصل اليه العرب في انجازاتهم الطبية يفوق ما وصل اليه الغرب . وكان المترجمون الغربيون الذين عانوا ما عانوه في نقل التراث الطبي العربي الى لغاتهم كان ينظر اليهم كأناس غير

عاديين وكثيرا ما كان يظن انهم يمارسون السحر . وقد اشرنا الى البابا سلفستر الثاني . وهناك مايكل سكوت (توفي ١٢٣٥) (Michael Scot) المشهور رغم نشأته الغامضة. والذي يعتقد انه ولد في دورهام (من والدين اسكتلنديين) والذي رويت عنه قصص خيالية تقول احداها انه كان يسافر الى باريس على ظهر حصان اسود طائر كانت حوافره تجعل اجراس باريس تقرع جميعا . اما الحقائق الثابتة عن حياته فكانت خيالية كالقصص المروية عنه . بدأ حياته العملية في طليطلة عام ١٢١٧ حيث انهى ترجمته «لكتاب الحياة » للبتروحي اما كيف ذهب الى اسبانيا وكيف تعلم العربية فهذا غامض . بعد ثلاث سنوات وصل مدينة بولونيا في ايطاليا ليمارس فيها الطب وقد انعم عليه البابا هونريوس الثالث فأوصى به رئيس اساقفة كانتربري ليرتب له دخلا من اوقاف الكنيسة . وفعلا حصل على دخل من كنيسة انكلترا عام ١٢٢٤ . وفي عام ١٢٣٠ عاد مايكل سكوت الى انكلترا ولا بد انه مكث فيها فترة كافية سمحت لمواطنيه ان ينسجوا حوله القصص الخيالية التي رووها عنه . وقد زعموا انه بنى جسر ويستمورلاند خلال ليلة واحدة بمساعدة السحر العربي ، كما زعم ان العفاريت بنت كنيسة بولتون بأمر من مايكل سكوت .

وفي النهاية استقر مايكل سكوت في صقلية حيث اصبح عالما فلكيا في بلاط الامبراطور فريدريك الثاني الذي اهداه كتبه التي اصدرها فيما بعد .

الموسيقى :

اعطى العرب الاوروبيين اشياء كثيرة في مجال الفن الموسيقي والادوات الموسيقية ، فقد اخذ الاوروبيون عن العرب الآلات الموسيقية بأسمائها العربية ، مثل : (Lute اي العود و Rebec اي الربابة ، و Guitar اي القيثارة ، و Naker اي النقارة و Timbal اي الطبل ، و kanoon اي القانون)

كما اخترع العرب العتب (٣) الموسيقي اي الفرض الموسيقي .

لقد قدم المغنون العرب الالحان الموسيقية قبل ان يستطيع الاوروبيون وضع هذه الالحان في كتبهم وان ما اولع به العرب من زخرف موسيقي كان بداية لفن التناسق الموسيقي ، ومن المؤكد ان المغنين المسلمين في اسبانيا قد أثروا في نشأة « الراقصين المغاربة » في انكلترا .

وفي القرون الوسطى ترجمت الى اللاتينية مؤلفات الفارابي وابن رشد في النظرية الموسيقية .

وفي القرنين التاسع عشر والعشرين استلهم المؤلفون الموسيقيون الفرنسيون والروس بعض مؤلفاتهم من الموسيقى العربية امثال : موسورسكي وريمنسكي كورساكوف وبالاكريف وماسينيت ودوبوسي وسانت ساين وبوورودين وبرليوز .

كما يلاحظ ان المؤلفين الموسيقيين الاسبان استوحوا الموسيقى المغربية كما فعل غرنادوس Granados في كتابه «اغان مغربية» (Chansons Mauresques) وكما فعل البينز (Albinez) في مقطوعته «الحمراء» (Alhambra) .

التعليم :

هناك ادلة واضحة تشير الى ان مؤسسة (الجامعة) هي من المبتكرات الخالصة للحضارة العربية ، وخلافا لهذه الادلة يحجم الكثير من المؤرخين الغربيين عن الاقرار بأن وجود الشبه بين الجامعات في البلاد العربية واوروبا لم يكن مجرد صدفة . رغم ان احدا منهم لا يجادل في الحقيقة الثابتة القائلة بأن اكثر الكتب الجامعية التي كانت تدرس في جامعات اوروبا انما هي كتب مترجمة عن العربية في القرون الوسطى . واذا لم يكن هناك برهان

---

(٣) آلة كالعود او القيثارة .

آخر على التأثير الثقافي للحضارة الاسلامية في اوروبا المسيحية فيكفي ان ننوه بالارتباط الوثيق جدا بين الجامعات الاوروبية نفسها وبين الثقافة الاسلامية ـ تلك الثقافة التي امدت الجامعات الاوروبية بالكتب الدراسية .

تدل بعض الحقائق على ان القرون الوسطى للاسلام مهدت لنشوء الجامعات في أوروبا الوسطى . فقد نشأت الجامعات العربية وعملت قبل قيام الجامعات في اوروبا بأكثر من قرن . لقد اقيم جامع القرويين في فاس عام ٨٥٩ وجامع قرطبة في النصف الاول من القرن العاشر (٤) ، والازهر في القاهرة عام ٩٧٢. أما في اوروبا فإن اولى الجامعات ظهرت بعد ذلك بوقت متأخر نسبيا، وعلى سبيل المثال فان جامعات بولونيا وباريس ومونبليه لم تظهر قبل القرن الحادي عشر .

وقد لعبت الجامعات الاوروبية ـ حين ظهورها ـ دورا مماثلا لمثيلاتها في البلاد العربية . فكان الطلاب ينتظمون في مجموعات بحسب جنسياتهم تسهيلا لاستيعابهم في الجامعة . ففي الازهر مثلا هناك رواق المغرب ، او العراق او مصر العليا .. وهكذا. وفي جامعة باريس هناك مجموعة الطلاب الانكليز ومجموعة الفلمنك .. وهكذا . وما زالت بقايا هذا النظام متبعة في جامعة اوكسفورد ولينكن ورستر وهارتفورد .. الخ ..

ووجه الشبه الاخر بين الجامعات العربية والاوروبية تمثل في التقليد القاضي بلباس اردية خاصة للاساتذة خلال المحاضرات او لبعض الاعمال الادارية وان الرداء الجامعي المميز عادة متبعة في اهم مراكز التعليم في البلاد العربية قبل ان يصبح عادة في الجامعة الاوروبية .

---

(٤) بني هذا الجامع سنة (٧٨٥) على يد عبدالرحمن الداخل مؤسس الدولة الاموية في الاندلس ثم اضيفت اليه اصلاحات وابنية اخرى خلال القرون التالية . « المراجع » .

ومن ناحية ثانية فان تجوال الباحثين في البلاد كان عـادة متبعة في البلاد العربية ثم اصبح عادة في البلاد الاوروبية كذلك . كما ان هجرة الباحثين الجامعيين من مركز علمي الى آخر كانـت امرا متبعا بين المثقفين العرب . وقد مهدت هذه الهجرة الطريـق الى ادخال نظام منح الاجازات الجامعية المعلمين . فكـان الاستاذ يجيز طالبه بعد ان يتم بنجاح تحصيله الجامعي ، فيمنحه التأهيل والحق في ممارسة تعليم الاخرين ضمن الموضوعات التي درسهـا نفسها . وقد بدأ نظام منح الاجازات الجامعية في اوائل القـرن الثالث للهجرة (القرن التاسع للميلاد) .

اما الباحثون الذين يسافرون طلبا للعلم في بلد بعيد(كقرطبة وبغداد) فان الاجازة الجامعية تكتسي اهمية خاصة لديهم ، فهـي بمثابة جواز سفر وشهادة للتسابق في ميادين العلم المختلفة .

واذا بحثنا في تاريخ منح الاجازات الجامعية الاوروبية رأينا ان بدايتها لم تكن سوى اجازة بالتدريس فحسب (تدعى باللاتينية **Licenta docendi**) .

كانت الجامعات العربية في القرون الوسطى تمارس عملهـا في التعليم والتعلم اكثر من نظيرتها الاوروبية المبكـرة . ولهـذا فليس من المستغرب ان يمنح كل استاذ جامعـي عربـي طلابه اجازاتهم الخاصة بينما يرتبط حق هذا المنح برئيس الجامعة وحده في الجامعات الاوروبية . وفيما عدا ذلك فان القيمة العلميـة للاجازة واحدة في البلاد العربية واوروبا .

هذه السلسلة من اوجه التشابه بين انظمة الجامعات فـي البلاد العربية واوروبا تؤكد على العلاقات المتينة التي كانت قائمة بين الجامعات العربية والاوروبية . وحينما نضيف الى ذلك الدور الكبير الذي لعبته الجامعات الاسبانية في القرون الوسطى كوسيط بين الجامعات العربية والاوروبية فاننا نصل الى ادراك اهميـة الاتصال الذي كان قائما بين اوروبا والشرق .

يقول البروفسور الفريد غليوم اشهر مستشرقي انكلترا في

القرن العشرين :

اننا لو بحثنا في علاقة الجامعات الاوروبية بالجامعات العربية لوجدنا ان هذه العلاقة او هذا الاحتكاك يتجلى في اكثر مما تعنيه الكلمة اللاتينية (Baccalareus) اي الاجازة الجامعية في القرون الوسطى . اما كلمة (Bachelor) في الانكليزية المعاصرة فما هي الا تحريف للاصل اللاتيني . وكانت تعني الطالب الذي يحمل أدنى اجازة في الجامعة .

ويمضي غيلوم الى القول : ان الكلمة (Baccalareus) اللاتينية ليست الا تحريفا للعبارة العربية (بحق الرواية) والتي تعني الحق في التعليم بأذن من الاستاذ الجامعي . الا ان غليوم يصرح انه لم يقع على هذه العبارة فيما طالعه من الوثائق العربية ولذا فان اجتهاده يبقى ضمن حدود التكهن المقبول . الا ان الابحاث الحديثة عثرت على نسخ من الاجازات الجامعية العربية في القرون الوسطى ، تؤكد على ان عبارة (بحق الرواية) استخدمت في هذه الوثائق . ولا تزال جامعة كامبردج تحتفظ باجازة جامعية عربية مبكرة تعود الى عام ١١٤٧ فيها العبارة المذكورة ، اي (بحق الرواية) بينما لم تظهر كلمة (Baccalareus) في الاجازات الاوروبية قبل عام ١٢٣١ ، اي بعد حوالي قرن من الزمن . وهكذا فانه من المرجح ان تكون عبارة (بحق الرواية) قد استخدمها الباحثون المسيحيون في اسبانيا وبالتالي حرفت الى (Baccalareus) في اللاتينية . اي ان حاملها قد اتم بنجاح مرحلة جامعية .

ان الابحاث تدل وتؤكد على ان هذا الشكل الجديد من التعليم اي الجامعة ، في اوروبا في القرون الوسطى ما هو الا اقتباس عن المؤسسات التعليمية التي كانت قائمة في الاسلام .

الفنون :

اثر الفن الاسلامي كثيراً في الفن المسيحي ، واهم خصائص

هذا الفن التوريق كشكل من اشكال الزخرف ، ونتيجة لهـــذا التأثير دعي هذا الفن الاسلامي في اللغات الاوروبية بالارابسـك (Arabesque) اي التوريق .

اما فن العمارة فتميــز بالاقواس والزخارف الدقيقــة المتشابكة والابراج والدماميك ذات الالوان المختلفة ثم استخـــدام الخط العربي كأداة للزخرفة . وكان لهذا كله تأثيره فـــي الفن الاوروبي . وقد اتضح هذا التأثير للفن الاسلامـــي فـي بروج الكنائس في ايطاليا على غرار المآذن في شمال افريقيا. وقـــد صمم السير كريستوفر رين (Christopher Wren) برج كنيسة سانت ماري لوبو St. Mary le - bow في لندن على نمط الفـن الاسلامي . (الرسم رقم (١٠) .

وفي القرون الوسطى تأثرت القلاع الاوروبية بالهندســة المعمارية العسكرية في سورية . ففكرة الكوة لاطلاق القذائف من القلاع اقتبست من القلاع العربية . وقد استخدمت الركائز الممتدة من الجدران الخارجية للقلاع لتحمل رصيفا عاليا فيه فتحة تطلق منها السهام او الزيت الحامي على رؤوس المحاصرين . كمـا تدين القلاع الاوروبية لبناة القلاع العربية ببناء المداخل المخفية . وكانت هذه المداخل تعتمد على استخدام فتحة على شكل زاوية قائمـة تؤدي الى القلعة ، ومهمتها منع العدو الذي احتل البوابة من امكان اطلاق سهامه على ساحة القلعة ، او امكان الهجوم المباشر عليها. الرسم رقم (١١) .

وفي مجال صناعة الخزف . فان روعة الصناعة الاسلاميـة ادت الى تقليدها في اوروبا . وبخاصة ايطاليا وبعـــد ان غـزا المسيحيون اسبانيا للمرة الثانية ازدهرت هناك هذه الصناعة التي تحمل طابع الفكرة الاوروبية الى جانب التقنية الاسلامية ، ويدعى هـــــذا الفـــن بالخـــزف الاسبانـــي المغربـي : (Hispano - Mauresque Vase) . الرسم رقم (١٣) و (١٤) .

كانت صناعة النسيج عند العرب متقدمة على مثيلتها فـــي

اوروبا ، مما حدا باوروبا الى تقليد هذه الصناعة والتصميمات الاسلامية التقليدية التي تحمل اشكال الزهور والفواكة، وقد استلهم الفنانون الاوروبيون هذه الاشكال منذ القرون الوسطى حتى اليوم . وعلى سبيل المثال فقد استوحى وليام موريس (William Morris) تصميماته من الفن الاسلامي .

اما السجاد فلم يكن معروفا في اوروبا حتى القرن الرابع عشر . وكانت السجادات المستوردة من البلاد العربية نادرة وغالية جدا وتعتبر اشياء كمالية . ولذا عمد الاوروبيون الى تقليد هذه الصناعة الشرقية ولكنها لم تنجح تماما في التصميم واللون .

ولقد فتن رسامو اوروبا في عصر النهضة بتصميمات السجاد الشرقي فادخلوها في لوحاتهم . فالفنان هانز هولبين (Hans Holbein) ادخل في لوحاته احد تصميمات السجاد الاسلامي . فعرفت بعد ذلك (بسجاد هولبين) .

واعجبت اوروبا كثيرا بالاعمال الدمشقية من نقش وحفر على المعادن فاستوحى حرفيو البندقية هذه الصناعة الفنية وانتجوا الاواني ذات الزخرفة المعدنية التي تحاكي الفن الاسلامي .

اما صناعة الجلود فكان لها تأثيرها البارز في صناعة اغلفة الكتب في اوروبا، ولقد قلد الاوروبيون التصميمات الفنية في تجليد الكتب وتذهيب اوراقها . كما نقلوا عن العرب فن صناعة ورق الابرو لاستخدامه في تجليد الكتب .

وحتى يومنا هذا فان فناني اوروبا لايزالون يستلهمون الكثير من الفن الاسلامي .

الادب :

في اواخر القرن الحادي عشر ظهر في مقاطعة (بروفانسة) نوع جديد من الشعر الرومانسي ويدل الشبه القائم بين هذا الشعر والشعر العربي في الاندلس على مدى تأثير الشعراء العرب في اسبانيا على شعراء بروفانسة ، وقد انتقل هذا الشعر الى

بروفانسة عن طريق المستعربين المسيحيين الذين يتكلمون العربية واللهجة البروفانسية التي اصبحت فيما بعد اللغة الاسبانية .
كما يحتمل ان يكون شعر ايطاليا المبكر قد تأثر بالشعر العربي في صقلية . ويزعم بعضهم ان بعض افكار دانتي مقتبسة من بعض متصوفي الاندلس . الا ان هذا الامر يثار حوله الجدل .

ومن المؤكد فان بعض القصص العربية الرومانسية قد اثرت في كثير من القصص والحكايات الاوروبية (٥) .

يلاحظ وجود بعض التأثير الشرقي في الادب الانكليزي القديم . وذلك على اقل تقدير في مؤلف (سليمان وزحل) (Solomn and Saturn) الذي يتألف من قصيدتين غير مكتملتين تفصل بينهما قطعة نثرية . وفي هاتين القصيدتين شكل حوار بين سليمان وزحل أمير سورية الذي يطلب من سليمان تفسيرا لصلاة الرب . ويبدو واضحا تأثير الفن القصصي الشعبي العبري والعربي في هاتين القصيدتين .

ظهرت بالانكليزية النسخة المترجمة عن كتاب مبشر بن فاتك: «اراء واقوال الفلاسفة» الذي هو عبارة عن اقوال الفلاسفة القدماء . وقد ترجم هذا الكتاب الى الاسبانية ثم الى اللاتينية فالفرنسية واخيرا الى الانكليزية . وكان هذا اول كتاب يطبع في انكلترا ، وقد قام بطبعه وليام كاكستون (William Caxton) اول ناشر في انكلترا عام ١٤٧٧ .

ان كثيرا من الجدل يثار حول تأثير الشعر العربي في فن المغنين الجوالين (Troubadour) (فهل هذه الكلمة مشتقة من كلمة Trouver الفرنسية . ام من كلمة (طرب) العربية..؟.. وتأثيره في الشعر الغنائي الابداعي (الرومانسي) الاوروبي .

---

(٥) Rolandslied , The Decamerone And The Squire's Tale of Chaucer .

ومن الواضح ـ في ادنى الاحتمالات ـ ان فرص تأثير الشعر العربي على الشعر الغربي متعددة ، وبخاصــــة ان المسيحيـــين والمسلمين عاشوا معا في الاندلس . ومما يدل على مدى احتكاك الغرب بالشرق القرار الذي اتخـذه المجلس الكنســـي عام ١٣٢٢ والقاضي بتحريم استخدام المفنين المسلمين في الكنائس المسيحية. وفي عصر النهضة، برزت في أوروبا نزعة ادبية معارضة للمؤثرات الشرقية . ولكن التأثير الشرقي سرعان ما عاد الى الادب الاوروبي عندما بدأ جـــان انطوان كالان (Jean Antoine Galland) بنشر النسخة الفرنسية من كتاب (الف ليلة وليلة) . وقد حقق هذا الكتاب نجاحا سريعا ومطلقا .

وكان تأثيره في نفوس الاوروبيين كبيرا الى درجة أن بعضهـم راح يؤلف كتبا جديدة وتحمل طابع الكتاب نفسه ويدعون أنهـم ترجموها عن الاصل العربي .

ومنذ مطلع القرن الثاني عشر ترجم (الف ليلة وليلة) الـى اللغات الاوروبية للمرة الثانية ولا يزال محتفظا بشعبيـــة بيـن الاوروبيين حتى الوقت الحاضر . ولا يزال يعتبر من روائع الادب العالمـي . الرسم رقم (١٥) .

كتب هرمان هيس (Hermann Hesse) عن الكتب التي لا غنى للناس عنها في الادب العالمي فقال عن «الف ليلة وليلة»(٦) : انه كتاب لا يستغنى عنه في مجموعة الادب العالمي ، وانه مصـدر للمتعة لا ينضب . وانه كتاب تصويري عالمي ، ورغم ان جميـع الشعوب روت القصص الشعبية الا ان هذا الكتاب الساحر يكفينا .

يحتل كتاب «الف ليلة وليلة» مكانة هامة في تاريـخ الادب الغربي بما يصوره عن الشرق الغامض والساحر ، الشرق الـذي يزخر بالجن والسحرة ، شرق الخلفاء والقضاة والمتصوفة ، شرق

---

(٦) Eine Bibliothek der Weltliteratur , Stuttgart , 1956 , PP. 15 - 16

الكنوز الرائعة والمغامرات المذهلة ، شرق الخوارق والحضارة الغريبة .

فمثلا لقد اصبح بساط الريح ومصباح علاء الدين السحري اداة للخيال عند الاوروبيين ، وان الصورة نصف الخيالية عن الشرق التي اظهرها كتاب (الف ليلة وليلة) غدت مجسمة في الادب الاوروبي .

حاول الناقد الالماني المعاصر (هيغو فون هوفمانستال) (Hugo von Hofmannsthal) ان يتقصى الامور التي تفتن القارىء الغربي بهذا الكتاب فقال : «من يستطيع تفتيت هذه السجادة الشرقية الرائعة ؟ » . ومع ذلك نشعر بالاغراء في دراسة الابداع الفني الذي انتشر في اكثر من الف مكان في الكتاب ليضمن لنا هذه المجموعة الهائلة من الادب الواقعي .

ونحن كلما امعنا في القراءة كلما وهبنا انفسنا لهذا العالم . واضعناها في خضم هذا الشعر الغنائي البسيط .. وكأننا نسبح في بركة جميلة ونشعر بانعدام الوزن . ومع ذلك نحس كأن اجسادنا شيء ساحر .

« تقودنا هذه القصص الى اعمق اعماق الخيال الشعري للشرق ، وكأنها تمضي بنا حقا الى رحم اللغة العربية السري ، ان هذا الكتاب الغامض هو العنصرالعميق للغة العربية والادب العربي . فكل شيء فيه في مغالاة ، وكل شيء فيه يفسر على عدة مستويات، وكأن كل شيء فيه يطفو» ..

« يضم الكتاب نماذج لا توصف من المشاعر الداخلية والوجود الالهي ، وهذا التداخل من الوجود البشري والحيواني والشيطاني مستمر الى آخر الكتاب. ان عالم الكتاب لا يوازيه اي عالم اخر من المرح والشجون . انه لمزيج عجيب من الشخصيات الفقيرة والخلفاء،والصيادين والشياطين والفتاة الجميلة والاحدب . مزيج بين الروح والروح، وبين الجسد والجسد » .

كان لترجمة هذا الكتاب عن العربية في القرن الثامن عشر

ولاتساع الدراسات حوله اثر كبير في الادب الاوروبي وبخاصة الالماني . فان ترجمة ج . فون هامر ـ بركيستول (J. von Hammer Purgstall)لاشعار حافظ الشيرازي قد أوحت للشاعر الالماني الكبير جوته كتابة (ديوان الغرب والشرق)(٧) . وقد حاول جوته ان يقلد النماذج الشعرية العربية والفارسية ولكن بروح غربية .

وقد قطع الذين تلوه شوطا ابعد من ذلك متأثرين بالنزعة الرومانسية فاستعانوا بالقوالب الشعرية الشرقية الدقيقة في شعرهم .

وهكذا دخلت الادب الالماني كلمة (ghazal) ـ الغزال ـ وكان بين الشعراء المشهورين الذين استخدموا الاشكال الشعرية الشرقية الشاعر بلاتن (Platen) .

وقد احرزت بعض هذه القصائد التي افادت من الشكل الشرقي نجاحا خارقا وهكذا ظهر كتاب بوهنستد (Bohnsted) من اغاني الشافعي (Lieder des Mirza Scaffy) في ٣٢ طبعة حتى عام ١٨٧١ . اما في العقد الاول من القرن العشرين فقد ظهر في ١٢٠ طبعة منفصلة . وانتهت هذه النزعة الشرقية في الادب الالماني بظهور تيار الواقعية في الادب .

الى جانب كل ما تقدم ذكره ، فان المادة الادبية العربية لعبت دورا هاما في الادب الانكليزي في القرن التاسع عشر . فنحن نقع على محاكاة صريحة للادب العربي في الشكل والمضمون في روايتي السير ولتر سكوت (The Talisman) و (Ivanhoe) وفي شعر تنسون (Locksley hall)وقصيدةبراونيغ (Muleykeh) التي تحاكي القصيدة العربية اسما وشكلا . وفي (Tales of Alhambra) لواشنطن ارفنغ .

ان تأثير الثقافة العربية لايزال مستمرا في الاداب الغربية

---

(٧) « West - Ustliche Divan »

حتى يومنا هذا بسبب (الف ليلة وليلة) ولا تزال مادة الكتاب تلهم الفنانين وبخاصة في المسرح والتلفزيون . ولا تزال هذه المجموعة من القصص التي يعود عمرها الى عدة قرون تحمل متعة كبيرة.

لم يكن للتاريخ العربي تأثير مباشر على كتابة تاريخ الغرب ولكن بنمو الدراسات الشرقية العلمية في اوروبا في القرن الثامن عشر ساعدت الكتب العربية الضخمة في التاريخ الباحثين الاوروبيين ليتبينوا جوانب كثيرا من العالم من خلال وجهة نظر غير اوروبية .

الفصل السادس

صلات العرب العسكرية والتجارية بأوروبا حتى القرن التاسع عشر

الجهاد :

كان اول احتكاك عسكري بين العرب والرومان ، تلك الحملة التي قام بها القائد الروماني اليوس كالوس عام ٢٤ ق.م ضد العرب ..

وكان الاحتكاك الثاني في الفتوحات العربية التي وجهها الخلفاء الى اوروبا فاستطاعت من القرن السابع حتى التاسع أن تحتل اسبانيا وصقلية وجنوب فرنسا واجزاء من جنوب ايطاليا، واحيانا قواعد في كورسيكا وسردينيا وشمال ايطاليا وسويسرا. الا ان النزاعات السياسية والانشقاقات بين صفوف العرب اضعفت الدولة العربية ومكنت الاوروبيين بالتالي من استعادة اسبانيا وصقلية وجنوب فرنسا وجنوب ايطاليا .. بل مكنتهم من استعمار

سورية لمدة اثناء الحروب الصليبية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر .

وعقب هزيمة الصليبيين اصبح الاتراك حماة الاسلام . وبدلا من استعادة اسبانيا للعرب . فقد غزا الاتراك شرق اوروبا حتى مشارف فيينا . وتقبل العرب الوضع الجديد كارهين .

وعندما ضعفت الامبراطورية العثمانية بدأت اوروبا سلسلة من الحملات لغزو الدول العربية انطلاقا من حملة نابليون على مصر عام ١٧٩٨ . مما جعل العرب يقعون خلال القرن التاسع عشر تحت الحكم الاوروبي بصورة او باخرى . ولم يتبدل الوضع حتى القرن الحالي حيث اصبحت الامور في صالح العرب .

بدأت اولى الحملات الاوروبية ضد العرب عام ٢٤ ق.م. عندما ارسل الامبراطور اوغسطس جيشا من عشرة الاف محارب بقيادة كالوس يضم عددا من العرب الانباط الذين كانوا يسكنون شمال الجزيرة. وكانت الحملة تهدف الى السيطرة على جنوب الجزيرة للافادة من طرقها واستغلال مواردها لمصلحة روما. ومن المحتمل ان يكون الجيش الروماني قد بلغ (مأرب) الا ان قواه خارت بسبب الجوع والعطش مما اجبره على التراجع الى مصر وكانت هذه اول وآخر حملة عسكرية اوروبية ضد العرب .

ولم تستأنف هذه الحملات الا بعد قيام الدولة الاسلامية . وقد بدأ الاحتكاك العسكري وقتها يأخذ شكل غزوات لاراض في اسيا وشمال افريقيا كانت تابعة للامبراطورية الرومانية .

فتح العرب دمشق عام ٦٣٥ وفي العام التالي اكملوا فتح سورية . وفي عام ٦٣٧ فتحوا بيت المقدس . ثم مصر عام ٦٤٢، وقبرص عام ٦٤٨ . الرسم رقم (١٦)

وفي عام ٦٥٥ دمر العرب الاسطول الروماني في المعركة البحرية : «ذات الصواري» وفي عام ٦٦٩ ارسل الخليفة معاوية جيشا بقيادة ابنه يزيد لحصار القسطنطينية. واخفق هذا الحصار ولكن العرب اعادوا الكرة عام ٦٧٤ ومنذ ذلك العام حتى وفاة

معاوية كان العرب يهاجمون القسطنطينية سنويا . ولكن اسوارها المنيعة والنار الاغريقية جعلت العرب يتراجعون دائما . وهذه النار الاغريقية اختراع يقوم على اشتعال سائل فوق سطح الماء، وهذا السائل كان يصنع من البترول المتواجد على سطح الارض في شرق القوقاز ومن فوسفات الكالسيوم . وقد اخترع هذه النار احد الهاربين من سوريا ويدعى (كالينيكوس) .

وفي عام ٦٩٨ فتح حسان بن النعمان الغساني مدينة قرطاجة آخر ممتلكات الرومان في شمال افريقيا . وفي عام ٧١٢ احتل العرب اماسية وفي ٧١٦ تقدموا نحو برجمة .

وكان الحصار العربي الكبير في القسطنطينية عام ٧١٧ ـ ٧١٨ . فقد ارسل الخليفة سليمان بن عبد الملك اخاه مسلمة على راس جيش بكامل عناده . الا انه اخفق بسبب العبقرية العسكرية للامبراطور ليو الثالث وبسبب استخدام الرومان للنار الاغريقية .

وكان العرب ـ في السنوات التي فاتت مباشرة ـ قد غزوا الجانب الاخر من اوروبا في اسبانيا ٧١١ـ٧١٥ ـ وفي الاعوام التي تلت تقدموا شمالا نحو فرنسا الا انهم هزموا في معركة بلاط الشهداء عام ٧٣٢ .

وقد شهدت السنوات الاخيرة من الحكم الاموي عددا من الهزائم للعرب في الاناضول . ففي عام ٧٣٩ هزموا امام الروم في معركة (اكروينون) وفي عام ٧٤٦ غزا الروم قبرص للمرة الثانية. الا ان العرب استمروا يحرزون انتصارات عسكرية هامة ففي عام ٨٢٨ غزوا جزيرة كريت . وبدأت محاولات العرب في غزو ايطاليا عام ٨٤٠ . فاستطاعوا فتح مدينة باري وبقوا فيها حتى عام ٨٧١. وفي عام ٨٤٦ فتحوا اوسيتا ميناء روما. ثم تقدموا لحصار روما نفسها ولكنهم لم يتمكنوا منها . وفي هذه الفترة اقام البابا ليو الرابع سورا خاصا حول كاتدرائية القديس بطرس للدفاع عنها ضد الغزوات العربية وفي عام ٨٦٩ احتل العرب مالطة وبقيت

في يدهم حتى عام ١٠٩٠ حينما احتلها النورمانديون .
وقد استمر الضغط العربي على روما الى درجة اضطر معها البابا يوحنا الثامن الى دفع الجزية لمسلمي صقلية عام ٨٧٨ .
وفي الفترة بين ٨٩١–٨٩٤ حاول بعض عرب الاندلس غزو فرنسا ولو اتيح لهم الدعم الكافي لاحتلوها ولكنهم توقفوا عند فتح مدينة لاكارد ـ فرينه في خليج سان تروبي في جنوب فرنسا. وتسللوا غربا حتى وادي الرون وبسطوا نفوذهم على منطقة الالب وبيدمون . وهنا وفي هذه المنطقة من جبال الالب وقع اول صدام بين الانكليز والعرب قبل الف عام . فقد كان الانكليز يحجون الى روما باعداد كبيرة ، وفي اوائل القرن العاشر قتل كثير منهم على يد الكمائن العربية المنطلقة من مدينة لاكارد ـ فرينه . واخيرا سقطت هذه المدينة بيد الاوروبيين عام ٩٧٢–٩٧٣ واضاع العرب بذلك آخر فرصة لهم لغزو فرنسا .
وفي عام ٩٠٩ عندما سقطت دولة بني الاغلب في تونس بيد الفاطميين اصبحت صقلية ولاية فاطمية واستخدمت قاعدة في الهجوم على ايطاليا . وفي عام ٩٣٤ غزا الاسطول الفاطمي مدينة جنوا .
عينت الدولة الفاطمية في عام ٩٤٨ الحسن بن علي الكلبي واليا على صقلية ولكنه استقل بحكم الجزيرة وورثت سلالته حكمها حتى غزاها النورمانديون بين عام ١٠٦٠ وعام ١٠٩١ واحتلوها واقام فيها روجر مملكة نورماندية تضم جنوب ايطاليا وقد ضمت اليها تونس بين ١١٣٤–١١٥٣ .
شهدت الاربعون عاما الاخيرة من القرن العاشر سلسلة من الحملات البيزنطية ضد العرب . ففي عام ٩٦١ احتل القائد الروماني نيسفوريوس فوكاس جزيرة كريت وتبعتها صقلية وقبرص . وفي عام ٩٦٨ غزا هذا القائد سوريا واحتل انطاكية ورغم عدم تمكنه من احتلال حلب فقد فرض على حاكمها معاهدة تتعهد بموجبها حلب بمحاربة اعداء الامبراطورية البيزنطية وحماية

التجار الروم ودفع ضرائب للامبراطور والسماح ببناء كنائس في حلب .

وفي عام ٩٧٥ عبر جان زميسس ابن اخي فوكاس نهر العاصي واحتل دمشق وبيروت الا انه اخفق في احتلال القدس . واستمرت نجاحات هؤلاء القادة باحتلال الامبراطور باسيل الثاني (٩٧٦ـ١٠٢٥) مدينتي حلب وحمص عام ٩٩٥ وضم سورية كلها ضمن الامبراطورية البيزنطية .

وقد دعت هذه المكاسب التي حققها البيزنطيون الخليفة الفاطمي ان يبعث بالرسل الى القسطنطينية عام ١٠٠٠ للتفاوض واقرار السلام . واتفق الجانبان على اقامة هدنة لمدة عشر سنوات وعلى ان يبقى شمال سورية للبيزنطيين والقدس للفاطميين .

انحطاط الحياة السياسية عند العرب :

بدأت تتضح مظاهر انحطاط الحكم في البلاد الاسلامية ، فان عجز الخليفة عن بسط سلطته على الولايات الاسلامية كان بمثابة تمهيد لتلاشي سلطته عن جميع الامبراطورية خارج العراق .

ففي عام ٩٤٥ تقدم بنو بويه ، وهم فرس شيعة ، نحو العراق فاحتلوا بغدادا وجعلوا من الخليفة حاكما اسميا فحسب، من غير ان يبدوا رغبة بانهاء الخلافة لما يمنحهم وجودها من امتيازات . وفي عهدهم تحقق في الولايات الوسطى نوع من النظام والازدهار لفترة من الزمن ولكن التضعضع الاقتصادي بدأ يجد طريقه الى الدولة بأكملها .

لقد تلاشت التجارة الخارجية مع الصين وروسيا والبلاد الشمالية كما اسهمت قلة الذهب والفضة في خنق التجارة ، الى جانب حياة البذخ التي كان يعيشها البلاط في بغداد والتي لم يرافقها اي تقدم في التقنية او تطور في طرائق استثمار الموارد الزراعية .

وقد اجبرت قلة النقود الحكام ان يفرضوا على الشعب ضرائب تمكنهم من دفع اجور موظفي البلاط وحاشيته كما تركت للولاة الحرية الكاملة في ولاياتهم ـ في مجال الضرائب ـ شريطة ان يؤدوا للخزينة المركزية مبلغا معينا .

وبما ان الحكومة مضطرة لجباية الضرائب لحفظ استمرارها في الحكم فقد كلفت بهذه المهمات عسكريين مما ادى الى تسلطهم على الحكم .

وفي القرن الحادي عشر تعرضت الدولة الاسلامية لعدة حملات من جميع الجبهات قام بها مسلمون وغير مسلمون . ففي اوروبا احرز المسيحيون عدة انتصارات في اسبانيا (فقد سقطت طليطلة في ايديهم عام ١٠٨٥) . ثم استعادوا صقلية بين ١٠٦٠ و ١٠٩١) .

وبين ١٠٦١و١١٤٧ اسس المرابطون ـ وهم من بربر المغرب والسنغال ـ دولتهم في المغرب وامتدت سلطتهم الى الجزء الاسلامي من اسبانيا .

وفي منتصف هذا القرن . اجتاحت موجة البدو من قبائل سليم وهلال الشمال الافريقي من مصر حتى تونس وعاثت في البلاد تخريبا ونهبا ودمرت مدينة القيروان عام ١٠٥٦-١٠٥٧ . وقد ادت غزوتهم التخريبية الى امتداد الصحراء وتوسعها على حساب المدن، وذلك على نقيض الفتح الاسلامي لشمال افريقيا في القرن السابع .

ثم جاءت من اواسط اسيا غزوات قادها الاتراك ، وكان من نتائجها تدفق العبيد المستوردين «المماليك» لاستخدامهم في الاغراض العسكرية والادارية .

كان اول من استخدم هؤلاء الاتراك الخليفة المعتصم (٨٣٣ ـ ٨٤٢). فشكل منهم جيشا كبيرا وجد فيه الخلفاء فيما بعد دعامة لحكمهم ، نظرا لعدم اخلاص هؤلاء الجند لعامة الشعب واعتمادهم

على الخليفة الذي غدا بتبني الانظمة الفارسية في الحكم اشبه بطاغية .

وحينما جاء القرن الحادي عشر بدا الاتراك يدخلون الامبراطورية الاسلامية ليس كعبيد وانما كغزاة بقبائل كاملة تهاجر نحو الجنوب الغربي . وقد عرف هؤلاء بالسلاجقة . وكانوا قد دخلوا في الاسلام في نهاية القرن العاشر .

وفي عام ١٠٣٧ غزا السلاجقة خراسان وانهوا فيها امبراطورية (بني غزنة) وفي عام ١٠٥٥ احتلوا بغداد وانهوا البويهيين . وكان يقودهم طغرلبك . وخلال فترة وجيزة تقدمت جيوشهم نحو البحر المتوسط . واحتلوا بيت المقدس عام ١٠٧١ . ونجحوا في التوغل بعيدا في الاناضول بعد انتصاراتهم في معركة ملاذكرد عام ١٠٧١ .

وهكذا دعيت هذه المنطقة (تركيا) نسبة اليهم . ورغم كونهم من السنة فان الخليفة بقي مجرد رمز خلال حكمهم .

اعتمد السلاجقة في ادارة امورهم على بعض الفرس . واشهر هؤلاء الوزير نظام الملك (١٠١٨-١٠٩٢) الذي نظم الاقطاع في البلاد وقد اتضح ذلك من جباية الضرائب التي تفرض على المزارعين . وقد ادى هذا الى نشوء نظام طبقي جديد في الدولة معتمدا على الاراضي بدلا من المال . وكان الغرض من هذا النظام منح الجيش امتيازات مباشرة من ريع المحاصيل . وقد بدأ العمل به عام ١٠٨٧ واصبح موروثا بعد الوزير نظام الملك .

وفي تلك الفترة اخذت التجارة في التلاشي شيئا فشيئا . ويدل على ذلك تلك المجموعات الكبيرة من النقود العربية التي اكتشفت في اسكاندينافيا والتي لا تعود الى ما بعد القرن الحادي عشر .

وشهد القرن الحادي عشر ظهور طائفة الحشاشين المرعبة . وعندما توفي الخليفة الفاطمي المستنصر بالله (١٠٣٥-١٠٩٤) رفضت الاسماعيلية في ايران تحت امرة الحسن بن الصباح ان

تعترف بالخليفة الجديد المستعلي ، بل اعترفت بنزار الابن الاكبر للمستنصر .

وبما ان نزارا كان سجينا فقد تمكن الحسن بن الصباح أن ينشر الدعوة الجديدة للاسماعيلية بكل حرية . وقد سمي اتباعه (الحشاشين) لتعاطيهم الحشيش. وفي عام ١٠٩٠ اتخذ الحسن من (قلعة الموت) في شمال ايران مقرا له . كما أكثر الاسماعيلية من اتخاذ القلاع في سورية . وبدأت جماعة النزاريين بقيادة (شيخ الجبل) سلسلة من الجرائم والاغتيالات تحت شعار (نزار الامام بالغيب) ضد الحكام المسلمين الذين يعادونهم (١) .

وقد اغتالوا الوزير نظام الملك عام ١٠٩٢ .

وكان الغرض من المدارس التي انشئت في ذلك العهد محاربة بدعة الحشاشين ونشر تعاليم الاسلام الصحيحة .

وبعد اغتيال نظام الملك تصدعت الامبراطورية السلجوقية الى عدة دويلات، علما بأن السلطان السلجوقي بقي في بغداد حتى ١١٩٤ . وكانت هذه التجزئة السياسية عاملا على تواجد الصليبيين في سورية عند وصولهم اليها عام ١٠٩٦ .

الحروب الصليبية

في اوروبا كان يظن بأن الصليبيين ابطال . وقد اسبغت عليهم عبارات التمجيد البطولي الرومانسية . ولكنهم في الواقع ليسوا سوى افظع زمرة سفاكة متعطشة للدماء في تاريخ اوروبا . بدأت الحروب الصليبية كرد على جهاد المسلمين كما كانت ـ الى حد ما ـ نتيجة انتعاش نفوذ الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في القرن العاشر والتي كانت تلك الحروب جزءا من سياستها الخارجية كما كان للصعوبات التي يلاقيها الحجاج المسيحيون دور في اذكاء نار تلك الحروب . تلك الصعوبات التي اقامها الاتراك السلاجقة بعد احتلالهم القدس ١٠٧١ . ولقد ناشد

---

(١) حاولوا اغتيال صلاح الدين الايوبي ولكنه نجا باعجوبة .

الامبراطور الكسوس كوفينوس البابا غريغوري السابع وبعده البابا اربان الثاني ان يتدخلا في ذلك .

وقد بدات حركة الصليبيين تأخذ شكلها بعد خطبة البابا اربان الثاني المشهورة التي القاها في كليرمونت في فرنسا عام ١٠٩٥ والتي انطلقت بعدها الحملة الصليبية الاولى .

كانت الفكرة وراء الحملة فرنسية بحتة بالضرورة . وكان القادة : غودفري دي بيون (٢) وبالدوين (٣) دي فلاندر ، وريموند تولوز (٤) ، وبوهيموند وتانكرد دي أوتراتو ، وروبرت دي نورماندي وستيفان دي بلوا .

ولقد التقت جموعهم عام ١٠٩٧ وزحفوا بجيشهم المؤلف من مئة وخمسين الف مقاتل وغزوا آسيا الصغرى وسورية . وفي عام ١٠٩٩ احتلوا القدس . وقد انشأوا نتيجة هذه الغزوات اربع امارات هي : (الرها) اورفة حاليا و (انطاكية) و (طرابلس الشام) و (مملكة بيت المقدس) .

وهكذا بدأ الاستعمار الاوروبي يأخذ شكله ، واستقر رجال الدين والعسكريون في سورية لفترة طويلة . وبدأ التزاوج بالمسيحيين من ابناء البلاد وبالمسلمات اللواتي تحولن الى الدين المسيحي .

اما رد الفعل الناجح للمسلمين ضد الصليبيين فقد حدث عام ١١٢٧ عندما احتل عماد الدين زنكي ، وهو تركي ، مدينة الموصل وبدأ بناء دولة جديدة امتدت على شمال العراق وسورية (٥) .

---

(٢) جاء اسمه في المصادر العربية «كندفري» .

(٣) جاء اسمه في المصادر العربية «بغدوين» .

(٤) جاء اسمه في المصادر العربية «ريمند» وعرف عند العرب وقتها باسم صنجيل .

(٥) حقق عماد الدين انجازا كبيرا في استعادته امارة الرها والمنطقة المحيطة بها من الصليبيين عام ١١٤٤ .

وفي عام ١١٥٤ ضم ابنه نورالدين زنكي دمشق الى سلطته مواجها بذلك الصليبيين الذين وجدهم قوة متحدة متماسكة . وقد دخل احد ضباطه وهو صلاح‌الدين الايوبي في خدمة الخليفة الفاطمي في القاهرة ، ثم تمكن من انهاء الخلافة الفاطمية فيها عام ١١٧١ ونصب نفسه حاكما على مصر لكنه ابقى على حلفه الواهي مع نورالدين . كما ابقى على ذكر اسم الخليفة العباسي في صلاة الجمعة وسك القطع النقدية باسمه في مصر .

وبعد وفاة نورالدين عام ١١٧٤ ضم صلاح‌الدين سورية الى مصر فألف منهما دولة متحدة .

وفي عام ١١٧٦ منح ملك القدس مقاطعة شرقي الاردن الى اكثر الصليبيين ظلما وشراسة وهو راجينالد دي شاتيون (٦) الذي حقق انتصارا على صلاح‌الدين سنة ١١٧٨ في معركة الرملة . وقد استغل دي شاتيون مركز منطقته في شرقي الاردن في اعمال القرصنة والنهب . وخطط اخيرا لاجراء حملة صليبية، حملة الى البحر الاحمر تستهدف احتلال المدينة المنورة في الحجاز وتدميرها ويقال انه اقسم ان ينتهك حرمة قبر النبي محمد وان يدمر الكعبة في مكة . وقد ارسل عددا من السفن الى البحر الاحمر عام ١١٨٢ .

ورست هذه السفن اول الامر في عيذاب في السودان ، فهاجم جنودها المدينة ونهبوها ثم تابعوا طريقهم لمهاجمة عدة مدن على شواطىء البحر الاحمر . ورست السفن اخيرا في الحجاز عام ١١٨٣ وتقدم الجيش نحو المدينة ، وفي هذه الاثناء ارسل ابو بكر اخو صلاح‌الدين حملة بحرية بقيادة لؤلؤ اشتبكت مع الصليبيين الذين كانوا على مسافة يوم ونصف من المدينة . وقد حوصروا وغلبوا على امرهم . وانتهت وحشية هذه الفترة الهمجية من تاريخ الصليبيين بوحشية يستحقونها . فقد اسر بعضهم واقتيدوا الى

---

(٦) تسمية المصادر العربية «البرنس ارناط» .

المدينــة حيث اعدموا بقطع رؤوسهم . بينمــا اقتيد آخرون الى مدن مصر حيث قطعت رؤوسهم علنا . الا ان دي شاتيون لـم يقع بأسر المسلمين . (الرسم رقم (١٧)

وفي عام ١١٨٧ هاجم صلاح الدين الصليبيين وهزمهم شر هزيمة في معركة حطين ثم استرد القدس منهم . وقد عفا صلاح الدين عــن ملك القدس (غي دي لوسيتيان) . الا انه قتل دي شاتيون بيده . ولم يبق بيــد الصليبيين في تلـك الفترة غيــر المدن الساحلية . (الرسم رقم (١٨) .

وبعد وفاة صلاح الدين عام ١١٩٣ استقلت سورية عن مصر . الا ان مصر بقيت قوية متحدة في وجه الصليبيين . وبقي الايوبيون يحكمونهــا حتى عام ١٢٥٠ .

ورغم الحروب الصليبيــة فقد نشأت علاقات تجاريــة عالمية فــي المناطق التي احتلهــا الصليبيون . فالمستعمرات التي اسسها التجار الاوروبيون تحت حماية الصليبيين استمرت في ظل الحكم الاسلامي ايضــا .

وفي القرن الثالث عشر تعرضت الخلافة العربية لهجــوم قام به المغول. ففي عام ١٢٢١ اتجه جينكزخان لغزو بلاد فارس. وتوفي عام ١٢٢٧ وقد توقفت هجمات المغول فترة وجيزة ثم استؤنفت على يد هولاكــو الذي نصب (خانا اكبر) عـــام ١٢٥٣ وزحف بجيوشه غربا فهزم الاسماعيليين (٧) ودمر قلعة الموت عام ١٢٥٦. ثم احتل بغداد وقتل الخليفة فيها عام ١٢٥٨ .

لم يكــن المغول قد دخلوا الاسلام خلال غزواتهم تلك ــ على نقيض الاتراك ــ وقد نجم عــن غزوتهم للعراق انهيار نظام الــري الذي تعتمد عليه البلاد ، وزوال دور العراق كطريق تجاري بيــن الشرق والغرب بعد ان غدا ولاية في الدولة المغوليــة . وتحــول الطريق التجاري بذلك شمالا الى تركيــا وايران وجنوبا الى مصر.

---

(٧) يرد ذكرهم في المراجع العربية باسم «الحشاشين» .

وقد نجت سورية ومصر (٨) من المغول بفضل المماليك .

في منتصف القرن الثالث عشر قامت سلطة المماليك في مصر ودامت حتى عام ١٥١٧ وقد وحد السلطان المملوكي الرابع بيبرس (١٢٦٠ ــ ١٢٧٧) مصر وسورية واعاد الخلافة العباسية في القاهرة كرمز ليس اكثر وذلك عام ١٢٦١ .

وفي عهد بيبرس كان نظام المماليك اقطاعيا فقد كان الامراء والضباط من المماليك يمنحون ارضا بدلا من المال ، ويحتفظون بهذه الارض طيلة حياتهم او فترة اقل من غير ان يورثوها لذويهم . وكانوا يعيشون في القاهرة مستفيدين من ريع اراضيهم .

كان المماليك اتراكا بصورة عامة . وقد امتزج بهم فيما بعد الشراكسة واجناس اخرى . وصارت التركية لغة رسمية .

كانت مصر تولي اهمية بالغة للتجارة بين اوروبا والشرق الاقصى ، من حيث البضائع التي تستوردها او العائدات التي تجنيها . وقد بلغ الازدهار التجاري ذروته في العهد المملوكي. ولكن هذا الازدهار تلقي ضربة شديدة حينما غزا تيمورلنك سورية عام ١٤٠٠ ــ ١٤٠١ ونهب دمشق ولم تفق سلطة المماليك من هذه الضربة مطلقا . حتى اذا كان عام ١٤٩٨ جاءت الضربة المميتة عندما اكتشف البرتغالي فاسكودي غاما رأس الرجاء الصالح دائرا حول افريقيا مفتتحا بذلك طريقا جديدا بين اوروبا والهند . وقد اقام البرتغاليون مستعمرات لهم في الهند . وهكذا خرجت مصر والبحر والاحمر من الطريق التجاري الهام .

وقد اعلن المماليك الحرب البحرية ضد البرتغاليين . الا انهم

---

(٨) احتل المغول بلاد الشام في البداية ، ثم طردهم المماليك عنها بعد معركة عين جالوت الحاسمة سنة ١٢٦٠ والتي هزم فيها المغول لاول مرة في تاريخهم العسكري .

هزموا في المحيط الهندي وتحطمت السفن العربية نتيجة التفوق البرتغالي في بناء السفن والمعدات الحربية . وقد دخل البرتغاليون البحر الاحمر والخليج العربي . ولم تعد الطرق التجارية بين اوروبا والشرق تمر عبر المشرق العربي الا فيالقرن التاسععشر .
ويمكن لبعض الحوادث ان تعطينا فكرة عن همجية البرتغاليين ووحشيتهم في هجومهم على المسلمين . فخلال الرحلة الثانية لفاسكودي غاما عام ١٥٠١ اسر البرتغاليون سفينة اسلامية في البحر العربي وعلى متنها عدد من اثرياء المسلمين مع اسرهم. وبدلا من اقتيادهم كأسرى فقد فتح البرتغاليون عليهم نيران المدافع لمدة ثمانية ايام . وحينما لم تغرق السفينة اشعلوا فيها النار بمن فيها من المسافرين . وقد اراد فاسكو دي غاما بهذه الجريمة الفظيعة بث الرعب في قلب حاكم كاليكوت وحمله على منح البرتغاليين امتيازات تجارية . ولما رفض الحاكم ذلك عمد فاسكو دي غاما الى أسر ثمانمائة صياد سمك من كاليكوت وقتلهم جميعا في مجزرة رهيبة . ثم فتح نيران المدافع من سفنه على المدينة لمدة يومين . الرسم رقم (١٢) .

في عام ١٥١٧ انهارت دولة المماليك امام هجوم الاتراك العثمانيين ودخلت مصر وبلاد الشام وشمال افريقيا في اطار الامبراطورية العثمانية (٩) .

اصبحت مصر ولاية عثمانية ولكن سمح للمماليك باستثمار اراضيهم واستكمل العثمانيون فتح شمال افريقيا عام ١٥٧٤ . باستثناء المغرب الاقصى . وقلصوا بذلك الوجود الاسباني في الشاطيء الافريقي .

اما في الشرق فقد تمكنت حملة تركية من الاستيلاء على

---

(٩) في الواقع بقي النفوذ السياسي للمماليك عظيما واكتفت السلطة العثمانية بجباية جزية سنوية وتبعية اسمية للباب العالي . واستمر هذا الوضع حتى مجيء محمد علي في القرن التاسع عشر .

غرب الجزيرة العربية وعلى اليمن عام ١٥٣٨ . استأنف العثمانيون الجهاد ضد أوروبا ، هذا الجهاد الذي تخلى عنه العرب . فقد تقدموا الى اوساط اوربا وحاصروا فيينا عام ١٥٢٩ ثم عام ١٦٨٣. وقاموا بسلسلة من الحروب ضد الامبراطورية الفارسية الجديدة (الصفوية) (١٥٠٠ – ١٧٢٢) . وانتزعوا منها العراق عام ١٦٨٣ .

ورغم ان العثمانيين حققوا انتصارات اكثر في اوروبا بعد اخفاقهم في الحصار الثاني لفيينا . فقد بدأ نفوذهم السياسي يتقلص منذ اواخر القرن السابع عشر . فقد ظهرت بداية امارات التقهقر في اواخر القرن السادس عشر نتيجة التفسخ الخلقي للسلاطين وابقاء امور الدولة بأيدي وزراء غير اكفاء ، وانتشار الفساد وانحطاط النظم العسكرية . فبعد تقدم الجيوش العثمانية في اواسط أوروبا اصبح الغزو اصعب ولم تكن هناك اراض جديدة تمنح لموظفي الدولة . كما قويت شوكة الجند واصبح بامكانهم عزل السلاطين وقتما ارادوا . وازدادت الضرائب . ولم تحقق الدولة اية فائدة من النشاط التجاري الهولندي والانكليزي والفرنسي في المشرق .

وقد عانى العرب – باعتبارهم من رعايا الدولة العثمانية – مشاكل هذه الامبراطورية رغم كون الاتراك من المسلمين . فان العرب كانوا خلال اربعة قرون يحقدون على الاتراك . وقد ولد هذا العداء بعض الامثلة العربية :

« اترك الترك ما تركوك ، ان احبوك اكلوك وان غضبوا منك قتلوك » .

القراصنة

في اواخر القرن السادس عشر بلغت الحرب نقطة حرجة بين المسلمين والمسيحيين . تلك الحرب التي استمرت الف

عام . فبعد قرون من الجهاد والصليبية اصبحت مناطق البحر المتوسط موزعة بالتساوي بين الجانبين ولم يحدث تقدم هام يذكر.

وقد استمرت الحرب قرنين آخرين على شكل حملات بحرية بلغت ذروتها في مطلع القرن السادس عشر . وكان النشاط البحري الاسلامي يتركز في مدن الجزائر وتونس وطرابلس وموانىء المغرب وموانىء الدولة العثمانية . وفي الجانب المسيحي كان النشاط يتركز في مالطا يدعمه ملكا اسبانيا وساردينيا ودوق تسكانيا وامير موناكو .

كانت تقوم بهذه الحروب البحرية سفن يملكها افراد من الحكام ، وكان يسمح لها بمهاجمة الاعداء وكان المهاجمون يدعون « القراصنة » وكانوا يقومون بنشاطاتهم بشكل افرادي ، واحيانا بشكل اساطيل وكان هدفهم اسر سفن العدو واخذ ملاحيه وبحارته وبيعهم عبيدا في اسواق النخاسة في مالطا وليفورنو والجزائر والقسطنطينية . وكانت فدية هؤلاء العبيد مبالغ كبيرة من المال .

ومما يؤسف في هذه الحقيقة ان عملية القرصنة كان يقوم بها كلا الجانبين لانها كانت تثرى القراصنة وفي الوقت نفسه كان يعتقد ان الحرب ضد الاعداء تخلص النفس ، واستمرت هذه الحروب طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر وانتهت باستعمار فرنسا للجزائر عام ١٨٣٠ .

خضوع العرب السياسي

كما حدث في بدايات عصر الامبراطورية الاسلامية ، فسرعان ما استقلت بعض الولايات العثمانية لتحكم نفسها ذاتيا مع بقاء التبعية الاسمية للسلطان وهكذا استقلت ولايتا تونس والجزائر ودعي حاكم تونس (الباي) وحاكم الجزائر وطرابلس (الداي) . وقد استطاع العثمانيون ــ في حالة واحدة ــ ان يسيطروا على ولاية ليبيا عام ١٨٣٥ . وفي عام ١٩١١ احتل الطليان ليبيا .

اما الجزائر فقد احتلتها فرنسا عام ١٨٣٠ وكذلك احتلت تونس عام ١٨٨١ .

اما في مصر ، فقد اكره السلطان ـ بعد فترة وجيزة من طرد نابليون ـ على الاعتراف بمحمد علي واليا على مصر عام ١٨٠٦ . ويعني ذلك عمليا انسلاخ مصر عن السلطة العثمانية .

بقي المغرب الاقصى دولة عربية مستقلة حتى عام ١٩١٢ ، اي منذ القرن الثالث عشر (وقد تخلل هذا الاستقلال بعض الاضطراب على يد اسبانيا والبرتغال) .

انقضى عهد البربر الموحدين عام ١٢٦٩ وخلفهم بنو مرين (١٢٦٩ ـ ١٤٦٥) الذين قاموا بجهود كبرى للزحف على اسبانيا ولكنهم اخفقوا .

واستطاع البرتغاليون في اواخر عهد بني مرين اقتطاع عدة موانىء مغربية وبخاصة سبتة ومازاقان وطنجة التي احتلها الامير هنري الملاح لفترة وجيزة .

وجاء بعد ذلك بنو سعد (من سلالة النبي محمد) عام ١٥١٥ . وقد خططوا لغزو البرتغال الا ان ملك البرتغال سبستيان انزل جيشه في طنجة عام ١٥٧٨ لاحتلال المغرب . وهزم السعديون في البداية ولكن ملكهم قاوم الى ان ربح السعديون بعد ان قتل هو والملك البرتغالي .

وجاء بعده المنصور (١٥٧٨ ـ ١٦٠٣) وكان اقوى حاكم في ذلك العهد ، وسع حدوده حتى قلب الصحراء مما جعل اوروبا تعترف به .

وفي عام ١٦٦٠ وثب العلويون (وهم سلالة اخرى من النبي محمد) على السلطة واقصوا بني سعد ولا يزالون يحكمون المغرب حتى اليوم .

حصلت انكلترا عام ١٦٦٢ على مدينة طنجة ، ولم يكن ذلك نتيجة حرب بل حصيلة زواج . فقد كانت طنجة بيد البرتغاليين الذين قدموها كجزء من بائنة كاترين براكانذا

عندما تزوجت الملك الانكليزي شارلس الثاني . وقد عينت في لندن لجنة لادارة امور طنجة ومن اعضائها الامير روبرت ، وصامويل بيبيز وذلك عام ١٦٦٢ وقد جمع بيبيز ثروة كبيرة من عمله هذا .

عندما اخذ الانكليز طنجة علقوا عليها آمالا واسعة ظانين انها ستكون مفتاح افريقيا الذي يجعل المسيحيين يستردون شمال افريقيا . وانها ستتيح للانكليز تأسيس قوة بحرية في البحر المتوسط . وقد بذل الانكليز كثيرا من المال والارواح مما جعل الملك شارلس الثاني يجد ان تكاليف المدينة باهظة فأمر باخلائها سرا . وخصص لذلك اسطولا بحريا بقيادة اللورد دارتموث ومعه امر بهدم المدينة باسوارها وقلاعها ومينائها . وقد تم هذا الهدم عام ١٦٨٣ بعد اخلاء المدينة وتعويض سكانها الانكليز ومغادرة بيبيز مع الاسطول ولم يستطع سلطان المغرب المولى اسماعيل (١٦٧١ ــ ١٧٢٧) ان يمنع هذا العمل .

وبعد اسماعيل عمت الفوضى بسبب تصارع ابنائه على السلطة .

وقد استردت الدولة هيبتها وقوتها على يد محمد بن عبدالله (١٧٥٧ ــ ١٧٩٠) وكان اول حاكم عربي يوقع معاهدة صداقة مع الولايات المتحدة الامريكية . وقد شكره الرئيس الامريكي جورج واشنطن لما اداه من خدمات . اما ابنه سليمان بن محمد (١٧٩٢ ــ ١٨٢٢) فقد قدم للامريكيين قصرا في طنجة لاستخدامه كدار للمفوضية ولا يزالون يستخدمونه حتى الآن .

وكان حفيد سليمان المولى الحسن (١٨٧٣ ــ ١٨٩٤) اهم حكام المغرب في القرن التاسع عشر . فقد ادخل الطباعة الى المغرب وشجع النشر باللغة العربية . وخوفا من وقوع المغرب بيد الاستعمار الفرنسي او الالماني رغب ان توضع البلاد تحت حماية الولايات المتحدة الامريكية ولكن جهوده لم تثمر . وبعد وفاته بعشرين عاما اجبر الفرنسيون ــ بعد كثير من الحيل والالاعيب

ـ السلطان عبدالحفيظ ان يوقع معاهدة فاس التي تضع المغرب تحت الحمايــة الفرنسية .

وفي الجانب الشرقي من الامبراطوريــة العثمانية ظهرت في الجزيرة العربية حركة استقلالية في القــرن الثامن عشر تحــت ستار الاصلاح الديني . وهذه الحركة هي الدعوة الوهابيــة نسبة لصاحبهــا محمد بن عبدالوهاب (١٧٠٣ ـ ١٧٩٢) المنحدر مـن اسرة ذات تاريخ في البحث وعلوم الديـن في عدة مدن في نجد . بدأ ابن عبدالوهاب يعظ الناس وينبههم الى تجنب ما ينافي الاسلام ويدعوهم الى العودة لاتباع خطى السلف ايــام الدعــوة الاولــى للاســلام .

وقد توصل الى اتفاق مع الامير السعودي عام ١٧٤٤ . وقد بسطت الاسرة السعودية نفوذهــا على كثير من المناطق الشرقيــة للجزيرة باسم الوهابية . وفي اوائل القرن التاسع عشر احتــل السعوديون مكــة والمدينة وازعج ذلــك السلطان العثماني محمــود الثاني فاوعز الى محمد علي حاكم مصر بارسال جيش يضع حــدا لتلــك الحركة . وفعلا انهت الحملة المصرية (١٨١٣ ـ ١٨١٨) الوجود الوهابي في الحجاز وحصرته في حدود نجد .

يبدأ التاريخ العربي الحديث باحتلال فرنسا لمصر لمدة ثلاث سنوات من عام ١٧٩٨ حتى ١٨٠١ وان ما يميز السنوات العشرين والمائة التي تلــت هذا الاحتلال هــو تحول حكم البلاد العربيــة من العثمانييــن الى الاوروبيين وبخاصــة انكلترا وفرنسا ، والى حد مــا اسبانيا وايطاليــا .

بدأ ذلــك بالمعاهدة البريطانية المعقودة مع شيوخ الخليــج العربي عام ١٨٢٠ والتي تنص على الحد من اعمال القرصنة ،ولكن هذه المعاهدة رسخت ـ بالتالي ـ السيطرة البريطانية على البلاد .

واحتلت فرنسا الجزائر عام ١٨٣٠ ، وتلا ذلك عدن التــي احتلتها بريطانيا ١٨٣٩ ثم احتلال فرنسا لتونس ١٨٨١ وبريطانيا لمصر ١٨٨٢ وللسودان ١٨٩٦ الذي كــان مستقلا تحت حكم المهدي

منذ ١٨٨٢ وفي ١٩١٢ فرض الفرنسيون حمايتهم على المغرب والطليان حمايتهم على ليبيا .

وقد انتهى الاحتلال العثماني للبلاد العربية عام ١٩١٨ بعد هزيمة الامبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الاولى . وفرضت الامم المتحدة الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان عام ١٩٢٠ والانتداب البريطاني على فلسطين وشرقي الاردن والعراق. وما هذا العمل سوى استعمار يحمل اسما آخر .

وبقيت مملكة الحجاز مستقلة تحت حكم الشريف حسين ومملكة نجد تحت حكم آل سعود ، واليمن تحت حكم الامام يحيى .

وخلال الخمسين عاما التي تلت عام ١٩٢٠ استقلت البلاد العربية بصورة متتابعة . حتى اذا كان الربع الاخير من القرن العشرين لم يبق اي بلد عربي تحت الحكم الفعلي لاوروبا . وهكذا انتهت قرون طويلة من الاستعمار .

علاقات العرب الدبلوماسية باوروبا

بدأت الصلات الدبلوماسية العربية ـ الاوروبية المبكرة عام ٤٧ ق.م.عندما طلب يوليوس قيصر من الملك النبطي مالك الاول ان يزوده بالفرسان . وفي عام ٦٧ م ارسل مالك الثاني الفا من الفرسان وخمسة آلاف من المشاة لمساعدة الامبراطور الروماني تيتوس في هجومه على القدس .

اصبحت دولة تدمر العربية مقاطعة رومانية اثناء حكم الامبراطور هدريان (١١٧ ـ ١٣٨) كما اصبحت دولة الغساسنة العربية تشكل الحدود الشرقية للامبراطورية الرومانية . واشهر ملوك الغساسنة الحارث الثاني (حوالي ٥٢٩ ـ ٥٦٩) وكان الامبراطور جستنيان قد عينه حاكما على جميع القبائل في سورية ثم منحه لقب باتريسيوس ولقب فيلارك (Patricius, Phylarch)

البيزنطيين ويلاحظ ان منح الألقاب الاوروبيـة لبعض العرب قد استمر كعمل دبلوماسي حتى القرن العشريـن فالشيخ سلمان بن حمد خليفة في البحرين منـح لقب (knight Commander) اي قائد الفرسان . لقد قوبل المعروف الـذي اسـداه الحـارث للامبراطور الروماني بمقتل خلفه المنذر بـان شكت الامبراطوريـة به واتهمته بالخيانـة فاسرته واخذته الى القسطنطينية ثم سجنته فـي صقليـة فيمـا بعد .

وقد نشأت علاقات دبلوماسيـة بيـن النبي محمد واوروبا بدافع نشر الدعوة الاسلاميـة في الجزيرة العربية وجميع انحـاء العالم . ويروى ان النبي ارسل ستة رسل الى عدة حكام منهـم الامبراطور البيزنطي وامبراطور الحبشة . وكان السفير الموفد الى الدولة البيزنطيـة قـد قصد بصرى وفيهـا الحاكم الغساني ولكن جماعـة اعترضوا طريقه وقتلوه . وفحوى رسالة النبي مجهـول ولا يمكـن الجزم بانهـا تتضمـن دعوة الامبراطور الى الدخول في الديـن الجديد . وان كان هـذا هـو التقليد المتبع . وقد نشأت هذه العلاقة الدبلوماسية عام ٦٢٩ .

وكان الجهاد يشكل الخلفية الموجهة لهـذه الدبلوماسية . وكانت تبرم المعاهدات بيـن المسلميـن واعدائهم كما حدث فـي الحديبيـة حيث عقـد صلح بيـن المسلمين ومشركي قريش .

وقد عقدت معاهدات وتمت مفاوضات بيـن كل من الدولتين الامويـة والعباسية من جهة والامبراطورية البيزنطية مـن جهـة ثانية . وكانت المعاهدات تنص احيانا على ان يدفع البيزنطيـون الجزية للمسلمين . كمـا نصت بعض المعاهـدات مـع الدولـة العباسية على ان تدفع الامبراطوريـة البيزنطية فدية مقابل اطلاق سراح الاسرى .

وبصورة عامة فقد كان السفراء يتمتعون بالاحترام . امـا الافراد العاديـون الذيـن ينتقلون في اراضي المسلمين فكان عليهم ان يحصلوا على الامـان لينتقلوا بلا ازعاج . ولم يكـن هنـاك

سفارات دائمة بين المسلمين والبيزنطيين ولكن تبادل السفراء كان مستمرا . وفي بعض الحفلات الرسمية في القسطنطينية كان السفراء العرب يدعون لحفلة عشاء على مائدة الامبراطور . كما يدعون احيانا لحضور سباق الخيل ويسمح لهم احيانا بدخول كنيسة القديسة صوفيا . وبالمقابل كان السفراء البيزنطيين يدعون الى الكنائس المسيحية في الاراضي الاسلامية .

كانت اولى العلاقات الدبلوماسية بين العرب واوروبا الغربية تلك التي تمت في عهد المنصور العباسي فقد ارسل الين بيبين الثالث ملك الفرنجة السفراء وعادوا بعد ثلاث سنوات الى العاصمة آخن ومعهم سفراء المنصور . ويعتقد ان المباحثات كانت تدور حول تحالف العباسيين والفرنج ضد الدولة الاموية في اسبانيا . وقد ازدادت هذه الاتصالات في عهد هرون الرشيد وشارلمان .

كما سجل التاريخ عملا دبلوماسيا آخر تمثل في استقبال الامبراطور اوتو العظيم لسفراء عرب في مرسيبرغ عام ٩٥٣ .

وفي القرنين الحادي عشر والثاني عشر نشأ مظهر آخر للتمثيل الدبلوماسي بين العرب واوروبا تجلى في منح الامتيازات وحق السكن للاجانب . وليس هذا بغريب على العرب . وكان هؤلاء الاجانب يستثنون من الانظمة والقوانين المعمول بها محليا ، كما يسمح لهم بالعيش وفق انظمتهم في بلادهم . فالعرب يقولون ان القانون يطبق على الافراد وليس بحسب وجودهم في الارض الاسلامية وانما بحسب انتمائهم القومي والديني . فالشريعة الاسلامية تطبق على المسلمين . وهذا ما يفسر التسامح الديني للمسلمين تجاه الاقلية المسيحية واليهودية التي سمح لها بممارسة حياتها الخاصة .

ولكن ، كان يعيش في البلاد الاسلامية عدد من التجار الاجانب غير المسلمين ولم يكن نظام الامان كافيا لهم . ولذا فقد عرف قانون جديد في منطقة البحر المتوسط في القرنين الحادي

عشر والثاني عشر ويتعلق هذا القانون بالتجار الاجانب ويقوم على تطبيقه قضاة مختصون ينظرون في جميع الدعاوى عدا المتعلقة منها بالعقارات او احكام الاعدام . وكان رئيس الجالية الاجنبية الذي يتولى السلطة فيها يدعى (القنصل) وهي كلمة ايطالية اخذت فيما يبدو من الاصطلاح الاسلامي (وكيل التجار) .

اول اتفاقية تنص على امتيازات للمسلمين او الاوروبيين ابرمت بين تجار جمهورية بيزا الايطالية وبين المغرب عام ١١٣٣ .

وقد احدثت التجارة بين الاوروبيين والمسلمين في القرون الوسطى حالات شاذة حتى ان تجارة الاسلحة ظلت قائمة بين الطرفين خلال الحروب التي نشبت بينهما رغم جهود الحكومات الاوروبية لايقاف ذلك . وقد منحت الامتيازات للتجار المسيحيين من قبل الحكام المسلمين لضمان وصول الاسلحة حتى خلال الحروب الصليبية . وقد استمر ذلك حتى القرن العشرين .

وقد اعتبرت هذه الامتيازات في بعض الاحيان تجاوزا لحقوق الاخرين ومساسا بسيادة الدولة وذلك بدافع من نمو فكرة الاستقلال والسيادة . كما حدث حينما اعتبرت الدولة العثمانية هذه الامتيازات تجاوزا لسيادتها . ولقد قوي هذا الشعور حينما حاولت دول اوروبا القوية ان توسع امتيازات الجاليات الاجنبية في البلاد الاسلامية وبخاصة قوانين الاقلية المسيحية من رعايا الدولة العثمانية . وقد الغى العثمانيون كل هذه‌الامتيازات عند اندلاع الحرب العالمية الاولى .

ادى نظام القضاء القنصلي في الامبراطورية العثمانية الى تأسيس نظام (القضاء المختلط) من الاوروبيين والاتراك وابناء البلاد . وقد عمل كذلك بهذا النظام في مصر . وكان باعثا على تحريك الثورة في نفوس الوطنيين المصريين . ولم يلغ هذا القضاء حتى عام ١٩٤٩ .

لعب نظام الامتيازات دورا في تطور انظمة القضاء في البلدان التي خضعت للامبراطورية العثمانية وحتى القرن التاسع عشر كانت هذه الامتيازات تعتبر خرقا لسيادة البلاد ودافعا للاصلاح القضائي الذي نادى بان حماية التجار لا تستوجب امتيازات اوروبية وانما بامكان القوانين المحلية ان تضمن هذه الحماية .

ومنذ انهيار الامبراطورية العثمانية عام ١٩١٨ كان اهم تمثيل دبلوماسي بين العرب واوروبا ذلك القائم بين فرنسا وانكلترا من جهة والشريف حسين من جهة ثانية اثناء الحرب العالمية الاولى ولقد خدع العرب خديعة منكرة بهذا التمثيل الدبلوماسي وكان ذلك اساس الشكوك العربية بالغرب فيما بعد .

في بداية الحرب قام اللورد كيتشنر وزير الدفاع البريطاني باستكشاف نوايا الشريف حسين فيما اذا كان سينحاز الى تركيا ام سيتحالف مع انكلترا وفرنسا وحينما اجابه الشريف حسين بانه لن ينحاز الى تركيا ، ارسل كيتشنر وعودا تؤكد دعم بريطانيا لاستقلال العرب وتمت مراسلات دبلوماسية بين السير ماكماهون المفوض السياسي البريطاني في مصر وبين الشريف حسين (١٩١٥ ـ ١٩١٦) .

وقد طلب الشريف حسين من ناحية الاعتراف باستقلال المناطق العربية المحيطة به كبلاد الشام والعراق . ووافق ماكماهون على ذلك باستثناء المناطق الغربية من سورية ، من دمشق الى حلب . واكد ماكماهون ان حكومة بريطانيا العظمى لن تعترف باي سلام اذا لم يكن استقلال البلاد العربية عن الاتراك والالمان شرطا اساسيا لذلك السلام .

بعد اشهر قليلة وفي نيسان ١٩١٦ اتفقت بريطانيا وفرنسا وروسيا سرا على اقتسام الامبراطورية العثمانية بما في ذلك البلاد العربية وفي ايار ١٩١٦ اتفقت بريطانيا وفرنسا سرا في معاهدة سايكس ـ بيكو على تحديد حصة كل منهما في مناطق

الإمبراطورية العثمانية بما في ذلك نفوذهما في البلاد العربية .

وقد اكتشف الاتراك تفاصيل هذه المعاهدة السرية ونقلوها الى الشريف حسين الذي طالب بريطانيا بايضاح موقفها (١٠) . وقد اجابت بريطانيا بان مهمة الاتراك هي زرع بذور الشقاق وايهام العرب ان هناك مخططات لدى الحلفاء بشأن البلاد العربية .. وان حكومة جلالة الملك تؤكد وعدها بما يخص تحرير واستقلال العرب .. الخ .. الخ ...

وقد طلب سبعة من الوطنيين العرب من بريطانيا شرحا لموقفها فاصدرت مذكرة تؤكد فيها (ان حكومة جلالة الملك تعترف . بالاستقلال التام للعرب الذين يسكنون المناطق التي كانت مستقلة قبل الحرب) وكذلك المناطق الواقعة تحت النفوذ التركي والتي حررها العرب انفسهم . اما الاراضي التي لا تزال خاضعة للاتراك فقد قالت عنها المذكرة إن الحكومة البريطانية ترغب ان تحصل الشعوب على حريتها بنفسها وستواصل حكومة جلالة الملك مساعيها في هذا الشأن . وقد استقبل العرب ذلك بالفرح والتهليل .

كما نشرت بريطانيا وفرنسا مذكرة مشتركة في ١٩١٨/١١/٧ جاء فيها ان هدف فرنسا وانكلترا هو التحرير الكامل والتام للشعوب التي عانت طويلا من الحكم التركي واقامة حكومات وادارات وطنية تستمد سلطتها من شعوبها .

ورغم هذه الوعود فان الاقطار العربية التي تحررت من الحكم التركي قد قسمت في مؤتمر سان ريمو عام ١٩٢١ بين فرنسا وانكلترا بمقتضى اتفاقية سايكس ــ بيكو المذكورة .

---

(١٠) كشفت الوثائق بعد قيام الثورة في روسيا عام ١٩١٧ ان بريطانيا قد ماطلت في اجابة الشريف حسين حتى عام ١٩١٨ لكسب الوقت وضمان عدم انحياز العرب الى جانب المانيا وتركيا . (المراجع) .

الفصل السابع

الرحالــــة والمستكشفون

يمتد تاريخ الرحلات بين العرب واوروبا الى زمن بعيد ، واذا استثنينا تحركات الجيوش وتبادل السفراء ، فان دوافع هـــذه الرحلات كانت تجاريـــة لدى العرب قديما ، وهـــي اليـــوم تتـــم لتحصيل العلم . اما الاوروبيون فقد كانت رحلاتهم لاداء فريضة الحج في الديار المقدسة ، كما كانت للتجارة والاستكشاف ، وفي العصور الوسطى كان الدافع لتحصيل العلـــم في الاندلس علـــى وجـــه الخصوص .

كان الاغريق يعرفون العرب ، ويعرفون أن بلاد العرب تقع في الطريق التجاريـــة المؤدية الى الهنـــد والصين . وبما أن جنوب الجزيرة العربيـــة كـــان مصدرا للبان والتوابل الاخرى ذات القيمة الكبرى في العالم القديم ، فان المعلومات التي ورد ذكرهـــا لدى كتاب اليونان واللاتين انما وردت من الحكايات والتقارير التـــي يرويهـــا ربابنة السفـــن والتجـــار الذيـــن طرقـــوا الشواطىء العربيـــة .

سيطر العرب بعد فتوحاتهم في القرن السابع على الطرق التجارية ولم تكن هذه الطرق مفتوحة امام الاوروبيين ، الا ان الحجاج الاوروبيين الى القدس اتصلوا بالعرب اتصالا مباشرا عن طريق سورية العربية .

كان اول حاج اوروبي يأتي الى فلسطين الاسلامية المطران اركولف الفرنسي الذي زار القدس بعد وفاة النبي محمد بأقل من اربعين عاما وذلك عام ٦٧٠ ومكث فيها تسعة اشهر . كما زار في رحلته تلك سورية ومصر .

اما اول حاج انكليزي - كما هو مؤرخ - فهو ويليبالد اخر مطارنة لاخستاد . وقد شرع في رحلته الى بيت المقدس حوالي عام ٧٢٢ من هملموت القريبة حاليا من سوثهامبتون . ونزلت جماعته في سورية فقصدت حمص وهناك اشتبه بهم فاعتقلوا، ثم اطلق سراحهم - لحسن الحظ - بمساع من احد الاسبان. ثم تابعوا رحلتهم الى فلسطين . وفي معرض الحديث عن رحلة ويليبالد يرد - للمرةالاولى - ذكر الفكرة القائلة بأن الحج الى الديار المقدسة يغفر الذنوب . وقد اكتسبت هذه الفكرة اهمية كبرى في القرون المتأخرة في ايديولوجية الصليبيين .

وحوالي عام ٨٧٠ قام الزاهب برنارد الحكيم برحلة حج الى القدس وكان اول من وصف اعجوبة اضاءة مصابيح كنيسة قبر السيد المسيح ليلة عيد الفصح .

في عام ٩١٠ اسس دير للرهبان البندكتيين وادى ذلك الى انتشار الاديرة في اوروبا الغربية والتركيز على الاهمية الدينية للحج . مما زاد في عدد الاوروبيين القاصدين الى القدس رغم خطورة الرحلة .

وفي القرن الحادي عشر بلغ عدد الرحلات الاوروبية بقصد الحج ١١٧ رحلة كما يذكر ذلك التاريخ.

وبعد ان انتزع السلاجقة الاتراك السلطة على القدس من يد العرب عام ١٠٧١ تلاشت سياسة اللين مع الحجاج المسيحيين،

وكان الكثير منهم يلاقون الامرين على يد السلاجقة ومن هؤلاء بطرس الناسك الذي عاد الى اوروبا وايد دعوة البابا اربان الثاني للحملة الصليبية وخطب في جموع المسيحيين يحثهم على غزو القدس .

رغم ذلك فان رحلات الحج الى الديار المقدسة لم تتوقف حتى في فترة ١١٩١–١١٩٢ حينما كان الملك ريشارد قلب الاسد يحاول استعادة القدس من صلاح الدين في نطاق الحملة الصليبية الثالثة . فقد كان صلاح الدين يسمح دوما للحجاج بزيارة المدينة المقدسة .

ان الاحقاد الدينية التي نتوقعها بين المسلمين والمسيحيين خلال رحلات الحج لا تذكر امام الصراع الديني بين الطوائف المسيحية ، الذي كان سائدا وقتها في القدس . وتوضح لنا ذلك مشاهدات دانيال رئيس دير رهبان كييف الذي قام برحلته الى الاراضي المقدسة عام ١١٠٦ – ١١٠٧ . كما ذكر ذلك الرحالة الانكليزي هنري موندريل الذي زار القدس عام ١٦٩٧ وسجل ما وصفه بـ « الحقد اللاديني » بين اللاتين والروم في النزاع حول قبر السيد المسيح .

من الغريب ان العرب لم يمنعوا الحجاج الاوروبيين من القيام بزيارة القدس،بل كانوا يحرصون فعلا الا يمسوا الاوروبيين بأذى .

بينما نجد ان بعض الحجاج الى روما من الذين يأتون من شمال اوروبا وبينهم انكليز كانوا يقتلون على ايدي قوات عربية من مدينة لاكارد – فرنسية اثناء حجهم الى روما كما سبق وذكرنا .

كان كثير من الاوروبيين يسافرون الى بلاد المغرب العربي خلال العصور الوسطى وكانت شعوب جنوب اوروبا المشتغلة بالملاحة ترتبط بعلاقات ودية مع العرب رغم انتهاكات القراصنة المسيحيين والمسلمين . وبما ان اسفار العرب الى اوروبا قليلة فان هذه الحال تنطبق على الاوروبيين الى حد كبير .

ولقد جند بعض الحكام المسلمين مرتزقة اوروبيين في جيوشهم، حتى ان احد سلاطين الموحدين استخدم حرسا من الجند المسيحيين في سجلماسة عام ١٢٣٧ اذ كان الاجانب يملكون حرية التنقل في المغرب . وفي عام ١٣٢٠ حصل سفير البندقية على اذن لمواطنيه بالتنقل حيثما شاءوا في تونس .

ومن الناحية الثقافية فان اشهر الرحالة هم اولئك الذين كتبوا حول تجاربهم وشرحوا اراءهم واحكامهم في الشعوب والامكان التي زاروها. وقدموا ذلك لقرائهم الاوروبيين الذين لم يكونوا يحلمون برحلات بعيدة كهذه الرحلات .

وقد كتب احد العبيد المسيحيين مقالة حول المغرب امتعت القارىء الاوروبي ولكنها قدمت صورة مهولة مبالغا فيها عن الظلم والفسوق والقرصنة في المغرب .

ولعل اشهر الذكريات عن الرحلات والمعارك في البلاد العربية ما كتبه جان دي جوانفيل حوالي (١٢٢٤-١٣١٨) عن تجاربه خلال الحملة الصليبية التي قادها الملك الفرنسي لويس . فقد ابحر عام ١٢٤٨ مع ملكه وعاد الى فرنسا عام ١٢٥٤ وقد اهدى كتابه الى الملك . وقد افاض الكتاب في وصف الحروب والمعارك وقدم بعض المعلومات عن المشرق العربي واوضاعه السياسية في تلك الفترة.

اما الرحالة المتأخر لودفيكو دي فاريتما من مدينة رومنا فيتميز بأنه اول مسيحي يزور مكة والمدينة وقد نشر كتابا باللاتينية عن رحلاته في الحجاز وفي اماكن اخرى عام ١٥١١ في ميلانو .

وتفصيل ذلك ان دي فاريتما كان قد ارسل كسفير لحكومة البندقية لتحري افضل الوسائل المؤدية الى تحسين التجارة مع الهند، تلك التجارة التي كان يهددها اكتشاف البرتغال لرأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٨ . وقد حل دي فاريتما في الاسكندرية ثم سافر الى عدة مدن كطرابلس وانطاكية ، ثم قصد الى دمشق وهناك تنكر في زي مملوك مرتد عن المسيحية . واعلن عزمه على

تأدية فريضة الحج . وبعد ادائه الحج ابحر من جدة الى اليمن ؛ وفي عدن اعتقل للاشتباه به كجاسوس برتغالي . لكنه هرب من سجنه وزار ايران عدة مرات، كما زار الهند وجزائر الهند الشرقية وعاد الى اوروبا عن طريق رأس الرجاء الصالح .

ان الاغراء الذي يقدمه كتاب فاريتما للقارىء الاوروبي ليس في احتوائه معلومات مفيدة عن شعوب وعادات غريبة وديانات اخرى . ولكن هذا الاغراء يكمن في تحيزه ضد المسلمين ونزاعته الرهيبة وما اخترعه من مخاوف عن بلاد المسلمين تقشعر لهـا ابدان الاوروبيين .

وبعد مائة عام على مقالات فاريتما نشر جوهان وايلد من نورنبرغ كتابا عن الحجاز سماه (رحلة مسيحي الى الاسر ــ سنة ١٦٠٤) كان جوهان مجندا في الفرقة الملكية لمحاربة الهنغار المتحالفين مع الاتراك . وقد اعتقل وبيع كعبد للاتراك ، وتنقل بين عدة اسياد حتى انتهى به المطاف لدى تاجر فارسي في القاهرة . وقد اصطحبه سيده الى الحجاز ، ثم سافر الى المخا فالقاهرة ، وهنـاك اعتقله سيده،وحاول العودة الى اوروبا الا ان تحطم السفينة اعاقه وافقده كل ما يملك مما اضطره ان يعود الى القاهرة . حيث وفق فـي محاولة ثانية فعاد الى نورنبرغ عبر القسطنطينية وبولندا عـام ١٦١١ .

اما الانكليزي جوزيف بتس من مدينة اكستر فقد اضطرتـه الظروف ان يصبح رحالة . كان في الخامسة عشرة او السادسة عشرة عندما اسره القراصنة الجزائريون في القرن السابع عشر ، وعاش في مدينة الجزائر كعبد لمدة خمسة عشر عاما ذاق فيهـا من سيده العذاب حتى تظاهر بالاسلام . وقد تعلم العربية والتركية وتحدث بهما بطلاقة . وفي عام ١٦٨٠ رافق سيده الى الحجاز . وقد اعتقه سيده فاصبح خادما لديه الى ان تمكن من الهرب الى ليفورنو عبر ازمير . ومن هناك عاد الى انكلترا .

وقد كتب في اواخر ايامه كتابا عن رحلاته اطلق عليه عنوانا

مطولا كعادة تلك الايام وهو (تفصيل امين عن ديانة وعبادات المحمديين)، ويتضمن وصفا لرحلة حج الى مكة المكرمة ومكان مولد النبي محمد ووصفا للمدينة المنورة وقبر النبي هناك .. الخ

واشهر الرحالة الاوروبيين في القرن الثامن عشر هو الالماني كارستن نيبور بلا منازع . وهو اول عالم يصف اجزاء البلاد العربية للاوروبيين . وقد اختاره ملك الدانمارك لقيادة بعثة علمية انيط بها استكشاف الجزيرة العربية وبخاصة اليمن.

وقد ضمت البعثة عالم نبات سويديا ولغويا وطبيبا دانماركيين. وفنانا ومهندس مساحة المانيين (والمهندس هو نيبور نفسه) وخادما سويديا . الرسم رقم (١٩) .

انطلقت البعثة عام ١٧٦١ وقضيت بعض الوقت في مصر قبل شخوصها الى اليمن . وفي اليمن مكثت قرابة عام . ولكن اثنين من رجالها توفيا في أواخر العام فحول الباقون وجهتهم الى بومباي فمات ثالث بعد وصولهم اياها بقليل . ومن ثم عاد نيبور الى اوروبا عن طريق البصرة فبغداد فالموصل فحلب ووصل الى كوبنهاغن عام ١٦٦٧ .

وقد صدرت اولى نتائج ابحاث نيبور في كتاب عام ١٧٧٢ في كوبنهاغن يحمل عنوان (وصف جزيرة العرب) من ملاحظات شخصية واخبار جمعت في البلاد .

وقد قدم هذا الكتاب وصفا مفصلا للبلاد . وتحدث في فصول خاصة عن المناخ والدين والقانون والعلاقات بين الجنسين والضيافة وآداب الطعام وظروف المنزل والملبس واللغة والادب والطب الزراعة .. الخ ..

وهكذا غدا الكتاب بجدارة واحدا من اعظم كتب ادب الرحلات . كما اصبحت الرحلة علامة مميزة في سلسلة الاكتشافات في الشرق العربي وبخاصة الجزيرة العربية .

لقد استمرت الرحلات حتى القرن الحالي . وهناك بعض القصص المروية عن رحلات قام بها افراد متحمسون بمحض ارادتهم

يدفعهم الفضول وحب التعرف الى اقوام غرباء واماكن نائية وهذا من نسميه اليوم (السائح) وقد كتبوا انطباعاتهم بشكل اقل جرأة وتخصصا من الكتب الآنفة الذكر .

في القرنين الماضيين ظهر كثير من كتب الرحلات الى البلاد العربية كانت لدى اصحابها الرغبة في الكتابة عن الشرق الساحر، ويستدل على ذلك من العناوين التي وصفوها لكتبهم مثل (وحيدا في سورية) لالين اي ميلر عام ١٨٩٢ . و (على ضفاف نهر مصر) لنورما لوريمر عام ١٩٠٩ و (بلاد في فجر التاريخ) لـ : هـ.ب هيوز (Hughes) عام ١٩٠١ و (الشرق غير المتحرك) . لـ : ب هالد نشبرغر عام ١٩١٣ و (في الجزيرة العربية المجهولـــة) لـ اي تشيزمان عام ١٩٢٦ . وكثير جداً من الكتب الاخرى .

ونعود الى مطلع القرن التاسع عشر لنلتقي بالرحالة البحاثة الالماني الريخ جاسبر سيتزن . خريج جامعة غنتنغن وصاحب العديد من المقالات والرسائل والمذكرات حول رحلاته .

قام سيتزن برحلته الاولى الى الشرق عام ١٨٠٢ بدءا من القسطنطينية وعبر تركيا الى سورية وفلسطيـن . ماكثا بعض الوقت في ازمير وحلب ودمشق والقدس . معرجا على سينـــاء حيث اقام في دير القديسة كاترينا .

وفي عام ١٨٠٩ نزل جدة فاعلن اسلامـه وقصد الى مكة والمدينة حيث رسم بصورة سرية مخططا للجوامع وما يحيط بها . ثم سافر الى اليمن حاملا اسما مستعارا هو الحاج موسى الحكيم . واقام في المخا اكثر من عام ثم رحل عام ١٨١١ الى صنعاء وبعد يومين لقي حتفه بطريقة غامضة ويقال ان دليله دس له السم .

وهناك رحالة مرموق آخر توجـه الـى غربـي اسيا هو السويسري جوهان لوفينغ بوركهارد . المولود في بال والذي يذكره الناس بكتابه (رحلة في جزيرة العرب) وقد بدأ رحلاته عام ١٨٠٩ بظهوره في مدينة حلب متخفيا بزي تاجر من الهند يحمل اسما مستعارا هو ابراهيم عبدالله . وقد زار سورية وفلسطين والعراق

وفي عام ١٨١٢ وصل القاهرة ومنها اتجه جنوبا حتى النوبة. ثم سافر الى الحجاز فقضى عدة اشهر في مكة ، ثم يمم صوب سيناء عام ١٨١٦ . واخيرا توفي في القاهرة عام ١٩١٧ متسمما بالسمك.

اما ادولف فون ريدي الرحالة الالمانـــي المشهور فقد سرد تجاربه في البلاد العربية في كتابه (رحلة في حضرموت) .

انطلق فون ريدي من المكلا عام ١٨٤٣ مدعيا انه مصري يدعى عبد هود. فقد كان من الخطر على المسيحي الاوروبي ان يتجول في البلاد نظرا لاستنكار الاهالي لضم عدن من قبل بريطانيا الى جانب الكراهية لغير المسلمين .

وقد زعم ريدي انه مصري ويدعى عبد هود وانه ينوي زيارة شفيعه النبي هود . ووصل الى اطراف الربع الخالي ، وكان قـد إنذر بأن الصحراء تحوي بقعا بيضاء تلتهم كل ما يقف فوقهـا. وتحقق من ذلك بنفسه ووصفه بقوله : « رايت ثلاث بقع باهــرة البياض، قمت بتحديد موقعها ومسافاتها هندسـيـا وقد قـال مرشدي : ان الاشباح تسكن هذه البقع وتتغطى برمال تضـم كنوزا تحت امرة هذه الاشباح . وان من يقترب منها يغوص الى الاسفل لذا يجب ان لا تذهب . ولكني لم اكترث بتحذيراته طبعا. وطلبت منه ان يقودني الى تلك البقع طبقا للاتفاق الذي تم بينـي وبيـن جماعته من البدو .

وفي صباح اليوم التالي استدعيت البدو لمرافقتي ولم يكن اقناعهم ميمكنا . لذا عزمت على الذهاب وحدي واخذت معي فادنا وزنه نصف كيلو وحبلا طوله ٣٦٠ قدما وبدأت مسيرتي الخطرة . اقتربت من الحافة بحذر كبير اتفحص الرمال التي وجدتها عبارة عن مسحوق ناعم جدا ، ثم قذفت بالفادن الى آخـر حـد ممكن فغاص فورا ثم اخذت السرعة تتناقص وخلال خمس دقائق ابتلعت الرمال الجائعة الحبل حتى نهايته » .

وعزم فون ريدي بعد هذه الرحلة ان يزور قبر النبي هود ولكنه اعتقل في (سيف) ووصف ذلك بقوله : «وافتعلوا بي بعنف واوثقوا

يدي خلف ظهري واقتادوني الى السلطان محمد عبدالله بن عيسى الاحمودي قائلين له اني جاسوس انكليزي مطالبين باعدامي فورا . وكان تنفيذ حكم الاعدام في وشيكا لولا دخول ادلائي مسرعين وتدخلهم وتهدئتهم ثائرة البدو . وقد سجنت ثلاثة ايام زودت خلالها بما احتاجه . وفي اليوم الثالث جاءني انصاري واخبروني بأنهم فاوضوا البدو شريطة ان اعود الى المكلا وامزق جميع مذكراتي وفي صباح اليوم التالي كنت في رحلة العودة الى المكلا التي وصلتها بعد ١٢ يوما ثم اخذت زورقا الى عدن » .

اما السير ريتشارد بورتون المشهور فهو اقرب الى ان يكون مستشرقا ذكيا . ولكنه كان جاسوسا يعمل لحساب الاستعمار الاوروبي ويشهد على ذلك كتابه المشهور (رحلة حج الى المدينة ومكة) .

ينحدر بورتون هذا من سلالة يلتقي فيها الاصل الانكليزي والايرلندي والسكوتلندي ، وقد امضى طفولته في كل من فرنسا وايطاليا ، وفشل في دراسته في جامعة اكسفورد . وفي الحادية والعشرين من عمره انخرط في خدمة شركة الهند الشرقية . وقضى في الهند سبع سنوات تعلم خلالها خمس لغات هي الفارسية والعربية والهندوستانية والفدجراتية والمراثية . وقد جعله ائتلافه مع العادات الشرقية يتقن التنكر في زي هندي او فارسي او عربي ودفع ذلك رؤساءه الى ان يستخدموه كجاسوس نشيط .

وقد اقترح على الجمعية الملكية الجغرافية بعد عودته من الهند الى انكلترا ان يساعدوه في رحلة من مسقط الى الحجاز عبر الربع الخالي . ووافقت اللجنة على اقتراحه الا انها حددت رحلته الى مكة والمدينة اللتين زارهما عام ١٨٥٣ . وقد فضل بورتون زيارة مدين بدلا من الحجاز ـ من الناحية الجغرافية ـ وذلك عام ١٨٧٧ . وقد زعم ان منطقة مدين تحوي الذهب ولهذا كلف الخديوي اسماعيل بورتون ان يتحرى تلك المنطقة لعل ذهبها يسد ديونه للاوروبيين . كما اراد الخديوي التنقيب عن الفحم ،

وقد احضر بورتون عينات من الصخور الخام تزن خمسا وعشرين طنا . ولكن الخديوي اسماعيل كان قد خلع، ورفض ابنه توفيق تمويل عملية التنقيب .

وهناك الانكليزي تشارلس مونتاكيد داوتي المختلف بشكل كبير عن بقية الرحالة ، وهو من مدينة سافولك وخريج جامعة كامبردج .

طاف داوتي ــ بعد دراسته في عدة جامعات ــ وحيدا سائرا على قدميه جنوب اوروبا ومصر وفلسطين وسيناء واخيرا عزم على زيارة جزيرة العرب وقام بذلك بين ١٨٧٦ــ١٨٧٨ منطلقا من دمشق فالحائل فالطائف .

وبعد مغادرته الجزيرة العربية امضى تسعة اعوام في كتابة تفصيلية عن رحلاته في كتابه الشهير (صحراء الحجاز) الذي أعلن ان غايته من ورائه افتداء الشعب الانكليزي من الرذائل التي وقع فيها اثناء حكم الملكة اليزابيث . وقد غدا هذا الكتاب من روائع الادب الانكليزي . ولعل وصفه للشمس العربية يعطي فكرة عن نثره .

«ليلة الصيف تنتهي» وتشرق الشمس وكأنها تاج من اللهب العدائي من وراء الجبال من الرمال غير المضيافة ، نهار الصحراء لا يبزغ شيئا فشيئا وانما هي الظهيرة خلال ساعة من الشروق ، تصعد الشمس فوق الارض البور وكأنها ملك ظالم . وترمينا بسهام من اشعتها المحرقة ، ولا تكف عن ذلك حتى المساء . ان القبر هو احساسنا بالحرارة تلفح رؤوسنا . وخز مؤلم تحسه الاذن في هذه المنطقة من العالم حتى اصابتها الشمس بسهامها . النهار المتباطىء في خطوة يقترب من غروب الشمس ، والرعاة متعبون من الشمس يقبلون ثانية ليتذوقوا حلاوة المرح والراحة ، وينتهي النهار ، فتبدأ نضرة الليل مع صفاء الهواء الجبلي . ويطل القمر خلال شفافية الجبل ليصبح منارة عظيمة ، واليوم التالي سيكون كالحالي ، فالايام تغرق في شمس الصيف » .

اما من حيث الابحاث التي تناولت منطقة جنوب الجزيرة العربية وتاريخ اليمن فان اشهر الرحالة الاوروبيين كما يبدو لنا هو ادوارد كلاسر النمساوي .

قام كلاسر بين ١٨٨٢–١٨٩٤ بعدة رحلات الى اليمن اكتشف خلالها الكثير من النقوش العربية بلهجات جنوب الجزيرة المتعددة كلهجة سبأ وما الى ذلك ... ولم يكن هذا سهلا ، وقد وصف كلاسر الصعوبات التي لقيها بقوله :

« ان المناطق التي يتواجد فيها الحكم التركي وله فيها قاعدة عسكرية سواء في اليمن او عسير او الاحساء، لا يتعرض فيها الرحالة لمخاطر اكثر مما يلقاه في اية ولاية عثمانية اخرى . ولكن الوضع مختلف في المناطق غير الخاضعة للحكم التركي حيث يعتمد الامر على مزاج امراء القبائل في شمال اليمن وشرقها . وكذلك يختلف الامر في حال وجود امير ذى اهمية او عدم وجوده . وبالتالي فان على الرحالة ان يعقد عشرة اتفاقات او خمسة عشر اتفاقا مع صغار الامراء . واذا حدث وسحب احدهم موافقته فهناك سلسلة من المتاعب اثناء الرحلة لا يستطيع الاوروبي أن يتصورها » .

وفيما بعد تابع عمل كلاسر كل من هيرمان فون فسمان الالماني وكارل راثجن ، وقد تمت اولى الحفريات الاثرية في جنوب الجزيرة العربية من عام ١٩٢٧ حتى عام ١٩٢٨ .

اما من ناحية العرب ، فلم يكن لديهم اهتمام كبير باوروبا قبل القرن التاسع عشر . الا اذا استثنينا احد العرب القلائل الذين زاروا اوروبا واميركا . وهو الياس يوحنا الموصلي الذي طاف اوروبا واميركا في الاعوام ١٦٦٨–١٦٨٣ وتحدث عن انطباعاته في كتاب سماه (رحلة اول شرقي الى اميركا) .

اما في القرن التاسع عشر فقد بدأ بعض العرب برحلاتهم الى اوروبا بدافع الدراسة او التجارة او التداوي او التمثيل الدبلوماسي . ونقل بعضهم انطباعاته الشخصية عن اوروبا الى

اصدقائه فقط . وبعضهم الاخر نشر انطباعاته عن الاشياء التي اكتسبها في اوروبا بدافع من منصبه ونفوذه في بلاده . كما تحدث نفر ثالث عن انطباعاته في كتب لقيت اقبالا كبيرا وتركت تأثيرا واسعا في الثقافة العربية .

اول هؤلاء الرحالة المبكرين رفاعة الطهطاوي الذي كتب (تخليص الابريز في تلخيص باريز) عام ١٨٣٤ . يتحدث فيه عن فرنسا مركزا على النظام السياسي وتوزيع السلطات بين الملك والمجلس النيابي (وكان ذلك اثناء حكم الملك فيليب) . كما تحدث عن المدارس والمعاهد التعليمية مسجلا ملاحظاته حول اهمية تعليم البنات في اوروبا . وقد اتبع هذا الكتاب بتأليف كتاب مدرسي بالعربية هو « المرشد الامين للبنات والبنين » .

ويتضح من تعليقات الطهطاوي انه ادرك الاختلاقات القائمة آنذاك بين التعليم في اوروبا والتعليم في الشرق . فان قاعدة التعليم في اوروبا كانت تؤمن بأن عملية تحصيل المعرفة ومن ثم نقل المعرفة امران لا يستغنى عنهما لتحقيق الاهداف العملية . بينما كان التعليم السائد عند المسلمين يقوم على ان يتمكن طالب العلم مما كان معروفا لينقله بدوره الى طلابه دون تغيير . وقد رأى الطهطاوي ان معرفة ما كان معروفا لدى الطالب الاوروبي انما هي مرحلة لاكتشاف معرفة جديدة والتقدم فيها .

اما من حيث الدين فقد انتقد الفرنسيين بشدة قائلا انهم مسيحيون اسميا ولكنهم لا يمارسون تعاليم دينهم عمليا . وهناك كتاب عربي آخر له اهميته في مجال الرحلات وهو : « الساق على الساق في ما هو الفارياق » لاحمد فارس الشدياق السوري (١) . وقد ركز الشدياق اهتمامه على وصف الحكومات الاوروبية وعملها اليومي ، مبديا تقديره للمؤسسات الحكومية الانكليزية ، الا انه

---

(١) ولد الشدياق في لبنان ، وله في هذا المجال كتابان اخران هما : «كشف المخبا عن فنون اوروبا» و «الواسطة في معرفة احوال مالطة» . (المراجع).

زعم ان جميع المراكز الحكومية في انكلترا انما يحصل عليها اصحابها بالمحاباة والمحسوبيات...

كما اهتم بالتدابير الاجتماعية في كل من فرنسا وانكلترا ، وتحدث عن النظام الاداري في مشافي لندن وباريس ، وعلق على المؤسسات الصحية للمقعدين والفقراء ، ومؤسسات الرفق بالحيوان .

اما فرنسيس مراش السوري الحلبي فقد سافر الى باريس طلبا للعلم ودون تجاربه في كتابه « رحلة الى اوروبا » الذي صدر عام ١٨٦٧ . وقد اعجب مراش بالحرية السياسية التي يتمتع بها الفرنسي . ووصف بدقة النظام السياسي في فرنسا مبينا اعتماده على المساواة بين الجميع لما فيه المصلحة العامة . وهو يرى ان المصلحة تتوخى خمس نقاط هي : زيادة الثقافة والمدارس وتشجيع التجارة ، وازدهار الصناعة بتشجيع المخترعين وزيادة راس المال، وتطوير الزراعة ، وحماية الصحة العامة والملكيات.

وهناك الرحالة التونسي الى اوروبا : خير الدين التونسي الذي قال : في كتابه (اقوم المسالك في معرفة احوال الممالك) ان هدفه لدى القراء العرب ايقاظ المسؤولين وتنبيههم الى واقع المجتمع الاسلامي والمجتمع الاوروبي كما حث العلماء ان ينظروا بعناية الى التقدم الاوروبي ومؤسساته والا ينظروا الى كل شيء اوروبي على انه شر يجب نبذه .

ومما ترك اثره في خير الدين اكثر من سواه فكرة النظام الدستوري في اوروبا بحيث يحد المجلس النيابي من سلطة الملك او رئيس الجمهورية . وقد رأى ان البلاد الاسلامية لو اخذت بهذه الفكرة فان اقتصادها سيتقدم غافلا في هذا المجال عن ان التطور والازدهار في الاقتصاد الاوروبي هو الذي جعل طبقة التجار القوية تحس حاجتها الى حكومة دستورية . كما ادرك خير الدين دور المؤسسات العامة ومسؤوليتها في تزويد المجتمع بالخدمات الاجتماعية . وقد رأى ان البلاد العربية بحاجة الى مثل هذه

الخدمات لان نظام الاوقاف القديم لم يعد كافيا ، ففي كثير من الاحيان لم تهتم الحكومات بتنفيذ رغبات المحسنين .

واهتم خير الدين ـ كالطهطاوي ـ بالتعليم الاوروبي وبخاصة الفرنسي وحلل نظام التعليم الاوروبي بصورة كاملة . كما وصف المدارس الابتدائية والاعدادية ومؤسسات التعليم العالي في فرنسا والموضوعات التي يدرسها الطلاب الفرنسيون في المراحل المختلفة.

وبصورة عامة فان الاستنتاجات التي تقدم بها الرحالة العرب الى قرائهم تتفق على ان اوروبا تسبق البلاد الاسلامية في مجال التعليم والسياسة . وقد لمح هؤلاء الرحالة وصرحوا بانتقاداتهم وحملاتهم على التخلف في بلادهم وحثوا مواطنيهم على الاستفادة من كافة الفرص والظروف كي يلحقوا باوروبا او يسبقوها كما كان شأن العرب في العصور الوسطى .

الفصل الثامن

تأثيرات اوروبا في حضارة العرب في العصور الحديثة

بدأ التوسع الاوروبي في بداية القرن السادس عشر عن طريق الاتفاقيات والمعاهدات بدلا من الغزو . وقد تمكنت الدبلوماسية الفرنسية البارعة ان تبرم معاهدة مع الامبراطورية العثمانية عام ١٥٣٦ تحصل فرنسا بموجبها على حق للتجار الفرنسيين بالعيش في اراضي الامبراطورية العثمانية . وقد اتسعت التجارة الاوروبية مع الامبراطورية العثمانية في القرنين السابع عشر والثامن عشر ونشأت تبعا لذلك المستعمرات التجارية الاوروبية في الموانيء والمدن العربية .

وانه لمن غير المعقول القول بأن هذه المستعمرات قد لعبت دورا ثقافيا مؤثرا في البلادالعربية . ولكن هذا التأثير كان يستهدف في القرن السادس عشر وما تلاه الاقلية المسيحية في البلاد العربية والموارنة في لبنان .

كانت الكنيسة المارونية على اتصال مع الفاتيكان ويعود

اتصالها هذا الى ايام الصليبيين ، ولم يصبح الاتحاد الكنسي الماروني مع الروم الكاثوليك رسميا الا في عام ١٧٣٦ في سنودس اللوزية . وفي عام ١٥٨٤ ركز البابا غريغوري الثالث عشر على المعهد الماروني في روما فتخرج منه اهم رجال الدين الموارنة.

واهم هؤلاء كان يوسف سمعان السمعاني العلامة العظيم (١٦٨٧-١٧٦٨) الذي اصبح مديرا لمكتبة الفاتيكان .

كما ان الفاتيكان كان مسؤولا عن ارسال الرهبان الكبوشيين واليسوعيين الفرنسيين والطليان ليخدموا في سورية . وقد توسعت الارساليات اليسوعية بشكل ملحوظ في القرن التاسع عشر . في الوقت الذي برز فيه خصومها الاميركان بارسالياتهم البروتستانتية .

واتسع المخطط الثقافي لكل من الفريقين وتوجا اعمالهما بانشاء ما يعرف بالجامعة الأميركية عام ١٨٦٦ وجامعة القديس يوسف عام ١٨٧٤ في بيروت .

وقد مكن هذا النشاط الثقافي المسيحيين العرب من ان يبقوا على اتصال بالثقافة الاوروبية . هذا الاتصال الذي لم يتم على نطاق واسع مع الاغلبية الساحقة من العرب الا بعد القرن التاسع عشر . وبالنسبة للمسلمين العرب فان النصر السهل الذي حققه نابليون على مماليك مصر عام ١٧٩٨ يمثل بداية الغزو الاوروبي للبلاد العربية وطبع ثقافتها بطابع غربي .

وكان فشل السلطان في منع نابليون من غزو مصر صدمة للعالم الاسلامي الذي تبين له عجز الامبراطورية العثمانية امام القوة المسلحة الاوروبية آنذاك .

ويمكن اعتبار الفترة بين ١٧٩٨-١٨٧٠ فترة تعرف العرب على اوروبا واكتشافها مرة ثانية وبداية اقتباس ملامح الحضارة الاوروبية شيئا فشيئا .

وخلال هذه الفترة بدأ خضوع العرب السياسي لاوروبا ، فالخليج العربي غدا في يد الانكليز منذ ١٨٢٠ والجزائر احتلتها

فرنسا عام ١٨٣٠ وعدن اخذتها بريطانيا ١٨٣٩ .

واهم عامل في التغيير ونقل الافكار الاوروبية تمثل في داخل البلاد العربية وذلك باقتباس قليل من النظم الاوروبية والكتب عن طريق الاتصال المباشر او غير المباشر .

كان المثقفون العرب حتى عام ١٨٧٠ يحملون فكرة حسنة اخذوها من كتب الرحالة العرب وانطباعاتهم عن اوروبا وعن المؤلفات الاوروبية المترجمة . وهكذا نشأ قطاع مثقف من الشعب شيئا فشيئا يطالب بالاصلاح على النموذج الاوروبي . وكان احترام المثقفين العرب لاوروبا منصبا بخاصة على الاشكال الدستورية للحكم في فرنسا وانكلترا وما يرافقها من حرية فردية وانظمة تعليم ومعاهد عالية تمولها الدولة ولا تسيرها .

وفي الواقع فقد بدأ الاعتراف بتفوق اوروبا يأخذ طابعا صريحا في كل المجالات عدا موضوع الشريعة الاسلامية التي بقيت تدرس في المجتمع .

وليس الاعتراف بتفوق اوروبا امرا لا مبرر له . وقد اشرنا كيف ان المسلمين تفوقوا على اوروبا في العصور الوسطى وان الكثير من التقدم الاوروبي مبني على اسس من صخور الصرح العربي في العصور الوسطى . الا ان اوروبا كثيرا ما إتسمت بالمادية في حين اتصف الشرق بالروحانية .

وانتهت فترة الاقتباس الطوعي عن اوروبا باحتلال فرنسا لتونس عام ١٨٨١ واحتلال بريطانيا لمصر عام ١٨٨٢ واستمرت الجزائر وعدن ودول الخليج تحت سيطرة فرنسا وبريطانيا . وهكذا لم تعد اعظم مراكز العلم في البلاد العربية كالازهر والزيتونة قادرة على تحديد ما تقبله او ترفضه من القيم الاوروبية .

وتميزت هذه المرحلة من الاقتباس بظهور المطبعة العربية وبوعي العرب للتهديد الخطر الذي يحيق بهم من اوروبا ، وبالتالي موقفهم المعادي من الاوروبيين .

ومما يميز هذه المرحلة ظهور جمال الدين الافغاني (١٨٣٩ -

١٨٩٧) وتلميذه محمد عبده (١٨٤٩ـ١٩٠٥) اللذين دعيا الى الاصلاح الذي يمكن البلاد الاسلامية من مقاومة التهديد الاوروبي. وكان الافغاني يؤمن ان ضعف الاسلام عائد الى اهمال المسلمين التعاليم الصحيحة للاسلام وان المسيحيين اقوياء لانهم تبنوا مثل المشركين قيم الامبراطورية الرومانية .

اما محمد عبده المصري فقد ادرك القوة السياسية الاوروبية ودعا الى التنبيه للمخاطر التي ينطوي عليها الاقتباس من الغرب ، محذرا من ان هذا الاقتباس سيشطر الحياة الى شطر ديني وآخر دنيوي . وهذا الانشطار ينكر طبيعة الدين الاسلامي. وقد حاول محمد عبده في معرض دفاعه عن الاسلام ضد الافكار الغازية الاوروبية ان يوضح انسجام الاسلام مع العالم المعاصر. سالكا الى ذلك محاولة البرهان على التوافق بين المفهومات المتوارثة للاسلام وبين الافكار الاوروبية التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر . وهكذا فقد عقد مقارنة بين نظام الشورى في الاسلام والنظام البرلماني في الغرب ، وبين الاجماع والرأي العام في اوروبا .

وقد كانت مخاوف محمد عبده وتلاميذه على وحدة المجتمع الاسلامي محققة وفي محلها نظرا لمطالبة بعض العرب بالاصلاح وفق النموذج الاوروبي ، هذه المطالبة التي اتسعت بعد ان اصبحت الافكار والمؤسسات العلمية الاوروبية الحديثة مألوفة لدى العرب نتيجة للاعداد الهائلة من الترجمات من اللغات الاوروبية الى العربية .

هذه الفترة الثانية من الاقتباس عن اوروبا التي امتدت حتى الحرب العالمية الثانية شهدت كذلك تغلغل الافكار الاوروبية العلمانية كفكرة الوطنية والقومية . وفي بداية الامر لم يلاحظ الفرق في مفهوم الامة كما يراه الاسلام (المفهوم القائم على الولاء) ،ما بين مجموعة من الناس في حدود جغرافية كالمصريين وبين مجموعة تضمهم اللغة كالعرب . فالطهطاوي مثلا وافق على

الفكرتين دون التنبيه الى تعارضهما .

وفي الفترات الاولى من القرن العشرين ظهرت احزاب على اسس محلية وطنية كالوفد المصري والقومي السوري الا ان هذا كان مرحلة ذاتية تبعها تبلور فكرة القومية العربية لدى جميع الشعوب العربية واصبحت هذه القومية عقيدة سياسية سائدة في الوقت الحاضر .

اما المسلمون الذين شعروا بعدم التوافق بين فكرة (الامة) في الإسلام وفكرة القومية العربية فقد ظهروا وكأنهم يخوضون معركة خاسرة .

حاول رشيد رضا ان يربط بين القومية وبين العصبية الجاهلية زاعما ان القومية ليست الا عصبية جاهلية بشكل حديث، هذه العصبية التي حاول الاسلام حلها .

لقد اصبحت القومية العربية ــ اي الاعتقاد بأن جميع المتحدثين بالعربية يجب ان ينتموا الى دولة واحدة ــ . اصبحت ابرز ملامح الاقتباس العربي عن اوروبا في الفترة الثالثة من مراحل تأثر العرب بالغرب وذلك بعد الحرب العالمية الثانية . وهذه المرحلة حقق فيها العرب استقلالهم الفعلي لا الاسمي باستثناء فلسطين .

ازداد الاقتباس عن اوروبا بازدياد عدد الطلاب الدارسين في اوروبا وامبركا وباتساع الترجمة لاعداد كبيرة من الكتب عن الفرنسية والانكليزية الى العربية . واهم ذلك ظهور آثار التقنية الاوروبية كالاذاعة والسينما كعاملين بارزين اقوى تأثيرا من الكتب والصحف التي لا تصل الى عامة الناس .

ان هذا التأثير الاوروبي في البلاد العربية لا يزال قائما منذ غزو نابليون لمصر ، وان هذا التأثير يعني سيادة التأثير الفرنسي والانكليزي مع استثناء بسيط . وأنه لمن المحتمل ان يتغير الوضع الى حد ما بتزايد التأثير الثقافي الروسي في البلاد العربية . وان هذا التأثير ليس جديدا . فروسيا القيصرية كانت لها علاقات

ثقافية مع الارثوذكس في سورية وقد تلاشت هذه العلاقات بعد الثورة الروسية ، ولم تحاول روسيا اعادة الاتصال الثقافي بالعرب الا بعد الحرب العالمية الثانية .

ففي عام ١٩٥٤ اخذت روسيا تقيم مهرجان الافلام السوفياتية في مختلف المدن العربية وتوزع المجلات والكتب ، كما نشأت في كل من موسكو والقاهرة جمعيات ثقافية ، وافتتح في القاهرة فرع لمطبوعات (الشرق) التي هي مجلة لنشر الثقافة الروسية . وقام الروس من جهتهم بترجمة عدد من مؤلفات المصريين والسوريين ونشروها في روسيا . وسيكون لهذا التبادل الثقافي اهميته .

وان الاتفاق على شراء الاسلحة من المعسكر الشرقي والذي تم عام ١٩٥٥ يكتسي اهمية خاصة لانه لا يعني فقط تزويد العرب بالاسلحة وانما يعني التحدي العربي للغرب والاستخفاف به . كما يرمز الى التعويض العاطفي الذي يراه العرب بديلا للسنوات الطويلة من الخضوع للنفوذ الغربي بشكل مباشر او غير مباشر. ويجدر بالذكر ان كلمة (غرب) كانت تعني اوروبا قبل الحرب العالمية الثانية اما الان فهي تعني اوروبا الغربية واميركا فقط. لان اوروبا الشرقية امر مختلف .

ورغم وقوع العرب تحت الحكم الاوروبي لفترة طويلة، فلا يمكننا القول بأنهم اجبروا على اقتباس نماذج الحياة الاوروبية، لانهم تبنوا الى حد ما طواعية الافكار الاوروبية في مجال الثقافة والسياسة والاقتصاد . وقد اعطى كثير منهم اهمية للافكار الاوروبية اكثر مما اعطى للافكار المحلية الموروثة .

وبطبيعة الحال فقد ادى الامر الى منافسة العرب لاوروبا وتقليدها وتخليهم عن شخصية مجتمعهم .

الفكر الاسلامي والحياة العصرية :

بدأ بعث الفكر الاسلامي في منتصف القرن الثالث عشر بظهور حركة محمد بن عبد الوهاب في نجد عام ١٧٤٤ . وقد

هاجمت الحركة الوهابيةالانحلال الذي اعترى الناس في ممارستهم للدين، كما ادانت تقديس الاولياء ، والشعائر التي اتى بها المتصوفة ، وقد انتصرت هذه الحركة في مكان نشوئها رغم النكسات التي تعرضت لها .

وكان لفكرة العودة الى تعاليم السلف الاول اثر عميق في نفوس المسلمين احدثته الحركة الوهابية كما كانت هذه الدعوة اول علامة للسيادة الاسلامية العربية بعد غياب هذه السيادة في عصور المغول والترك وغيرهم .

كما عادت سيادة العرب ومكانة الاسلام في القرن التاسع عشر في مصر اثر حركة الاصلاح التي قادها محمد عبده .

وخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر انتعشت الحركة الصوفية التي تغاير الحركة الوهابية ولعبت دورا في مقاومة المد الاوروبي . ففي عام ١٨٧١ ظهرت التيجانية نسبة الى التيجاني. وفي عام ١٨٧٣ ظهرت السنوسية نسبة الى محمد بن علي السنوسي . ولم تكن السنوسية حركة انتعاش ديني فحسب وانما كانت منظمة لمقاومة الاستعمار الاوروبي ، وقد قاومت الفرنسيين في افريقيا والايطاليين في ليبيا .

وعلى المستوى الديني دفع التحدي الغربي كثيرا من المسلمين الى اعادة تفسير الكثير من المفهومات القرانية ، واتخذت هذه التفسيرات اشكالا عديدة . فمن محاولات محمد عبده بحثه عن تفسير (للجن) والميكروب والبحث عن سند لتعليل وجود الحافلات والهاتف . كما كتب سيد امير علي كتابه (روح الاسلام) عام ١٨٩١ وحاول فيه التوفيق بين الاسلام والليبرالية الغربية، وقد كتبه بالانكليزية مما ينافي حماس الكاتب في استلهامه للموضوع .

واهم من كل ذلك دأب المصلحون الدينيون على المناشدة المستمرة الداعية الى تطهير المعتقدات الدينية وتصعيد المستويات الفكرية من خلال توسيع آفاق الثقافة .

لقد اثرت اوروبا في العرب المسيحيين كما اثرت في العرب المسلمين ، فمنذ أن عقد سنودس اللوزية عام ١٧٣٦ ونتج عنه اعتراف الموارنة بسلطة البابا بسطت الكنيسة الكاثوليكية نفوذها على العرب المسيحيين ثم شهد القرن التاسع عشر ظهور البروتستانتية بين عرب الشرق . الا ان تأثير اوروبا على العرب في القرن العشرين لم يتجل في تصعيد المفهومات المسيحية. وانما تجلى في تصعيد الميول الدنيوية واللاادرية . كما كان للشيوعية اثر في ظهور فكرة الالحاد .

الادب العربي الحديث :

رغم ان بداية التأثير الاوروبي في الادب العربي الحديث تجلت عند مسيحيي لبنان في القرن الثامن عشر الا ان نقطة الانطلاق في زخم الافكار الاوروبية ثقافة وادبا كانت في الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ .

وتوضح التأثير الاوروبي على الادب العربي ببعث العرب لتراثهم الادبي القديم من جهة، ونشوء نهضة ادبية جديدة من جهة ثانية . وقد تم ذلك كله بفضل الطباعة التي دخلت سورية في بداية القرن الثامن عشر ، وتوسعت في مصر بتشجيع من الحكومة هناك فغدت عاملا حاسما في النهضة الحديثة . كما ان قيام الجامعات الاوروبية في البلاد العربية كان ذا اثر هام في احياء التراث العربي خلال العصور الوسطى وفي علمنة هذا الادب وتقريبه من المتناول الشعبي .

وقد سبق نشوء الادب العربي الحديث في القرن التاسع عشر قيام حركة ادبية تنادي بتنقية اللغة العربية وكتابة مؤلفات ادبية على غرار نماذج الادب العربي القديم ومن رواد هذه الحركة السوري ناصيف اليازجي الذي كان كتابه (مجمع البحرين) شبيها بمقامات الحريري واسلوبها ، والعراقي محمود شكري الالوسي (١٨٥٧-١٩٢٣) الذي اصدر كتابه (بلوغ الارب في احوال العرب) .

وادت هذه الحركة الى بعث التراث العربي في القرون الوسطى والى نمو حركة التأليف والنقد والتاريخ والادبي . وقد غدت اهتمامات النقاد في القرنين التاسع عشر والعشرين اوسع كثيرا من اهتمامات النقاد في القرون الوسطى .

وانتشر الادب على نطاق واسع بفضل الصحافة والطباعة، وقد اصبح الكاتب يتلقى تعويضات مالية مصدرها جمهور القراء للصحف وليس الولاة والامراء .

وقد ظهرت مع بداية النهضة الادبية مجموعة من الروايات والمؤلفات الادبية واتسعت لذلك صفحات المجلات كالهلال والمقتطف والكاتب المصري وكثير غيرها .

وقد دخلت العلمنة الادب العربي نتيجة نشوء الجامعات على النمط الاوروبي ، ونتيجة فكرة القومية، تلك الفكرة التي نشأت في اوروبا قائمة على اهمام الاديان . وهذا ما جعل العرب المسيحيين يساهمون مساهمة واسعة في النشاط الادبي خلال مائة سنة الماضية منذ موت الشاعر المسيحي الاخطل (حوالي ٧١٠) .

لقد ادى احياء التراث العربي القديم الى نشوء مدرسة ادبية على غرار الشعر العربي التقليدي في العصر العباسي . ومن رواد هذه المدرسة الشعرية الشاعر المصري محمود سامي البارودي (١٨٣٩-١٩٠٤) واحمد شوقي (١٨٦٨-١٩٣٢) وهو زعيم هذه المدرسة ولقب بأمير الشعراء . ورغم نزعته التقليدية فقد ادخل الافكار الجديدة في شعره . ومن معاصريه الشاعر التونسي ابو القاسم الشابي (١٩٠٩-١٩٣٤) .

اما في النصف الثاني من القرن العشرين فقد ظهر الشعر الحديث ومن اعلامه العراقية نازك الملائكة (ولدت ١٩٢٣).

والى جانب الشعر كانت القصة والقصيدة والرواية والمسرحية العناصر الجديدة في الادب العربي الحديث .

ومن رواد القصة القصيرة مصطفى لطفي المنفلوطي (١٨٧٦ -

١٩٢٤) ومحمد تيمور (١٨٩١-١٩٢١) ومحمود تيمور (ولد ١٨٩٤) ومنذ الحرب الثانية تطورت القصة القصيرة ونضجت بشكل مذهل ولعلها غدت النموذج الاهم في الادب العربي العناصر .

وفي مجال الرواية كان سليم البستاني (١٨٤٨-١٨٨٤) الروائي المبكر ومن اعماله (بنت العصر) و (اسماء) . ولكن الرواية العربية الاهم كبداية هي (زينب) لمحمد حسنين هيكل (ولد ١٨٨٨) واول رواية خلقية نالت شهرة واسعة هي (ابراهيم الكاتب) للمازني (١٨٩٠-١٩٤٩) ولعل اشهر الروائيين العرب المعاصرين هو المصري نجيب محفوظ .

وفي المسرح بدأ العرب منذ منتصف القرن التاسع عشر يقتبسون عن موليير ثم تحولوا الى التراث العربي . وقد اسهم شوقي ومحمد تيمور في هذا المجال اسهاما كبيرا . ولا يزال دور القيادة لمصر في مجال المسرح من خلال مؤلفات توفيق الحكيم مثل (اهل الكهف) و (محمد) الى جانب مسرحياته المستوحاة من القضايا الاجتماعية .

التعليم والبحث العلمي :

لم يؤد غزو نابليون لمصر الى احداث تقدم في التعليم العربي. كما لم يطرأ خلال سنوات الاحتلال الثلاث تغيير جذري في هذا المجال . الا ان الاتصال او الاحتكاك مع اوروبا سرعان ما احدثا نتائج ملموسة في مجال التعليم .

لقد اعجب الرحالة العرب ايما اعجاب بالحياة الفكرية الاوروبية ولمسوا تأكيد الاوروبيين على تطوير العلم الذي يلعب الدور الحاسم في الانجازات السياسية والعلمية والاقتصادية.

ولم يلعب راي العرب المحافظين دورا هاما في سياق تبني الافكار الاوروبية . فقد غدا التعليم في البلاد العربية قائما على النمط الاوروبي في المراحل الابتدائية والثانوية والعالية ،الى جانب انشاء الجمعيات الثقافية ومراكز البحوث والمجامع اللغوية (على غرار الاكاديمية الفرنسية) وتطبيق البرامج

والموضوعات المقتبسة عن اوروبا مع الاحتفاظ بالتعليم الديني والتدريس باللغة العربية . وقد شمل التعليم الجنسين معا وانتشر في مختلف الفئات الاجتماعية .

وهكذا اصبح لدى العرب ثلاثة نماذج في التعليم خلال القرنين التاسع عشر والعشرين اولها الكتاتيب التي لم تتغير كثيرا عن ذي قبل ، ثم المدارس الجديدة على النمط الاوروبي ، واخيرا المدارس الاجنبية وبخاصة الفرنسية . تلك المدارس التي استخدمت اللغة الاجنبية في مجال التعليم . ولكن هذه المدارس آخذة بالتناقص عددا واهمية ، وعلى سبيل المثال كان في مصر ١٦٥ مدرسة فرنسية قبل حرب السويس وقد تناقص العدد الى ٦ مدارس عام ١٩٦٢ .

ولا تزال المدارس التقليدية المحلية تحظى بدعم الجهات الاسلامية ولا تزال الكتاتيب في مصر تخرج الطلاب الذين ينضمون الى الازهر . الى جانب وجود بقية الجامعات التي اخذت بالنظم الاوروبية .

وبصورة عامة فان الدول العربية بعد ان تخلصت من الاستعمار تولي عناية كبرى لافتتاح المدارس على النمط الاوروبي وهكذا فان العرب ينفقون حوالي عشرة الى عشرين في المئة من ميزانيتهم على التعليم بعد مرور عشرين سنة على الحرب الثانية . كما يشنون حملة واسعة لمحو الامية ، وتوفير ست سنوات من التعليم الابتدائي لاطفالهم .

وان نظام التعليم في البلاد العربية مركزي تخطط له وتنفذه وزارة التعليم ـ باستثناء لبنان ـ وان هذه الوزارة تشرف كذلك على المدارس الخاصة والمهنية وتعيينات ونقل واقامة المعلمين والعناية بالابنية المدرسية وتجهيزها وتنظيم خطة الدراسة والامتحانات .

وفي اكثر البلدان العربية تخصص بست سنوات للتعليم الابتدائي وثلاث للاعدادي وثلاث للثانوي ويجري التأكيد في المرحلة

الابتدائية على اللغة العربية والعلوم الدينية والحساب والفنـــون والموسيقى والرياضة . ويبدو التأثير الاوروبي في مادة العلوم . وفي السنوات الاخيرة من التعليم يبدو هذا التأثيـــر في مادة علم الاجتماع والحقوق الواجبات المدنية .

وقد شرعت بعض الحكومات بجعل التعليم مختلطا فـــي السنوات القليلة الماضية ممــا يوفــر كثيرا مــن النفقات ويشكل خطوة جريئة في الانفصال عن الماضي .

وتبقى المشكلة الاساسية في التعليم هي محـــو الامية وان البلاد التي حققت نجاحا اكبر في هذا المضمار هي تونس ولبنــان والاردن وسورية . الا ان حجم هذه المشكلة في بقيــة الاقطـــار العربية هائل جدا وتستطيع الارقام ان توضح ذلك :

ففي الجزائر كان هناك عام ١٩٦٦ مليــون ومائتا الف طفل يتلقون التعليم في المدارس الابتدائية . وبرغم سيــاسة التعريب التي تتبعهــا الحكومة فان ثلثي الطـــلاب لا يزالون يتعلمـــون بالفرنسيــة (١) . وفي ليبيــا في سنــة ١٩٢١ كانت هناك اربــع مدارس ابتدائيــة في محافظــة طرابلس تضم ٦١١ تلميذا . بينما بلــغ عدد الطلاب عام ١٩٦٥مائة وسبعين الف طالب واحدثـــت المدارس الثانويــة الى جانب الابتدائية وانفقت الحكومة علـــى التعليم في ذلك العام ٤ ملاييــن دينار ليبي امــا عام ١٩٦٨ فكان الانفاق واحدا وعشريــن مليونــا من الدنانير .

---

(١) ان مشكلة التعليم في الجزائر واحدة من تركيــات العهــد الاستعمــاري الاستيطاني الفرنسي ففي سنة ١٩٦٢ عام الاستقلال كان في الجزائر ٤ بالمئة من المتعلمين بالفرنسية . اما اليوم في سنة ١٩٧٦ فان المرحلة الابتدائيــة اصبحت تماما بالعربية وتطبق التعليم الالزامي واصبح القسم الاكبر مــن التعليم في الاعدادي والثانوي بالعربية . كذلك افتتحت الكليات العلميــة باللغة العربية . وتنفق الحكومة الجزائرية حوالي ثلث ميزانيتها عـــلى التعليــم . (المراجع) .

وهذا مـا يؤكد اصرار الحكومـات العربيـة على المضي قدما في محو الاميـة وانهاء فكرة الفئة المتعلمة والفئة الجاهلة .

وفي الفترة الاخيرة برزت الى الوجود المدارس المهنية كنتيجة للتطور المسايـر لعصر التصنيع والذي بدأ في الخمسينات ، وبعد إن كانت هذه المدارس تلاقي الاعراض والاحجام انطلقت الآن وتغيرت النظرة اليهـا .

كانت جهود معظم الحكومـات في منتصف هذا القرن تتجه نحـو زيادة امكانات الزراعـة والخدمـات الاجتماعيـة والمرافق من ميـاه وطرقات ومواصلات وتصنيع ، وكان العائق امام ذلـك كله النقص الكبير في الانسان التقني . وهذا مـا حدا بالحكومات الى التوسع في مجال التعليم المهني بمساعدة الغرب وبخاصـة الولايات المتحدة الامريكية والمانيا . وهذا التعليم اقترح له ثـلاث سنوات بعد المرحلـة الابتدائيـة كمرحلـة اعدادية تعقبهـا ثلاث سنوات اخرى كمرحلة ثانويـة . وتتضمـن البرامج الدراسيـة وتشغيل الآلات المعقدة الى جانب البرامج الدراسية العادية .

كان التعليم العالي في بدايـة القرن التاسع عشر منحصرا في المؤسسـات الدينيـة كالازهر في القاهرة والزيتونة في تـونس والقرويين في فاس . وكانـت هذه الجامعـات تـدرس اللغـة العربيـة والشريعـة والفقه بفروعه المتعددة .

وقد اسس محمد علي ـ في نطاق تجديـده واصلاحاته ، مؤسسـات يمكـن اعتبارهـا من التعليم العالي كمدرسة الطـب ومدرسـة الصيدلة والمدارس العسكريـة المختلفة ومدرسةالادارة العامة والمحاسبة ومدرسـة اللغات والترجمة .. الخ .

اما الجامعات على النمط الاوروبي في البلاد العربية فقد كانت مؤسسـات اجنبيـة بكاملهـا كالمعهـد البروتستانتـي السـوري (الذي دعي فيمـا بعـد الجامعـة الامريكيـة في بيروت) والذي تأسس عام ١٨٦٦ . وجامعة الجزائر التي انشئت كجامعـة فرنسية عام ١٨٧٩ وجامعة القديس يوسف في بيروت التي اسسهـا

اليسوعيون الفرنسيون عام ١٨٧٤ .

ولكن القرن التاسع عشر شهد بداية قيام المؤسسات التعليمية العربية العالية التي تستخدم اللغة العربية وتأخذ بالنمط الاوروبي . وبدأ ذلك بانشاء المعاهد المنفصلة لتدريس مختلف المواد ، ثم دمجت هذه المعاهد فيما بعد لتشكل جامعة كما حدث في جامعتي القاهرة وبغداد .

في عهد الخديويين عباس وسعيد (١٨٤٨ ـ ١٨٦٣) اغلقت المعاهد التي افتتحها محمد علي ثم اعيد افتتاحها في عهد الخديوي اسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) واضيف اليها معاهد اخرى هي (دار العلوم) عام ١٨٧١ (ومعهد اعداد المدرسين) عام ١٨٨٠ ومعهد الادارة العامة ١٨٨٢ وقد تحول هذا فيما بعد الى مدرسة الحقوق عام ١٨٨٤ .

خلال الاعوام الاولى من القرن العشرين قامت حركة تنادي بانشاء جامعة اهلية مصرية وقد تم فعلا عام ١٩٠٨ انشاء هذه الجامعة لتدريس الادب والتاريخ والفلسفة والعلوم الاجتماعية. وفي عام ١٩٢٥ انشأت الحكومة المصرية جامعة ضمت اليها الجامعة الاهلية واطلقت عليها اسم كلية الآداب . وقد تحولت مدرستا الحقوق والطب الموجودتين من قبل الى كليتي الحقوق والطب واحدثت كلية العلوم . واليوم فان هذه الجامعة ـ التي اصبحت تدعى جامعة القاهرة ـ تضم اثنتي عشرة كلية . وقد اسس لها فروع في الاسكندرية والخرطوم والمنصورة غدت فيما بعد جامعات مستقلة . وقد تأسست كلية الطب في طنطا تابعة لجامعة الاسكندرية مما يجعلها نواة لجامعة جديدة.

اما الجامعة السورية (التي دعيت فيما بعد جامعة دمشق) (٢) فقد بدأت على شكل كليات منفصلة . فكلية الطب انشئت عام ١٩٠٢ وكلية الحقوق انشئت في بيروت ثم نقلت الى

---

(٢) وذلك بعد توسع جامعة حلب . (المراجع) .

دمشق عام ١٩١٩ لتشكل مع كلية الطب نواة الجامعة السورية.

وفي فترة ثالثة تأسست الجامعات العربية المتكاملة كجامعة اسيوط عام ١٩٥٧ وجامعة الرياض عام ١٩٥٧ . وتزايد عدد المعاهد الفنية التي لها منزلة الجامعة وقد انشئت هذه المعاهد بمساعدات اجنبية كمدرسة الحسن الثاني للهندسة (عام ١٩٦١) وتمولها الامم المتحدة . ومعهد طرابلس للتقنية عام ١٩٦١. وتموله اليونسكو والحكومة الليبية .

وانه لمن المذهل حقا ان تتطور وتسير جنبا الى جنب نماذج التعليم العالي التقليدية والاجنبية والاخذة بالنمط الاوروبي في البلاد العربية . وفي الواقع فان النموذج الثالث اي الجامعات العربية الآخذة بالنمط الأوروبي هي صاحبة قصب السبق والنصيب الاكبر من العناية والتطور .

وقد تم انشاء جامعات اجنبية اخرى كالجامعة الامريكية في القاهرة عام ١٩١٩ وجامعة طنجة عام ١٩٦٨ وجامعة الحكمة اليسوعية في بغداد عام ١٩٥٦ .

كما اسست على غرار الازهر جامعات اخرى في ام درمان ١٩٦١، والمدينة المنورة عام ١٩٦١ وفي مدن اخرى ايضا .

وقد حدث احيانا مزج بين الجامعات التقليدية والحديثة كانضمام جامعة الزيتونة الى جامعة تونس عام ١٩٦٠ وتسميتها حينئذ كلية الشريعة . وتوسيع الازهر عام ١٩٦١ ليصبح جامعة تضم الطب والهندسة والادارة العامة وكلية البنات الى جانب الشريعة والحقوق واللغة العربية . كما ان جامعة دمشق احدثت فيها كلية للشريعة .

وقد اقتبست الجامعات العربية نظم التعليم من فرنسا وانكلترا وامريكا بالضرورة لانها قلدت نماذج التعليم في تلك البلاد . ففي مجال الحقوق نرى التأثير الفرنسي وفي مجال الطب والهندسة نرى التأثير الانكليزي . وتخالف ذلك جامعة بغداد حيث تدرس الآداب والعلوم حسب النظام الانكليزي والزراعة

حسب النظام الامريكي والحقوق حسب النظام الفرنسي . امـــا الهندســة والتربيــة ففيهمــا جميع الانظمة .

وجدير بالذكر ان اعدادا كبيرة من الطلاب العرب قلــدوا الطهطاوي في ذهابهم للدراســة في اوروبا . بينمــا ارسل محمــد علي بعثات للتحصيل العلمي الى اوروبــا باشراف السلطات . اما اليــوم فان السلطات التعليمية العربيــة هي التــي تنظم شؤون البعثات الدراسيــة الى الخارج ، وفي مصر مثلا لا يحق لاي طالب الحصول على منحة دراسيــة من حكومة اجنبية ، لان هذه المنــح يجب ان ترسل الى الحكومة المصريــة وهي التي تحدد الطــلاب المستفيديــن منهــا .

فيما مضى كانت بريطانيا وفرنسا هما اللتان تستقبلان فقط الطــلاب العرب باعداد كبيرة . ومنذ الحرب العالميــة الثانية انتشر الطلاب العرب في بقاع شتى من العالم . وحتى عام ١٩٦٦ كــان حوالي خمسة وعشريــن الفا من الطلاب العرب يدرســون فــي جامعات اوروبــا وامريكــا واوستراليا . وهذا الرقم صغير أمام العدد الذي يدرس في الجامعات العربيــة . فمثلا كان يدرس في جامعات مصر والعراق والاردن ولبنان وسوزية والسعوديــة مــا يقارب /٩٢٧١٣/ طالبا خلال العام ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤ .

وحتى فترة متأخرة كانت معظم الدراسات العليــا تتركز في مستوى الاجازات الا ان التحصيل العلمي والشهادت العليــا صار لهــا دور بارز في الوقت الحاضر . وفي مصر يبدو جليــا الاهتمام بالبحث العلمي بحيث تمر البلاد بثورة تقنيــة عظيمة تسمـــح باستيعاب التقنية الغربية خلال مائة العام القادمة .

ومن خلال هذه الثورة التقنيــة تتضح مشاكل مصر المتمثلة بالتزايــد السكاني والجهل والمرض ، تلك المشاكل التي لا يحلهــا الا العلــم والتقنية الحديثة .

ولذا اقامت الحكومة المصريــة هيئات للتخطيط ومنظمـــات للبحث العلمي ومصانع جديدة وشجعت العلوم والهندسة . وهناك

اليوم في مصر حوالي خمسين جمعية وهيئة تعنى بالعلوم البحتة والعلوم التطبيقية واكثرها يعود لاتحاد العلوم العربية الذي اسسته جامعة الدول العربية عام ١٩٥٦. وتصدر هذه الهيئات كثيرا من المجلات العلمية . مثل : (محاضر الجمعية المصرية للرياضيات والفيزياء (٣) بالعربية والانكليزية و(نشرة الجمعية المصرية للحشرات (٤) بالانكليزية والفرنسية والالمانية و (مجلة الجمعية الطبية المصرية (٥) بالعربية والانكليزية والفرنسية).

ولا شك في ان اخطر مشكلة تعاني منها البلاد العربية اليوم تتمثل في هجرة العقول الجامعية ، فان تدفق المثقفين العرب الى البلاد الاجنبية كبير جدا الى درجة تؤثر التطور الثقافي والتقني للبلاد العربية .

بين ١٩٦٢ ـ ١٩٦٦ هاجر من العراق والاردن وفلسطين وسورية ولبنان ومصر الى امريكا الشمالية وفرنسا ٨٢٩ مهندسا و٣٩٦ عالما طبيعيا و٢٨٦ طبيبا . وقد تبدو هذهالارقام كبيرة لكنها ازدادت بحدة منذ ١٩٦٧ . ويقدر الآن ان ٩٠٪ من الطلاب الذين يحضرون الدكتوراه لا يعودون الى لبنان ، وان ثلاثين بالمائة من الاطباء السوريين هاجروا الى الولايات المتحدة وان خمسين بالمئة من حملة الدكتوراه في العلوم الاقتصادية والاجتماعية والادارية في البلاد العربية قد إستقروا خارج بلادهم بشكل دائم .

---

(٣) « Proceedings of the Mathematical And Physical Society of Egypt »

(٤) « The Bulletin of the Egyptian Entomological Society »

(٥) « Journal of the Egyptian Medical Association »

ونتيجة لهذه الهجرة فان البلاد العربية والاقطار النامية ترسل افضل امكاناتها وقواها الفنية المدربة لتساهم في انماء وتطور اوروبا وامريكا . بينما تبقى هي ـ اي البلاد العربية ـ تلهث بسبب النقص في الطاقات الفكرية والعلمية لانها تخسر هذه الطاقات وتصدرها الى الاقطار الاخرى .

وفي الحقيقة فان هذه الموجة من الهجرة تبقى جديدة ولذا لم تنصهر تماما في اطار المجتمع المضيف وان منع المهاجرين من البقاء في مهاجرهم ومنع تدفق موجات جديدة من هجرة العقول انما يتوقف على مقدرة الحكومات العربية واستعدادها لتوفير ظروف عمل لابنائها تغريهم بعدم الهجرة .

الترجمة :

للمرة الثانية يواجه العرب في القرن التاسع عشر والقرن العشرين انجازات علمية متفوقة لحضارة اجنبية ، وللمرة الثانية يحاولون استيعاب تلك الانجازات . فقد ترجمت مؤلفات الاغريق الى العربية بين ٧٥٠ م و ٩٠٠ م . كما ترجمت خلال المئة والخمسين عاما الماضية المؤلفات العلمية الانكليزية والفرنسية الى العربية بالاضافة الى الكتب ذات الموضوعات المتفرقة . (الرسم رقم (٢٠)) .

وكأن التاريخ يعيد نفسه .. لكنما يبقى هناك اختلافان هامان اولهما في ان العرب نقلوا عن الاغريق حينما توقف عطاء الاغريق ، بينما ينقلون اليوم عن حضارة لا تزال تعطي وتزيد وتتغير بسرعة الى درجة ان الكتب تصبح قديمة قبل ظهور النسخة المترجمة .. وهذا خطير .

والاختلاف الثاني يظهر في حجم الكتب العلمية المطبوعة في الوقت الحاضر والذي يفوق كثيرا عدد الكتب التي نشرت في العصور الوسطى . وان نسبة المؤلفات العلمية التي نقلت الى العربية في الوقت الحاضر لا تزال صغيرة جدا .

بدات هذه الترجمات في عهد محمد علي وتوقفت في عهد

خلفه ثم استؤنفت في عهد اسماعيل واستمرت حتى الآن .

ومنذ ١٩٤٩ يمكننا ملاحقة عملية الترجمة بشيء من الدقة فقد بدأت منظمة اليونسكو منذ ذلك الوقت تصدر مجلدا سنويا هو « فهرس التراجم » الذي يحاول احصاء جميع الكتب التي نشرت في العالم خلال العام المنصرم . ويدلنا الفهرس على ان أربعة اقطار عربية تأخذ دورا هاما في اصدار الكتب المترجمة وهي : بالترتيب : مصر ـ لبنان ـ سورية ـ العراق . وتحتل مصر مكانة بارزة في كمية الترجمة كما يدلنا هذا الفهرس على انه ترجم الى العربية خلال ١٩٤٨ـ١٩٧١ خمسة الاف وخمسة عشر كتابا وكان عام ١٩٦٧ اغزر الاعوام حيث نشر خلاله ٦٢٣ كتابا. وفي ١٩٧١ نشر ٢٨١ كتابا واذا قارنا عدد الكتب المترجمة الى الالمانية عام ١٩٧١ (مع ملاحظة ان عدد العرب يقارب عدد الالمان) لوجدنا إلالمان قد ترجموا خمسة آلاف كتاب اي ما يوازي عدد الكتب التي ترجمت الى العربية خلال ٢٤ سنة . وتبقى هذه حالة خاصة . (فالروسية تأتي في المرتبة الثانية والانكليزية في المرتبة الثالثة) ولكن هذه الحالة تدلنا على التباين الكبير في عدد القراء بين العربية والالمانية رغم تقارب عدد السكان .

وفيما يلي جدول يوضح موضوعات الكتب المترجمة وعددها:

موضوعات الكتب	العدد
عامة	٦٠
فلسفة	٤١٦
دين وفقه	١٩٢
حقوق وعلوم اجتماعية وتربية	١١٨٤
فقه لغة ولغويات	٦
علوم طبيعية وخاصة	٣٣٩
علوم تطبيقية	٣٠٠
فنون والعاب تسلية ورياضة	١١٥
آداب	١٧٣٩
تاريخ وجغرافيا وسيرة	٦٦٤

وقد نقلت هذه الكتب عن الانكليزية الا اقلية منها نقل عن الفرنسية والروسية والالمانية ولغات اخرى .

ويدلنا فهرس التراجم ايضا على ان هناك جهودا ضائعة في عملية الترجمة الى العربية . فكتاب رأس المال لكارل ماركس مثلا ترجم ليس اقل من اربع مرات خلال العشرين سنة الماضية . مرتين عن الفرنسية ومرة عن الانكليزية ومرة عن الاصل الالماني .

المجتمع والانظمة السياسية :

تزايد عدد السكان العرب بسرعة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين . ففي مصر بلغت الزيادة عشرة اضعاف منذ عام ١٨٠٠ نتيجة تحسن الاوضاع الصحية العامة والطب وتقدم الانتاج الصناعي والزراعي. وكان التقدم الاقتصادي مرافقا للتأثير الاوروبي وتطوير الوسائل الحديثة للنقل والمواصلات والتصنيع وقد احدث ذلك زيادة عامة في مجالات التوظيف المتنوعة للمثقفين والاميين. كما ازدادت البنية الاجتماعية تعقيدا . وقد حدث تبدل في السلم الاجتماعي تناول طبقة الاسر المتنفذة الحاكمة التي يؤيدها رجال الدين والتجار والحرفيون والمزارعون والفئات من غير المسلمين ممن يأتون في درجة ادنى من السلم الاجتماعي ويديرون شؤونهم بانفسهم . هذه الطبقة المتنفذة بدأ نفوذها يتضاءل وتظهر طبقة وسطى من الصحفيين والمحامين والمصرفيين والموظفين والمعلمين . وبدأت فكرة التمييز الديني تتلاشى شيئا فشيئا .

ومع تصاعد النضال في سبيل التحرر وترسيخ القومية العربية جاءت الى الحكم طبقة من المثقفين والفنيين والموظفين وضباط الجيش الذين ساندتهم البروليتاريا التي بدأت تنظم في نقابات عمالية ، والتي تضخمت في الريف بصورة خاصة.

وفي مجال الاسرة قوى الاتجاه الى تقليص الاسرة الكبيرة،

وتمتعت المراة بحرية اكبر . وتنوعت وسائل قضاء أوقات الفراغ . ولم يبق الآباء يصرون على ان يتبع ابناؤهم الطرق التقليدية المتوارثة في الحياة . بل رغبوا في ارسالهم الى المدارس ليتعلموا ويحصلوا على مستوى افضل . وساعد تعلم البنات على مشاركة المراة في الوظائف العامة والمهن وتمتعها بالحرية . كما ساعدت الرياضة والسينما والاذاعة والتلفزيون في تنويع وسائل قضاء اوقات الفراغ .

لقد اصبح « التغيير » امرا ضروريا ومفيدا في المجتمع العربي بعد ان كان الاعتقاد السابق بأن كل تغيير (بدعة) غير مرغوب فيها .

خلال القرن التاسع عشر نشأت ازمة قانونية بسبب التشدد في تطبيق الشريعة من جهة وتلبية متطلبات المجتمع المتطور من جهة اخرى . وتركزت الازمة في قانون المعاملات التجارية وبعض القوانين الجنائية وبخاصة معالجة الجريمة باعتبارها اذى مدنيا وفي مفهوم التعزير .

وفي الاصلاحات التشريعية العثمانية (١٨٣٩ – ١٨٧٦) تبنت الحكومة العثمانية القوانين الفرنسية في مجال العقوبات والتجارة والملاحة . كما سنت قوانين مدنية مبنية على الشريعة وفق المذهب الحنفي .

وبعد الحرب العالمية الاولى استمرت الحكومات في تبني القوانين والتشريعات الاوروبية وبقي دور الشريعة الإسلامية فعالا فقط في مجال قوانين الاحوال الشخصية من زواج وطلاق وميراث ، وفي قانون الاوقاف . وذلك ما عدا الجزيرة العربية .

وقد عارض رجال الدين هذه التغييرات ولكن يمكن القول بأن التشريع الاسلامي يعترف بامكان احداث تغييرات يراها القادة السياسيون ضرورية لما فيه مصلحة شعوبهم .

ومن جهة اخرى رفض بعض المشرعين المسلمين في العصر الحاضر اغلاق باب الاجتهاد ورأوا ضرورة الاستمرار في الاجتهاد

واستنباط الاحكام والتفسيرات الملائمة للتغيرات الحديثة .

كما ظهر التأثير الاوروبي في مجال السلطة القضائية والسلطة التنفيذية فقديما كان تنفيذ القوانين للاحوال الشخصية يتم في محكمة برئاسة قاض واحد فقط ولم تكن هناك محاكم عليا واستئناف وقد تغير الوضع الآن ولم يبق على شكله في اي بلد عربي . وفي مجال المحافظة على النظام والقانون وادارة المهن القانونية طور العرب نظام الشرطة ومهنة المحاماة .

وقد اصبح سن القوانين من حق الدولة . وهذا الامر اخذته الحكومات العربية من اوروبا .

ان نمو المؤسسات السياسية في البلاد العربية انما يستند الى خلفية اوروبية جاءت مع الاستعمار او الحماية او الانتداب. او جاءت من النظرة المثالية التي ينظر المثقفون العرب من خلالها الى البرلمانين الفرنسي والانكليزي .

وتشكلت الاحزاب السياسية على غرار النمط الاوروبي منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر واول هذه الاحزاب (الحزب الوطني) في مصر الذي تشكل عام ١٨٧٩ .

لقد فشلت التجربة البرلمانية الاوروبية في البلاد العربية على الرغم من رغبة قادة الفكر العربي بتحقيق النظام البرلماني في اقطارهم . ويعود الفشل لعدة اعتبارات منها ان التطور الاجتماعي للشعوب العربية في القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين كان مخالفا للتطور الاوروبي ولان البلاد العربية كانت تجابه مشاكل تختلف عما تجابهه دول اوروبا .

واذا استثنينا لبنان ، فان البلاد العربية لم يقم فيها حكم دائم يعتمد على تعدد الاحزاب ولم تلاق فكرة المعارضة القانونية قبولا لدى الحكومات العربية على الرغم من ان الوحدة السياسية العربية ستقبل بهذه الفكرة بعد ان تتقارب الانظمة الاجتماعية المختلفة في البلاد العربية .

وتلعب الحكومة في البلاد العربية دور المؤثر الاكبر نفوذا فهي اعظم خزينة للمال ، وهي التي تدير وتطور الزراعة والمواصلات الحديثة ، وهي اكبر موظف للعمل . واداتها في ذلك كله الموظفون الذين يشكلون اكبر مجموعة من الشعب تتمتع بامتياز اجتماعي لا بأس به . وهكذا فالحكومة هي القوة الوحيدة التي تستطيع خلق ظروف جديدة للحياة في المجتمع العربي .

ان الجامعة العربية التي تأسست عام ١٩٤٥ بقيت مجرد مجلس للتشاور على الرغم من انها حققت انجازات هامة في توحيد مناهج التعليم في المدارس وفي المجالات الثقافية الاخرى كاصدار القواميس والموسوعات .

وان سيادة القومية العربية والتركيز على اللغة العربية كرابطة للانتماء القومي للامة العربية قد قويا فكرة المساواة بين جميع المواطنين في الحقوق والواجبات بغض النظر عن الدين . وهذا ما يتفق مع الليبرالية الغربية في القرن التاسع عشر . وقد ادى ذلك الى الغاء بعض الدول العربية لوجود الهلال في اعلامها والاستعاضة عنه بنجوم لا تحمل دلالات دينية .

الحياة الاقتصادية :

تأثر المجتمع العربي بالانظمة الاقتصادية في جميع المجالات تقريبا . فان انظمة النقل والمواصلات والتجارة والمصارف واستخراج الثروات المعدنية واقامة المصانع قد آثرت في هيكل المجتمع العربي باكمله .

ففي القرن التاسع عشر استبدلت بالتدريج السفن الشراعية بالبواخر على الانهار والمياه العربية التي تنقل الركاب والحجاج والبضائع . وانتهى النقل على الجمال الذي كان سائدا في العصور الوسطى . كما شهد هذا القرن مد السكك الحديدية

في بعض الاقطار العربية واستمرار ذلك حتى القرن العشرين وكان آخرها سكة الحديد بين الرياض والدمام في السعودية وتم تنفيذها سنة ١٩٥١ (٦) . ورافق فتح الطرقات ادخال الشاحنات والسيارات والحافلات .

وتغيرت وسائل الاتصال بوجود الهاتف والتلغراف واللاسلكي والتلفزيون . واتخذت التجارة شكل تصدير المواد الخام الى اوروبا ثمنا للبضائع المصنعة وهذا ما قضى على الصناعات المحلية المتوارثة الى حد كبير على الرغم من انها لن يقض عليها تماما .

وقد تبنى العرب الانظمة المصرفية الاوروبية التي اخذها الاوربيون عن الانظمة الاسلامية في العصور الوسطى . فقد تأسس عام ١٨٩٠ (بنك مصر الوطني) وعام ١٩٢٠ (بنك مصر) وفي البلاد العربية كان نمو مثل هذه المصارف بطيئا فلم يتأسس (البنك الوطني في العراق) مثلا حتى عام ١٩٤٧ .

والمواد المعدنية في البلاد العربية ضعيفة (٧) اذا استثنينا النفط ، تلك المادة الاستهلاكية الهامة من الدرجة الاولى . والتي فهم الغرب اهميتها وما عاد يستطيع السيطرة عليها بقوة السلاح . ففي عام ١٩٦٨ انتجت البلاد العربية من النفط الخام ٥٨٢,٠٠٠,٠٠٠ طن . وكان استهلاك العالم في ذلك العام من النفط ١,٩١٠,٠٠٠,٠٠٠ طن .

يبدأ تاريخ استغلال النفط في البلاد العربية عام ١٩٢٥ عندما منحت الحكومة العراقية الشركة التركية للنفط امتياز التنقيب عن النفط لمدة /٧٥/ سنة وفي سنة ١٩٢٧ عثرت هذه الشركة

---

(٦) نفذ بعد هذا التاريخ الخط الحديدي في سورية بين اللاذقية ـ حلب ـ الجزيرة (المراجع)

(٧) تشير بعض الارقام الى وجود المعادن بكثرة في بعض الاراضي العربية ويبدو ان الامر يحتاج الى مسح شامل . (المراجع)

على النفط في منطقة كركوك وقد تحولت هذه الشركة فيما بعد الى (شركة نفط العراق المحدودة) (٨) .

واليوم فان الشركات العربية للنفط توظف الآلاف من ابنائها في استثمار النفط ، وقد اقيمت المنشآت النفطية الضخمة لهذا الغرض .

اما الصناعة التي تسعى اليها الحكومات العربية كوسيلة للتقدم المادي فانها تجابه عراقيل شتى كانخفاض القوة الشرائية وصعوبة مزاحمة المنتجات الاجنبية والنقص في المواد الخام ما عدا البترول وندرة رأس المال . ولكن توجد اليوم في مصر صناعة ثقيلة كالحديد والفولاذ في حلوان ، وفي العراق مصنع للحديد والفولاذ في بغداد ، وفي السعودية مصنع لصقل الفولاذ في جدة .

كما تصنع مصر الاسلحة والذخيرة والشاحنات والسيارات الصغيرة ، اما صناعة الاسمنت والقرميد فهي متوفرة في كل بلد عربي تقريبا .

هذا الى جانب الصناعات الخفيفة كالغزل والنسيج والصباغة والمعلبات الغذائية . وقد تدخلت بعض الحكومات العربية لحماية الصناعات المحلية وتخفيف اثر مزاجمة الصناعة الاجنبية . وشجعت هذه الحكومات تصدير بعض الصناعات الجيدة كالسجاد من تونس والمغرب .

وفي مجال الزراعة تعاني البلاد العربية من صعوبات ندرة الامطار والتربة الخفيفة الخصوبة ونظام الاقطاع الذي عانى منه الفلاحون كثيرا ، ومع ذلك فان بعض البلدان العربية تصدر كميات لا بأس بها من محصولاتها التي تحقق بها شهرة عالمية كالقطن

---

(٨) كانت هذه الشركة قبل التاميم موزعة على النحو التالي ٥ر٤٧ ٪ بريطانيا ـ ٧٥ر٢٣ ٪ فرنسا ـ ٧٥ر٢٣ ٪ الولايات المتحدة ـ ٥ بالمئة كلبنكيان .
(المراجع)

المصري والتمور العراقيـة والقهوة اليمنية . وفي القرنين الماضيين ارتفع انتاج المحاصيل الزراعيـة كثيرا عدا الجزائر . وفي لبنـان وليبيـا والسودان تضاعفت كميـة الانتاج عـن ذي قبل .

وقد توسعت رقعة الاراضي المزروعـة بفضل الري او تجفيف المستنقعات او تسويـة المرتفعات . وقـد اصبح هذا التوسع اهم الاهداف لدى الحكومات العربية. فمصر مثلا التي تعادل مساحتها مساحة فرنسا واسبانيا معا لا تعادل مساحة الاراضي المزروعة فيها سـوى مساحة هولندا .

واهم مشروع لزيادة الاراضي الصالحـة للزراعة هو مشروع السـد العالي الذي بدأ يعطي الكهرباء عام ١٩٧٠ وسيزيد الاراضي الصالحـة للزراعـة بمقدار ٢٠٠٫٠٠٠ أكر (٩) . وقد كلف هـذا السـد حوالي اربعمائة مليون جنيه استرليـنـي . وقد اقرضت روسيا مصر ربع هذا المبلـغ .

اما في الاردن فان مخطط الري في الغور الشرقي قـد زاد مساحـة الاراضي الصالحـة للزراعـة بمقـدار ٣٠٫٠٠٠ أكر (حوالي ٦٣٠ كلم ٢) . وفي العراق والسودان ستعطـي عمليـة تجفيف المستنقعات المردود نفسه .

وفي كثير من الاراضي العربية لـم تطبق النظم الزراعيـة الحديثة نظرا لفقـر المزارعين وارتفاع تكاليف الآلات الزراعيـة. اما في البلدان الغنية كالسعوديـة والكويت فان استخدام التقنية الحديثة في الزراعـة اعطى نتائج باهرة في الصحراء ، كخطة الري التي نفذت فـي منطقـة الخرج جنوب الرياض .

وفي الكويت اعظم مؤسسـة للابحاث الزراعية المتقدمة فـي العالم في مجال الهيدروبونيك والايروبونيك (تحليل الماء وتقطيره). وقـد اجريت تجارب عديدة بهاتيـن الطريقتيـن عام ١٩٥٥ بعـد تأسيس قسم الزراعـة في الكويت بقليل . وقد حالف النجـاح

---

(٩) الاكر يساوي نحو اربعة آلاف متر مربع . (المراجع)

هذه التجارب الى درجة ان القسم صمم على انتاج المحاصيل كلية بطريقة الهيدروبونيك وانتهى العمل في انشاء هذه المؤسسة عام ١٩٦٩ ، فزرعت البطاطا والبندورة وكانت النتيجة ان تضاعف المحصول عشر مرات عن الزراعة بالطريقة التقليدية .

اما طريقة الايروبونيك فهي متشابهة للهيدروبونيك من حيث المبدأ . فتطعم جذور النباتات بمحلول كيمياوي . وتوضع هذه الجذور في انبوب عمودي لتحقن بالمحلول الكيمياوي وفي اوقات متفاوتة .

لم يبق من الغابات الواسعة التي كانت موجودة في المشرق وشمال افريقيا الا القليل . بقي في العراق ٨٫٠٠٠ ميل مربع من الغابات في المناطق الشمالية البعيدة يحصل منها على ثمار الجوز واخشاب الحور .. وفي لبنان بقي القليل من اشجار الارز المشهورة التي يحافظ عليها لبنان بعناية فائقة بدلا من زيادتها وتوسيعها . وفي سورية بقيت بعض الاحراج في منطقة اللاذقية وجبل العرب وفي الاردن مناطق صغيرة في عجلون ومعان . اما في السودان فهناك الغابات الطبيعية الاستوائية الواسعة في ثلاث مناطق من الجنوب . وفي تونس يجري التعويض عن الاحراج المنقرضة ببرنامج واسع لغرس الاشجار في الكثبان الرملية . وتعتمد هذه العملية المدهشة على زرع الاشجار الصغيرة وبخها او رشها بنوع من انواع النفط بعد زرعها مباشرة ، وهذا النفط يمنع تسرب الرطوبة من النبات ويمنع الكثبان من الانجراف وقد استخدمت عملية مشابهة في ليبيا ويقدر ان تتحول الى غابات منتجة مساحة ٦٠٠٫٠٠٠ هكتار (١٢٫٦٠٠) كم٢ من الكثبان الرملية .

وفي المغرب ينفذ برنامج واسع لغرس الاشجار بمساعدة معسكر ثقافي نشيط اقنع المزارعين بان اشجار المشمش اجدى لهم من رعي قطعان الماعز .

وفي الجزائر برنامج مماثل لغرس الاشجار الا ان البلاد تشكو

من نقص في عدد العمال في الاحراج .

ان الحكومات العربية تعلق اهمية على الزراعة وتوسيعها وتحسينها وهناك اكثر من اربعين كلية زراعية او مؤسسة زراعية او معهدا للابحاث الزراعية في البلاد العربية. وتتدرج من (المدرسة الوطنية للزراعة) (Ecole National d'agriculture) بالقرب من مكناس في المغرب ... الى كلية الزراعة والاحراج (The College of Agriculture And Forestry of the University of Baghdad) ومعهد اخر للابحاث تابع للكلية نفسها .

وكان عدد من هذه المعاهد من مخلفات الاستعمار في المغرب كما هو الحال في معهد :
(Société d'Horticulture et d'acclamatation du Maroc)
الذي انشأه الفرنسيون عام ١٩١٤ وقسم الابحاث الملحق بوزارة الزراعة السودانية الذي انشأه الانكليز عام ١٩٢٩ .

ان انبعاث علم الزراعة العربي يعود الى عام ١٨٧٤ عندما نشر المصري احمد ندى مجلدين عن فن الزراعة الحديثة وذلك بعد قيامه بدراسة الطرق الزراعية الحديثة في فرنسا، وسماه (حسن الصناعة في علم الزراعة) ومنذ صدور هذين المجلدين نشرت عدة كتب اخرى في ميدان الزراعة والبستنة اما مترجمة الى اللغة العربية او مؤلفة بها اصلا .

الفصل التاسع

البعثات التبشيرية الاسلامية والمسيحية

منذ الحروب الصليبية قام كل من المسلمين والمسيحيين بنشاط في ارسال البعثات التبشيرية السلمية بشكل يختلف كلية عن نشاطهما الحربي . ورغم النجاح الذي لقيه الفريقان في افريقيا الوثنية فان احدا منهما لم يوفق في كسب جماعة من الفريق الاخر الى دينه . ولذا لا يمكن القول بأن هذه الارساليات كانت ذات اثر في صلات العرب باوروبا . ولكن بعض الامثلة تلقي ضوءا على الحماس الذي ابداه الجانبان والذي اصبح عنصرا مميزا لهذه الارساليات حتى الازمنة المعاصرة .

وقد مر بنا ذكر الارساليات الكاثوليكية (١) . اما الارساليات البروتستانتية في البلاد الاسلامية فلم تلق نجاحا اكثر من الكاثوليكية . وكانت اولى هذه الارساليات تلك التي جاءت برئاسة النبيل التشيكي فانسلوس دو بودور (Venceslaus de Budor) الذي قام بنشاط تبشيري في القسطنطينية منذ ١٥٧٧ حتى

(١) راجع المقدمة والفصل الخامس .

١٥٨١ وكان وقتها عضوا في السفارة الملكية لدى السلطان . وقد ادخل مسلما واحدا في المسيحية .

وفي القرن التاسع عشر تزايد نشاط الارساليات الاوروبية في البلاد العربية، وقدم لها النفوذ السياسي الاوروبي وسيطرته على البلاد تسهيلات لمهامها . وبخاصة الارسالية البروتستانتية الاميركية والارسالية اليسوعية الفرنسية في لبنان وسورية. ولقد دخل في طائفتهم بعض المسيحيين الشرقيين الذين ينتمون الى الكنيسة الشرقية القديمة في حين لم يدخل فيها احد من المسلمين . علما بأن هذه الارساليات لعبت دورا ثقافيا مؤثرا على المسيحيين والمسلمين كما مر بنا من قبل .

تسببت الارساليات المسيحية الاجنبية في احداث موجة من الاستنكار وبخاصة في السودان . ويقول تقرير ارسالية السودان المتحدة معللا هذا الاستنكار (ان هدف الارسالية تنصير الكثير من القبائل السودانية وتشكيل كنيسة افريقية ذات سيادة ذاتية ، ولمقابلة المد الاسلامي فان الارسالية تؤيد على اقل تقدير مشروع اقامة مركز هام لها في كل قبيلة كبيرة عبر القارة الافريقية من الشرق الى الغرب . وقد مولت المؤتمرات التبشيرية هذا المخطط في جميع انحاء العالم) .

وكانت البعثات الاسلامية نشيطة لعدة قرون في افريقيا واسيا . وفي القرن العشرين امتد نشاط هذه الارساليات الى اوروبا واميركا وانجح هذه الارساليات في اوروبا تلك التي تنتمي الى الطائفة الاحمدية التي اسسها مرزا غلام احمد في الهند في القرن التاسع عشر . وقد بنت هذه الارسالية المساجد في انكلترا وفرنسا والمانيا ولا تزال فروعها نشيطة في بقية الانحاء وفي عام ١٩٦٨ افتتحت اولى مسجد اسكنديناڤي في كوبنهاغن .

ان العلاقات الدينية الدولية بين المسلمين والمسيحيين ليست قصتها في كسب اعضاء جدد لاحدى الديانتين من الاخرى فقط . ففي القرن العشرين دخل هذه العلاقات عنصر ثقافي جديد

هو (الدراسة المقارنة للديانات) .

وتأخذ هذه الدراسة المقارنة في اوروبا واميركا موقفا متصفا من المسلمين على نقيض ما كان يحدث قديما . ويمكن ان نرى الفارق مثلا بين مؤلفات المستشرق الانكليزي تشارلس داوتي (Charles Doughty) ومؤلفات : مونتغومري وات ، اشهر المستشرقين الاوروبيين في الوقت الحاضر .

ومن ناحية ثانية فقد اخذ المسلمون يتقبلون الدراسة المقارنة للاديان والدليل على ذلك انها غدت جزءا من منهاج الازهر ومنهاج الجامعة الاسلامية في المدينة المنورة .

واذا انتقلنا الى الدعاية الثقافية بمعناها الواسع نجد ان هذا النشاط اكتسب تطورا جديدا وشكلا منظما . وفي هذا المجال فان المركز الثقافي البريطاني (British Council) هو الرائد بفروعه في احدى عشرة دولة عربية وتأتي المانيا في المرتبة الثانية بفروعها ، في عشر دول عربية . الى جانب فرنسا واسبانيا وايطاليا والولايات المتحدة الاميركية . وهذه الدول لها مراكز ثقافية في عدد من الدول العربية . ولروسيا مركز ثقافي في العراق . ولبولندا اخر في لبنان وللنمسا مركز في مصر .

اما البلاد العربية فليس لها نشاط ثقافي في اوروبا بل هي تدعم المعاهد الاسلامية هناك . ويتم هذا الامر في جو ودي ويمكن للمرء ان يتخيل دهشة رجال الدين المسيحيين في العصور الوسطى اذا قدر لهم ان يسمعوا بتأسيس المركز الاسلامي في فيينا الذي وضع حجر اساسه مطران فيينا الكاردينال كونيك عام ١٩٦٨ .

الفصل العاشر

تطور اللغة العربية واهميتها في الوقت الحاضر

ان اهم عوامل الوحدة العربية في العصر الحديث هي اللغة العربية . وان هذه الوحدة الثقافية والعاطفية التي تستطيع اللغة منحها لاكثر من مائة مليون عربي سوف تجعل من العرب قوة حضارية في العالم مرة ثانية .

ان اللغة العربية احدث اللغات السامية ، واقدم نموذج للكتابة العربية هو كتابات النمارة في البادية السورية وهي التي وجدت منقوشة على قبر امرىء القيس ملك الحيرة ويعود تاريخها الى عام ٣٢٨ . ولم تعرف قبل الاسلام الا ثلاثة امثلة أخرى عن كتابات عربية قديمة .

كانت العربية عند ظهور الاسلام تقسم الى لهجات شرقية وغربية . ومن امثلة الفروق بين اللهجتين ان الهمزة تلفظ في الشرق وتختفي في الغرب وان الاسم الموصول (الذي) يستعاض عنه بـ (ذي) في الغرب وان (قول) في الشرق تصبح (قيل) في الغرب .

وقد جمع شعراء الجاهلية بين هذه اللهجات مما اوجد لغة مألوفة بين القبائل ودعي هذا الشكل (العربية الفصحى) ولا تزال قواعدها معمولا بها حتى وقتنا بالنسبة للغة المكتوبة . وقد رسخ الرواة وحدة هذه اللغة واستمراريتها . والرواة اناس امتهنوا رواية الشعر وهم في ذلك يشبهون مجموعات التروبادور (troubadour) الاوروبية في القرون الوسطى . وهؤلاء الرواة هم الذين حفظوا الفصحى وعلموها .

اما القرآن الكريم الذي هو اهم نص في العربية الفصحى فان لغته هي لغة الشعر الفصيح نفسها . وبعد الفتوحات وانتشار المسلمين في اراض واسعة كشمال افريقيا وغرب اسيا طرا تغيير على اللغة العربية وطعمت بلهجات مختلفة . وبهذا لا يمكن القول بأن اللهجات المحلية التي تطورت فيما بعد تعود تماما بجذورها الى العربية الفصحى بلهجاتها الشرقية والغربية قبل الاسلام.

وقد تبنى كثير من البلدان المفتوحة اللغة العربية ونشأ تبعا لذلك تغيير في اللهجات المحكية محلياً . وتطور ذلك الى نشوء لغة ادبية جديدة مستقلة . كما حدث في اوروبا حينما تطورت اللغات الرومانسية عن اللاتينية .

واللهجة العربية المالطية هي اللغة الوحيدة التي تطورت عن العربية واستقلت بذاتها . وفيما عدا ذلك بقيت العربية الكلاسيكية الوسيلة الوحيدة للتفاهم والادب في البلاد العربية وانحصرت اللهجات المحلية في نطاق الحديث اليومي . ويعود الفضل في ذلك الى فقهاء اللغة في القرنين الثامن والتاسع ، فهم الذين حافظوا على اللغة بدراستهم للقرآن والحديث واصدارهم القواميس ووضعهم قواعد اللغة مما جعل الادباء يكتبون وفق هذه القواعد . وقد دفع الفقهاء الى ذلك حرصهم على القرآن ولغته والدراسات القائمة حوله . وقد نتج عن هذه الدراسات مقاومة المفردات الاعجمية والحفاظ على صفاء اللغة .

الا ان بعض الكلمات الاجنبية دخلت العربية في القرن

السادس نتيجة اتصال العرب بالحبشة وايران وسورية ككلمة (فطر) الحبشية ، وكلمتي (تاج وديباج) الفارسيتين ، وكلمة (قسيس) و (اشبين) السريانيتين ، وكلمتي (قصر وميل) من اللاتينية ولكن هذه الكلمات دخلت العربية بطريق غير مباشر هو الارامية. وتبقى قليلة العدد .

وفي القرنين الثامن والتاسع نتيجة لتطور الثقافة الاسلامية دعت الضرورة الى ادخال كلمات اجنبية في مجال المصطلحات العلمية والفلسفية ، وفي القضاء والحكم والادارة العامة ..الخ.. ومن هذه المصطلحات ما هو اغريقي مثل : اصطرلاب وفلسفة واقليم .

اما في اواخر العصور الوسطى فان الانجازات العربية في مجال الطب والعلوم والفلسفة والتي عبر عنها المسلمون باللغة العربية قد اقتبسها عنهم الاوروبيون . كما ان الفتح العربي لاسبانيا لمدة طويلة من الزمن ادى الى استيعاب اللغات الاوروبية عددا كبيرا من المفردات العربية عن طريق اللاتينية . وبخاصة الاسبانية التي استوعبت عددا من الكلمات ذات الاصل العربي يقدر باربعة الاف كلمة . بينما استوعبت الالمانية ثلاثمائة كلمة من اصل عربي .

وفي الاعوام الاولى للاسلام بدات اللغة المحكية تنحرف عن لغة الكتابة وذلك نتيجة للتغيرات السريعة في الوضع الاقتصادي والاجتماعي للعرب ولتبني الاقباط والفرس والبربر وغيرهم العربية بشكل تام .

وقد ادى ذلك الى ظهور ما يعرف (بالعربية المتوسطة) حيث اسقطت الهمزة واختلط الامر بين لفظ حرف (ض) وحرف (ظ). ومن المعروف ان هذا الشكل الجديد للعربية كان يتحدث به ويكتبه بعض الناس وبخاصة اليهود والمسيحيون منذ القرن الثامن ولا تزال بعض المخطوطات شاهدا على ذلك .

وقد تطورت هذه العربية المتوسطة التي لا تختلف كثيرا عن

الفصحى الى لهجات محلية تختلف بشكل كبير عن اللغة المكتوبة.

واثناء حكم المماليك والعثمانيين تناول التحريف اللغة الادبية نفسها فشوهت بدخول بعض المفردات التركية والاجنبية الاخرى، وتدل على ذلك مؤلفات المؤرخ الشهير الجبرتي المتوفي عام ١٨٢٥ وقد اعادت النهضة الحديثة المتأثرة باوروبا الى العربيـة صفاءها ومجدها القديم .

وتبقى المشاكل الاساسية للذين يودون عودة العربية مـرة ثانية الى مكانتها العالمية تتمثل في الازدواجية اللغوية وفي البحث عن مفردات علمية وفنية موحدة .

وتبدو الازدواجية في استخدام لغة للحديث مختلفة عـن لغة الكتابة ، وهذا وارد في جميع اللغات الى حد ما ولكنه فـي العربية يأخذ شكل فجوة عميقة بين اللغتين وهذه الفجوة تختلف اختلافا كبيرا بين قطر عربي وآخر. وهذا ما يشكل مصاعب امام التفاهم والثقافة العربية ، وامام تعليم الاجانب للعربية . ويبقـى الامر متوقفا على جهود الحكومات العربية لحل مشكلة الازدواجية هذه .

اما المفردات العلمية والفنية الموحدة فهي مشكلـة يسهـل حلها والصعوبات الاساسية ليست في ان العربية عاجزة عن خلق هذه المفردات بل ان هذه الصعوبات هي في كون العربية غنيـة جدا مما يجعل الباحثين العرب يستنبطون اكثر من مصطلح عربي في ترجمتهم عن اللغات الاجنبية وهذا غير ضروري كتعريب كلمة تلفون بـ (هاتف) و (ارزيز) و (مسرة) .

وقد تأسس في القرن العشرين اربعة مجامع لغوية في البلاد العربية تعنى بمشكلة المفردات العلمية باللغة العربية بشكل عام. وهذه المجامع هي :

١ ـ المجمع العلمي العربي في دمشق .
٢ ـ مجمع اللغة العربية في القاهرة .
٣ ـ المجمع العلمي العراقي .

٤ ـ المكتب الدائم لتنسيق التعريب (١) .

وبالاصدار المتزايد للقوانين المختصة من قبل هذه المجامع، يمكن ان يصبح لدى العربية عدد كاف من المفردات العلمية والفنية يعمل بها في كل انحاء الوطن العربي .

ان البلدان الاجنبية تجهل اهمية اللغة العربية ، وهناك فهم ضئيل للدور الذي تلعبه اللغة العربية في توحيد العرب، ولأدبهم الواسع ومقدرة لغتهم في الوقت الحاضر . بل ان العرب انفسهم يجب ان يتحمسوا للغتهم اكثر وهذا الحماس هو الذي كان يميزهم . ونورد هنا مقالة احد الكهنة العرب عن اللغة العربية وهو الاب المحترم انستاس ماري الكرملي :

« ان اللغة العربية اسمى اللغات ، وانها مفتاح اللغات جميعا لانها قادرة على تصوير كل ما يدور في الفكر البشري وفي الطبقة الانسانية . وانها قادرة على مسايرة كل عصر وكل جيل » .

ولقد نجحت المحاولات في احياء اللغة العربية والمحافظة عليها في شكلها الموحد وان الكتاب الذي ينشر في بغداد يمكن قراءته في الرباط وفي صنعاء . فالوحدة اللغوية قائمة حتى ولو لم تنجز الوحدة السياسية بين العرب . وقد برهنت العربية ان لها مكانة بين العرب جعلت انصار الفصحى يتغلبون على المنادين باللهجات المحلية، او استبدال الاحرف العربية باخرى لاتينية، وان تعلق العرب بلغتهم واثر هذه اللغة في الثقافة العربية خلال اربعة عشر قرنا كان كبيرا جدا . ولا شك انه سيستمر . وللعرب ما يبرر استلهام ماضي لغتهم المجيد . وان هذا الاستلهام يزيدهم املا بمستقبل مشرق .

---

(١) في الرباط .

مصـــادر الكتـــاب

SELECTED BIBLIOGRAPHY

المقدمـــة

A.J. Arberry, *Oriental Essays* (London, 1960).
J. Fuck, *Die Arabischen Studien in Europa* (Leipzig, 1955) .
R.W. Southern, *western Views of Islam in the Middle Ages* (Cambridge, Mass, 1962) .

كامل عباد : «صفحات من تاريخ الاستشراق» في مجلة مجمع اللغة العربيـة بدمشق (مجلد ٤٠) .

نجيب عقيقي : المستشرقون (القاهرة ، ١٩٤٧) .

الفصل الاول

T. Andrae, *Mohammed , the Man and his Faith* (London 1936) .
A.J. Arberry, *The Seven Odes* (London, 1957) .
P.K. Hitti, *History of the Arabs (10 th ed.,* London , 1970) .

J. Obermann, Early Islam , in *the Idea of History in the Ancient Near East* (ed, by R.C. Dentan, New Haven, 1955) .
W.M. watt, *Muhammad at Mecca* (Oxford, 1953).
W.M. watt, *Muhammad at Medina* (Oxford , 1956).

الفصل الثاني

C.E. Von Grunebaum, « The Sources of Islamic Civilisation» *in Der Islam*, Vol. 46 (1970), pp. L - 54 .
A. Miquel, *L'Islam, et sa Civilisation* (Paris, 1968).
D.L. O'Leary, *How Greek Science Passed to the Arabs* (London, 1948) .

الفصل الثالث

M. Daumas (ed.), *Les Origines de laCivilisation Technique* (Paris, 1962). *(Vol.I of Histoire Cénérale des Techniques)* .
W.J. Fischel, «Uber die Cruppe der karimi - kaufleute» *In StudiaArabica* , Vol . L (Rome, 1937) pp. 67-82.
M. Gaudefroy - Demombynes, *Muslim Institutions* (London, 1961) .
R. Levy, *The Social Structure of Islam* (Cambridge , 1962) .
D.S. Richards, (ed.), *Islam and the Trade of Asia* (Oxford, 1970).
J. Schacht, *An Introduction to Islamic Law* (Oxford , 1964) .
W.M. watt, *IslamicPolitical Thought : The Basic Concepts* (Edinburgh, 1968) .
احمد عيسى : تاريخ البيمارستانات في الاسلام (دمشق ، ١٩٣٩) .

الفصل الرابع

C.B. Boyer, *A History of Mathematics* (London, New York, Sydney, 1968) .

B. Dodge, *AL- Azhar : A Millennium of Muslim Learning* (Washington, 1961).
D.M. Dunlop ,*Arab Civilization to 1500* (London,1972).
A. Mazaheri, *Histoire de la Science Arabe (Beirut*, 1948).
R.A. Nicholson, *A Literary History of the Arabs* (Cambridge, 1907) .
A. Sayili, *The Observatory in Islam* (Ankara, 1960).
I. Schlosser, *Der Schone Teppich in Orient und Okzident* (Munchen, 1960) .
A. Shalaby , *History of Muslim Education* (Beirut, 1954) .
M.M. Sharif , (ed.) *A History of Muslim Philosophy* (wiesbaden, 1936-66) .
M. Ullmann, *Die Medizin in Islam* (Leiden — Cologne, 1970) .
M. Ullmann, *Die Natur-und Geheimwissenschaften in Islam* (Leiden, 1972) .

حنا الفاخوري : تاريخ الادب العربي (بيروت ، ١٩٦٠) .
ارنست كونل : الفن الاسلامي (بيروت ، ١٩٦٦) .

الفصل الخامس

C.E. Bosworth & J. Schacht (eds.) *The Legacy of Islam* (Oxford, 1974) .
D.M. Dunlop, *Arabic Science in the west* (karachi, 1958).
H.A.R. Gibb, «Infuence of Islamic Culture on Medieval Europe » in *Bulletin of the John Rylands Library* , Vol. 38 PP. 82-98.
K. Lokotsch,*Etymologisches worterbuch* (Heidelberg, 1927) .

N. Rescher , *Studies in Arabic Philosophy* (Pittsburgh, 1968) .
H. Schipperges, *Die Assimilation der Arabischen Medizin durch das Lateinische Mittelalter* (wiesbaden,1964)
T. Silverstein , « How Arabic Science Reached the west in the Earlier Twelfth Century» *in Atti della Accademia Nazionale dei Lincei* Vol. XXVLL , PP. 283-294 .
O. Spies, *Orientalische kultureinflusse im Abendland* (Braunschweig, 1949).
A. de Stefano, *La Cultura alla Corte di Federico II Imperatore* (Bologna, 1950) .
W.M. watt, *The Influence of Islam on Medieval Europe* (Edinburgh, 1972) .

م.م. حسين : الاسلام والحضارة الغربية (بيروت ، ١٩٦٩) .
عباس محمود العقاد : اثر العرب في الحضارة الاوروبية (القاهرة، ١٩٦٥).

الفصل السادس

A. Ali el - Hajji, « Diplomatic Relations between Andalusia and the Franks during the Umayyad Period» in *The Islamic Quarterly* Vol . XIIII, pp 112-126 .
A.S. Atiya, *The Crusade in the Later Middle Ages* (London, 1938) .
C. Brockelmann, *A History of the Islamic Peoples* (London, 1949) .
P. Earle, *Corsairs of Malta and Barbary* (London , 1970) .
E.Eickhoff, *Seekrieg und Seepolitik zwischen Islam und Abendland* (Berlin, 1966) .
J. de Joinville & G. de Villehardouin, *Memoirs of the Crusades* (London, 1908) .
W.B. Stevenson, *The Crusaders in the East* (Cambridge , 1907)

William of Tyre, *A History of Deeds Done Beyond the Sea* (New York, 1943) .

اسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار (برنستون ، ١٩٣٠ .

الفصل السابع

Ibrahim Abu - Lughod,*The Arab Rediscovery of Europe* (Princeton , 1963) .

R.H. kiernan, *The Unveiling of Arabia* (London,1937).

الفصل الثامن

Abdel Aziz Abdel Meguid , *The Modern Arabic Short Story* (Cairo, n.d.) .

W.Cantwelle Smith,*Islam in Modern History* (New York, 1959) .

A.G. Cheijne,« Autobiography and Memoirs in Modern Arab Historiography» in *The Muslim world* Vol . 52 , pp 31 - 38 .

N. Daniel, *Islam, Europe and Empire (* Edinburgh , 1966) .

H.A.R. Gibb, *Studies on the Civilization of Islam (* Boston, 1962).

G.E. Von Grunebaum, « Das Geistige Problem der Verwestlichung in der Selbstsicht der arabischen welt» in *Saeculum,* Vol.X, pp. 289 - 327 .

G.M. Haddad, « Modern Arab Historians and world History » in the *Muslim world* Vol . LI, pp. 37-43 .

A. Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age* (Oxford, 1962) .

C. Issawi, *The Economic History of the Middle East,1800 - 1914* (Chicago and London, 1966)

H. kohn, *Die Europaisierung des Orients* (Berlin, 1934).

B. Lewis, *The Middle East and the west* (Bloomington, 1965) .
F.I. Qubain, *Education and Science in the Arab world* (Baltimore, 1966) .

جورج سالم : المغامرة الروائية (دمشق) .

الفصل التاسع

The Muslim world : A Journal Devoted to the Study of Islam and of Christian-Muslim Relationship in Past and Present (1911 to present) .

الفصل العاشر

A.F.L. Beeston, *The Arabic Language Today* (London, 1970) .
J. Bielawski, « Deux périodes dans la Formation de la Terminologie Scientifique arabe » in *Rocznik Orientalistczny* Vol. XX, pp 263 - 320 .
A.G. Cheijne, *The Arabic Language : its role in History* (Minneapolis, 1969) .
W. Diem, *Hochsprache und Dialektim Arabischen : Untersuchungen zur heutigen arabischen zweisprachigkeit* (wiesbaden, 1974) .
J. Fuck, *Arabiya : Untersuchungen zur arabischen Sprach-und Stil — geschichte* (Berlin, 1950) .
V. Monteil , *L' Arabe Moderne* (Paris, 1960) .

جرجي زيدان : اللغة العربية كائن حي (القاهرة) .

الفهرس

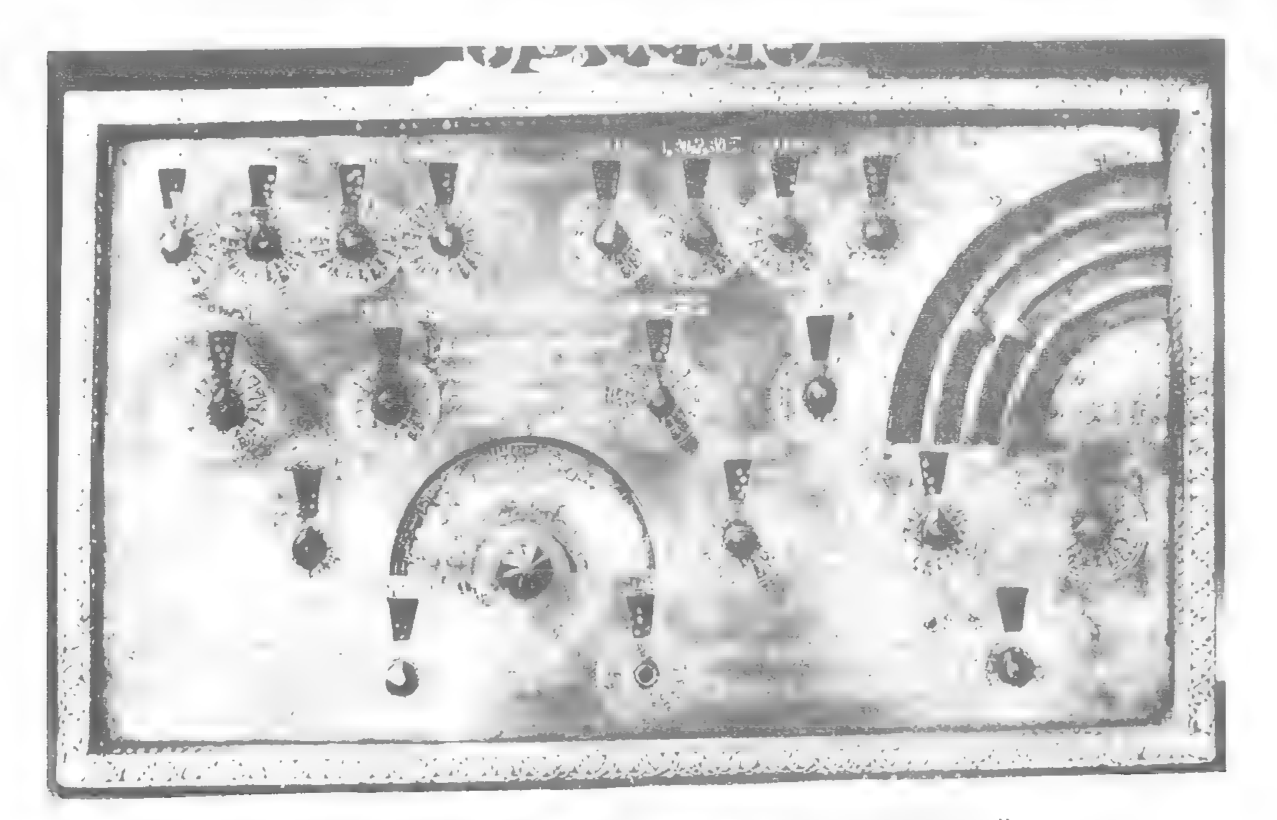
دراسات تاريخية وحضارية

صادرة عن دار الطليعة

٣٠٠٠/٧٩/٩٧٤



الرسم رقم (١) : اصطرلاب مصري (٦٣٣ هـ) مثال للآلات العلمية عند العرب.



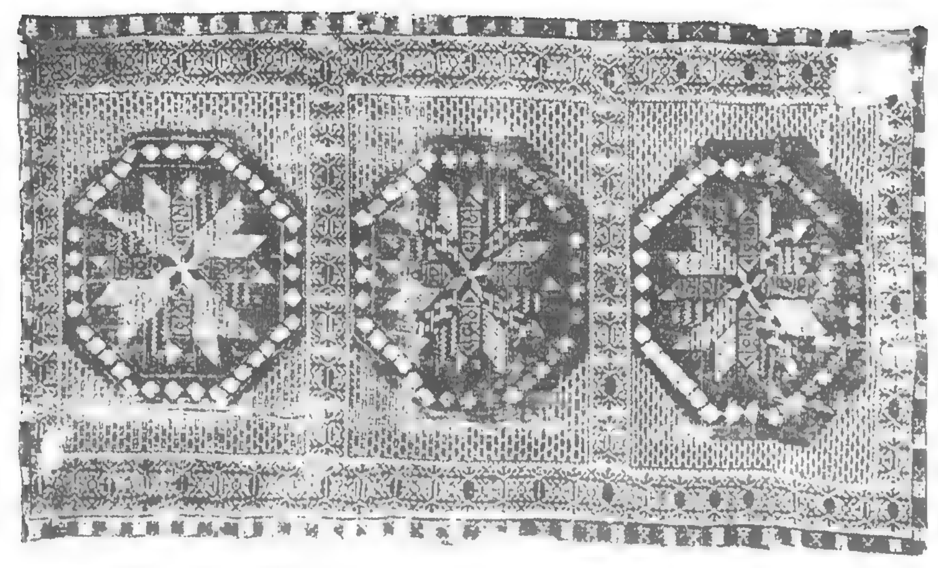
الرسم رقم (٢) : زيج فلكي مصنوع في العراق سنة ٦٤١ هـ . وهو مثال للالات العلمية التي استعملها العرب في العصور الوسطى .



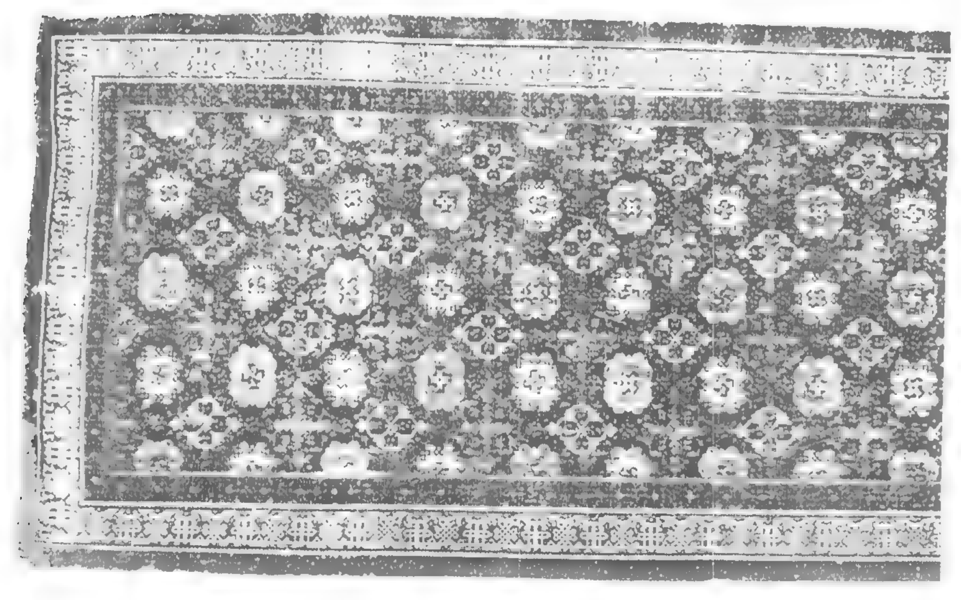
الرسم رقم (٣) : من روائع الفن الاسلامي . اناء من الرقة (سورية) .



الرسم رقم (٤) : من روائع الفن الاسلامي ايضا . طبق من الرقة (سورية) في القرن الثالث عشر الميلادي .



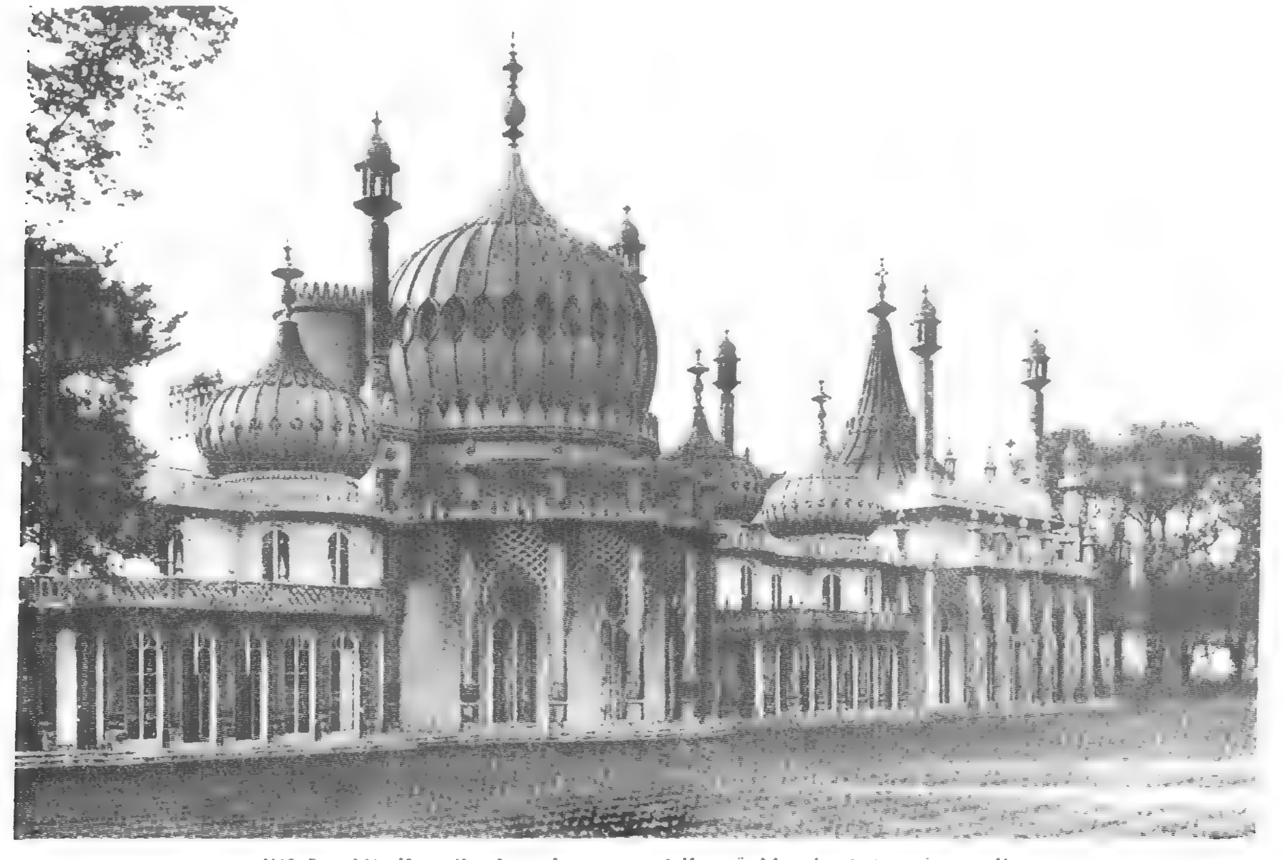
الرسم رقم (٥) : سجادة اسلامية مصنوعة في الاندلس (القرن الخامس عشر).



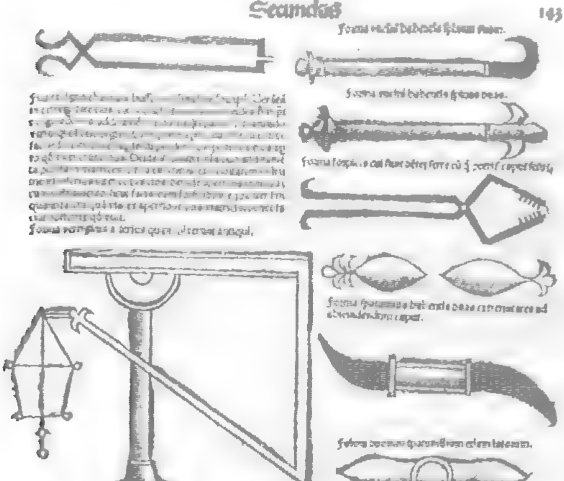
الرسم رقم (٦) : سجادة ثانية من الاندلس (القرن الخامس عشر) . ولا يـزال الاوروبيون ينظرون الى السجاجيد الاسلامية بنوع من الاعجاب منذ اول عهدهم بها في القرن الرابع عشر الميلادي .



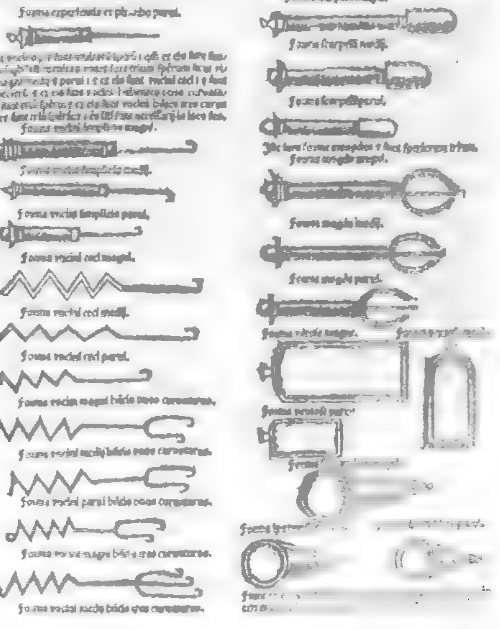
الرسم رقم (٧) : الازهر . وقد اثرت اشكال النظام الدراسي التي تطورت ضمن معاهد كالازهر في تعليم اوروبا تاثيرا عميقا .



الرسم رقم (٨) : هل هذا قصر لملوك الهند ، ام سراي لاحد السلاطين ؟ كلا!
هذا قصر من قصور الملك الانكليزي جورج الرابع الذي حكم في القــــرن التاسع عشر ، وقد بناه في مدينة برينتون بعد ان اعجب كثيرا بالطراز المعماري الاسلامي.







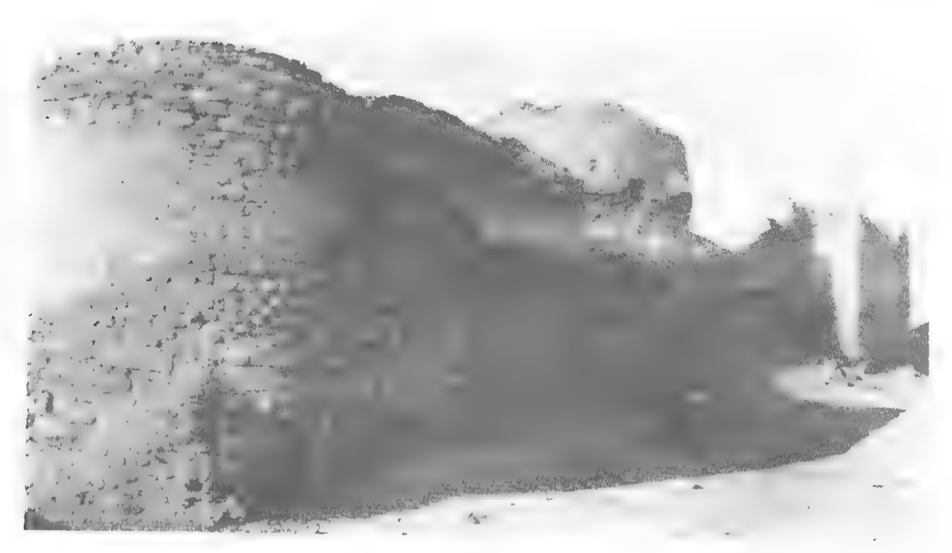
الرسم رقم (٩) : اثر الطب العربي في الغرب . صفحتان من ترجمه لاتينيـــه (١٥٣١ م) لكتاب « التصرف لمن عجز عن التأليف » لابي القاسم خلف الزهراوي وترى في هاتين الصفحتين ادوات جراحية .



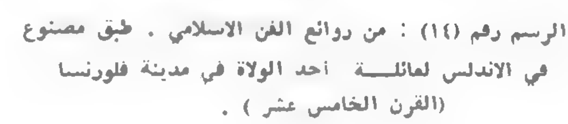
الرسم رقم (٦١) : أبراج ثلاث كنائس في مدينة لندن (كنيسة السيدة والقديس برايد والسيد المسيح) بناها المعماري المشهور السير كريستوفر رين في أواخر القرن السابع عشر . ويتضح في الصور تأثير فن بناء المآذن في شمال أفريقيا عليها .



الرسم رقم (١١) : قصر «فراقلينجهم» في مقاطعة «سفلـة» بانكلتـرا . وضـع مخطط هذا القصر طبقا لمخطط القصور العربية في سورية في عصور الصليبيين.



الرسم رقم (١٢) : آثار الاستعمار الاوروبي . القلعة البرتغالية في البحريـن. بناها البرتغاليون بعد فتحهم البحرين في القرن السادس عشر .



الرسم رقم (١٣) : من روائع الفن الاسلامي : طبق مصنوع في الاندلس (القرن الخامس عشر) وفي وسطه شعار مدينة فلورنسا (ايطاليا) .

الرسم رقم (١٤) : من روائع الفن الاسلامي . طبق مصنوع في الاندلس لعائلـــة أحد الولاة في مدينة فلورنسا (القرن الخامس عشر) .



الرسم رقم (١٥) : كتاب الف ليلة وليلة باللغة الانكليزية .
صفحة من ترجمة ادوارد وليام لين .



الرسم رقم (١٦) : خوذة عربية في مصر (القرن الخامس عشر)
ان منظر خوذة عسكرية كهذه كان يوقع الرعب في قلوب
الاوروبيين في العصور الوسطى .



الرسم رقم (١٧) : كنيسة الرملة (فلسطين) بناها الصليبيون وصارت بعد انسحابهم جامعا للمسلمين ٠



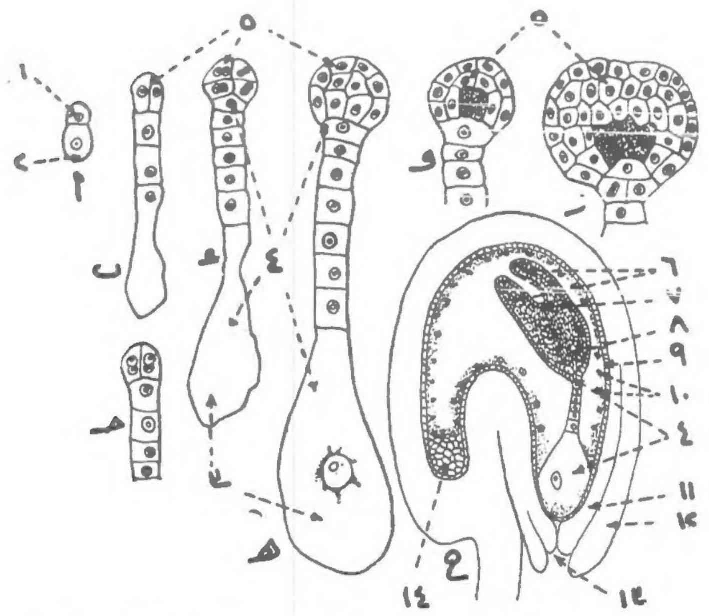
الرسم رقم (١٨) : معركة حطين . في الصورة صلاح الدين يهاجم الملك غـي ، ملك القدس الصليبي . رسمت هذه الصورة بعد حوالي ستين سنة من المعركة المشهورة . مأخوذة من مخطوطة محفوظة في جامعة كامبريدج (انكلترا) .



الرسم رقم (١٩) : كارستن نيبور ، الرحالة الالماني الكبير في اليمن .

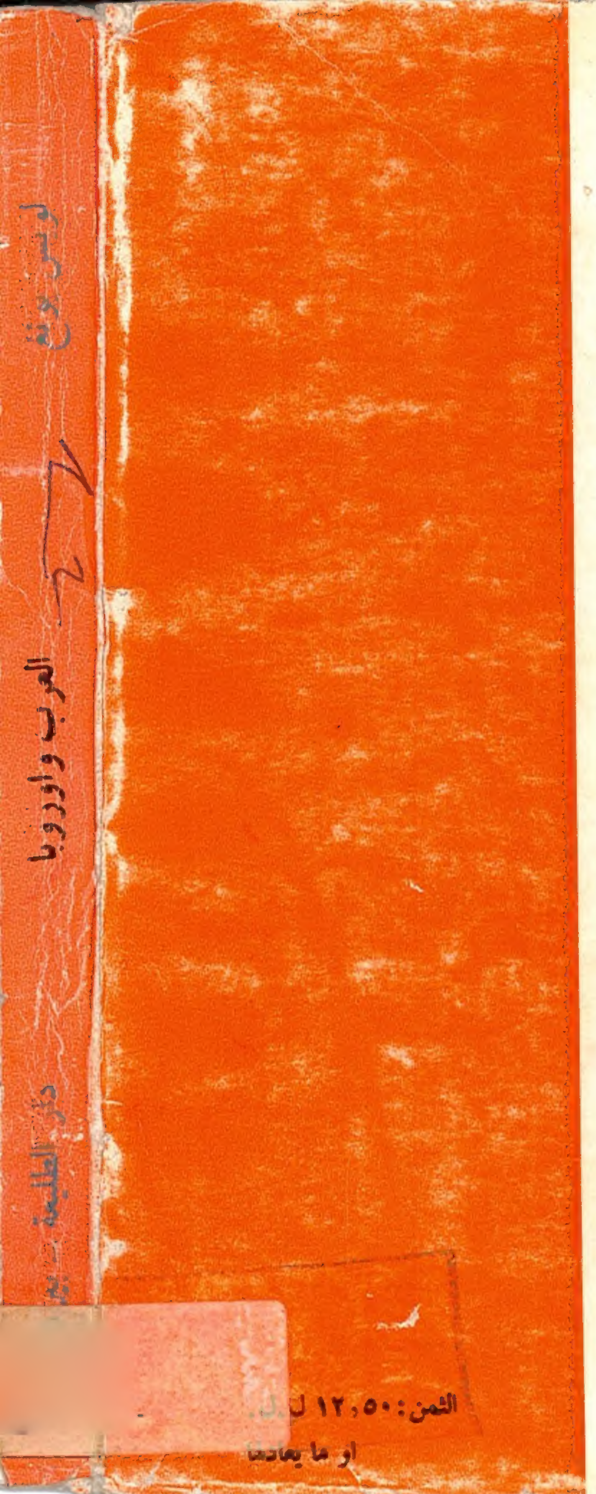
الفلقتين قد التحمتا تماماً، وكونتا فلقة واحدة . ولا يتميز المعلق ، فى بعض نباتات العائلة البقلية (Leguminosae) ، حيث لا توجد منطقة خاصة به . وينمو المعلق نمواً زائداً ، لخزن الغذاء به ، فى بعض نباتات العائلة الشقيقية (Ranunculaceae) ، وعلى الأخص جنس نبات كزبرة الحبشة (Thalictrum) ، وكذلك ينمو المعلق كثيراً فى نبات أبى خنجر (Tropaeolum majus) .

هذا ، ويصير الجنين ، فى النباتات الطفيلية ، كالهالوك (Orobanche spp.) ، وغيره ، كتلة غير متميزة الأجزاء .



(شكل ١٠٨) أطوار فى تكشف الجنين ، فى نبات كيس الراعى ، من ذوات الفلقتين :
(١) خلية الجنين ، (٢) خلية المعلق ، (٣) الخلية القاعدية ، (٤) المعلق ، (٥) الجنين ، (٦) الفلقات ، (٧) طرف الساق ، (٨) منطقة الجذر ، (٩) النيوسيلة ، (١٠) نوايات الإندوسپرم ، (١١) الغطاء الداخلى ، (١٢) الغطاء الخارجى ، (١٣) النقير ، (١٤) الخلايا السمتية .

الرسم رقم (٢٠) : صفحة من كتاب علمي حديث في اللغة العربيـة ((النبات للدكتور عباس فتحي الهلالي . ومما يلاحظ ان الكثير من الاصطلاحات العلمية ذكرت في اللغة اللاتينية وهي لا تزال لغة علامية مهمة في الغرب .



هذا الكتاب

« لقد كانت حصيلتي العلمية من قراءة كتاب (العرب واوروبا) كبيرة ومن الناحية الاخرى، تبين لي انه من الأجدر ان يوصف الاستاذ يونغ بانه محب للحقيقة اكثر منه محباً للعرب . لست أقول هذا لانكر تعاطف المؤلف مع العرب ، ولكني اقوله تقديراً لموضوعية هذا العالم وقدرته على التخلص من الاحكام المسبقة ، ولجهده في تحري الحقائق والمجاهرة بها متحدياً ما ران على الاذهان في الغرب طوال قرون كثيرة . . .

« وحسبي ان اقول ان هذا الكتاب هو بين يدي القارىء الاوروبي منبع نور يبصره ، باسلوب العلم واقناعه ، بما يجهله أو ما ينكره من قيم العرب الحضارية . أما القارىء العربي فانه سيجد فيه ما يزيد في معارفه عن تأثير العرب في اوروبا او تأثرهم بها ، كما سيجد الحسم لكل شك والجواب على كل تساؤل في ما ينبعث من بين سطور هذا الكتاب القيّم من محبة للحقيقة وتقدير لمساهمة العرب الكبيرة في سير الركب البشري وتكامل الحضارة الأنسانية » .

« د. عبد السلام العجيلي »

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت